

42

كتابي

اعتراقات

جان بياك روسو

الجزء الرابع

Looloo

www.dvd4arab.com

المؤسسة العربية الحديثة
تأليف جان بياك روسو
ترجمة د. محمد عبد الله

الجزء الرابع



اعترافات جان چاك روسو

الجزء الرابع

Looloo

www.dwd4oraboo.m

الأجزاء السابقة . . في سطور

الكتاب الأول

ولدت في (جنيف) ، في سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل في صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدي . وبدلاً من أن يكرهني أبي لذلك ، فإنه أسرف في حبه لي ، لأمنى كنت شديد الشبه بأبي .

نتبه إحساسي قبل أن يقتبسه مكرى . ثم عهد أبي إلى أسلوب خطر ، إذ اشركني في قراءة الروايات والكتب الدسمة .

واضطرب أبي إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين مسكرى فرنسي ، كادت تلقى به إلى السجن دون مرور قانوني . فبقيت في كف خالي « برنار » ، الذي كان متزوجاً من عمتي ، والذي أرسلني مع ابنه إلى (بوسى) لتقيم في رعاية القس البروتستانتي « لامبرسييه » ، ولتلقى العلم على يديه ويدي أخته . وكانت الأنسة « لامبرسييه » توليني حنان الأم ، ولكن عقابها إيأى نبه المشاعر الحسية والشهوانية في كيأى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمانينة طفولتي . وتركت الدراسة فالحقني خالي بمكتب موثق للعتود « على أمل أن أشق طريقي في المحاماة — فيما بعد — ولكني لم استسغ هذا العمل ، فرأى خالي أن من

مصلحتي أن اتعلم حرفة . والحقني كصبي — أو تلميذ صانع — لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اخططت بالعمل الذين كانوا يكبرونني سناً ، فتعلت السرقة ، لا سيما وأن معلمي كان يقسو على بالعذاب والحرمان . ومع ذلك فأنني لم أكن أسرق حبا في المال أو الحيازة . . وإلى جانب هذا ، اشتد شغفي بالقراءة حتى أصبح قهوساً

واضطرتني قسوة معلمي ، ونفوري من حياتي هذه ، إلى الهرب من (جنيف) . . فأنقذني بي المطاف إلى سيدة محسنة في (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاشي . لأنها اعتنقت الكاثوليكية . . تلك هي « مدام دي فاران » ، التي اشفقت على ، وأرسلتني إلى دير نبذت فيه عقيدتي البروتستانية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستطعت بعد ذلك حياة الفرحال ، وعانيت الفاقة والمقاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دي فاران ، التي رحبت بي ، وانزلتني من نفسها منزلة الابن ، وافرقت لي غرفة في دارها ، وراحت تنفق على تعليمي الموسيقى ، رغم تضائل مواردها . . وتعلقت بهذه السيدة تعلقاً ملك على كل حواسي وعقلي . . ويبرور الأيام صرت ادعوها « ماما » ! وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفقتني « ماما » مرة لآعاون السيد « لوميتير » ، الذي كان رئيساً لفرقة الموسيقى بكليسة (انيسى) ، والذي اختلف مع بعض رهبان الكليسة فشاء أن يفر من وجوههم . . وقد رافقته إلى (ليون) . وعندما عدت إلى (انيسى) ، إذا بي أمحاً بين « ماما » قد رحلت في بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصد أو مقراً !

واقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، أنيقا ، مرحا ، يستهوى النساء . . . وفي تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المسئول ، وشغل عنى !

انتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحلت اكتسب عيشى بتدريس الموسيقى ، بإذلا جهدى - في الوقت ذاته - إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذلك أن أكون ملحنا ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمضى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش في حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم أكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شيء ! . . ومع ذلك ، فإن تعلقى بها برغم ما كان عليه من تاجح وقوة - لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى أن اذهب إلى باريس ، ولكنى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامى . على اننى ظفرت هناك بنبا جعلنى أنطلق من جديد بحثا عن السيدة دى «ماران» . وهكذا أخذت أجوب الأتاليم على غير هدى « متعرضا للتشرد ، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات . . حتى عرفت أخيرا أن « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، مخففت إليها . . وما كان أحلاه من لقاء !

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على منصب فى « المساحة » ، فبدأت أكسب عيشى بعمل مشرف ! . . وكانت هذه خير خاتمة لبأكورة صباى !

واقمت فى دار « ماما » ، فى (شامبيرى) . . ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيبى) ، إذ كانت موارد «ماما» فى تضائل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود أنيه » . وكان شابا لا يكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بثابة الرضى . ومع اننى لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، إلا أن وفائى للسيدة امتد إلى الشاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل كل شيء !

وانصرفت إلى الموسيقى - فى تلك الأثناء - فى استغراق ملك على حواسى ، وحملى على أن أستقيل من عملى فى « المساحة » ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا إلى المجتمع الراقى ، وإلى دور ذوى الجاه والثراء . ويقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتى - التى ذهبت إلى درجة الغباء - كانت تقوت على الفرص . إلى أن أحسنت « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى فى أحابيلها ، فاشفقت على من مخاطر شبابهى ، ورأت أن تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها . . بأن تعلقى بـ « ماما » . وهكذا أخذت « ماما » تروى عطشى إلى «المساحة» من «ميشيرى» . . على

أن العلاقة البدنية لم تقيد شيئا من براءة علاقتنا العاطفية والروحية والفكرية، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقتها « كلود أتيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض !

وما لبث « أتيه » أن مات - وهو في ريعان شبابه - نحتلت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت في نزوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن اجنبها هاوية الانعاس . وانتهى بي التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كي أعمل من دخله « ماما » إذا ألت بها الفاقة . . . وفي سبيل ذلك رأيت أن اتعلم التحلين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبيد مواردها المضائلة ! . . . وكذلك شرعت في تأليف الأغاني .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات . . . وما لبثت صحتي أن أخذت تتداعى ، وغلبني الاكتئاب والاسى والتشاوم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف ، ومسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . . . وهناك ، نعمت باهنا فترة فى حياتي . . . مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل . . . فى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطين فى الأذنين ، وتراخ فى حيويتي ، مما أوحى إلى بأن عمري لن يطول ، فرأيت أن أستمع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، أنشد علاجاً لعللى .

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكلفت تكبرى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى ، حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالى عليها ، لم تتورع عن أن تكون هى البائدة بالمناق والتقبل . . . وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة ! ولو أنني عشت مئة عام ، لما استطعت أن أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون أن يطحن السرور على ! . . . كانت متعنى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق . . . أما مع السيدة دى لارناج ، فقد كنت نغورا برجولتي ، مزهوا بسماعتي .

وكأنت صدمت لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا غمري قد حل محلى أثناء غيابي . . . وكان جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم استطع أن أطبق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهرج الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثامن

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ . . . واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يكتفى من التقدم إلى « الأكاديمية » برسمائى التى قدر لى أن يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتي . وبدلا من أن أسقلم للقنوط ، أسلمت نفسي للخمول والقدر ، ورحلت أقتر على نفسي لأعبد بها بقى من موارد المتضائلة .

وأخرجني الأب « كاستيل » من استسلامي للكسل ، إذ عرفني بالبارونة « دي بوزينفال » وابنتها المركزة « دي بروجلي » ، وبالسيدة « دويان » وكان يملن إلى الموسيقى ولقد أبدت لي السيدة « دي بروجلي » عملا خاصا ، ونصحني بتعلم « الآنيكت » ! . . . أما السيدة « دويان » ، فكانت نافذة الشخصية . . . وقد تعرفت لديها على السيد « فرانكوي » ، ابن زوجها . وقد اطمعني لطفها ، نهيت حبا بها ، وكتبت لها رسالة غرامية ، ردتها إلى مع تائب جمد له دمي ! . . . وارتد عقلي إلى - بعد ذلك - ففقت بمصادقتها والفرود على دارها . وفي تلك الاثناء ، واقبلت على وضع « أوبرا » عن حياة ثلاثة من الشعراء ، هم « ناس » ، و « أوفيد » ، و « أناكريون » وقد أسبقتها « عرائس الشعر اللطاف » وقيل أن أنرغ منها « التحقت بالعمل كمسكرير للسيد الكونت « دي مونتيجي » ، سفير فرنسا في البندقية ورحلت إلى هناك . واستطعت في هذا المنصب أن أبدى مهارة وحكمة ، وإن اكتسبت محبة الفرنسيين المقيمين في (البندقية) ، وإن اكتسبت عدااء السفير ، إذ كان رجلا أحق ، جاهلا ، جشعا ، أسلم قياده لمستشارين من الإيطاليين استغلاء اثنع استغلال ، وأوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك واستطاعا أن يوغرا صدره على لأفنى كلفت مخلصا لمعلمي ، جادا في مسلكي ، معترا بكرامتي . وكان من جراء ذلك أن راح السفير بضايقتي ويكثر من مشاكستي ، حتى اضطررت - في النهاية - إلى أن أترك العمل في السفارة ، برغم أن السيد « دي مونتيجي » أبى أن يسوى حسابي ، وإن يدفع إلى استحقاقي .

وفي (باريس) ، رحمت أشكو تصرفات السفير معي لذوى النفوذ ، فكان كل امرئ يقرني على أثنى أوفيت وظلمت ، ولكن أحدا لم يحاول أن ينصفني على أن الرجل لم يلبث أن جنى على نفسه بتصرفاته الحقاء ، فاستدعى إلى باريس ، وأقمى عن منصبه ، وأوعز إليه أن يرد إلى ما كنت أستحق من نقود لديه على أن عدالة شكاياتي ، وعدم اكتراث أحد باتصاف طيلة تلك الفترة ، خلفت في نفسي بذور السخط على المنية الحقاء ، التي تضحي نظها بالمصلحة العامة ، والعدالة الحق ، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء !

وتفرغت لاستكمال « الأوبرا » التي كتبت قد بداتها وفي تلك الاثناء ، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل في الفندق الذي نزلت فيه ، فسرعان ما برح بنا الهوى واعترفت لي بزلة وحيدة تعرضت لها في فترة مراهقتها ، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبا لها !

واكتملت « أوبراي » ، فعرضتها على « رامو » - الذي كان واسع النفوذ في الوسط الفني - ولكنه تعامل عليها ، وأذكت تعامله تلميذته - السيدة ديلا بويلينيير - فراح يتهمني بأنني سرقت الألحان على أن السيد « ريشيليو » شجعني ، وسألني أن أغير الفصل الأخير من « الأوبرا » ليسمى لعرضها على متعهد من الملك . وما لبث أن شغلني عنها بان انطاب بي تعديل « أوبرا » كانت من تأليف « فولتير » وتلحين « لاسكركي » مع عذبن العظيمين في عمل كهذا ، إلى إكمالها وروجلي المستوفية

أن « رامو » استطاع - بالتواطؤ مع السيدة ديلابولنيير - أن يحول دون أن يعرف الرأي العام نصيبى في ذلك العمل !
وأتت كل هذه الظروف إلى تشييط عزميتى نحو الرقى ، فلم أجد أمكر في أكثر من كسب قوتى وقوت تيريز ، بالعمل كسكرتير للسيدة دوبان ، والسيد دى فرانكويى . . . وأقبلت و تلك الأثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير .

وأنتجت علاقتى بشيريز ثمرة أسلمناها إلى ملجأ اللقطاء . . . وكذلك فعلنا بأبنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة !

وما لبثت أن قرأت صديقة عن الموضوع الذى حددته المحفل العلمى بديجون لمباراته في العام القالى ، وهو : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » . . . وانتابتنى شبه فييوبة ، وأتاني خلالها إلهام أوحى إلى بقال في الموضوع أرسلته إلى المحفل .

وفي تلك الأثناء كنت قد أثبتت لنفسى مسكنا خاصا ، ضمنت فيه « تيريز » إلى . . . وسرعان ما أقبلت أسرتها تعيش معنا . وبقدر ما سمعت بلحظات هائلة مع فتاتى ، فأتنى شقيقت بأهلها الذين كانوا يستفيدون مواردها - من عملها - ومواردى .

وقدر لىالى أن يفوز في العام التالى - ١٧٥٠ - بجائزة محفل ديجون ، مايقظ ذلك في نفسى حب التصبر من خدمة الغير ، والسعى إلى أن أكون إنسانا فاضلا ، ذا استقلال ذاتى .

واضحلت صحتى - في هذه الفترة - فأوحى إلى طبيب شهير بأننى لن أبقي في الحياة لأكثر من ستة أشهر .

نقررت أن أعيشها حرا مستقلا ، ولو اضطررتى هذا إلى حياة الكفاف . . . واشتد عزمى على أن أتمسك باستقلالى « فاستخدمت كل قوى الروحية في تحطيم أغلال الراى العام ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون أن أحفل بأراء الناس . فأوغر مسلكى هذا صدور أصدقائى .

وعملت كتاسخ للقطع الموسيقية ، بعد أن استقلت من خدمة السيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . . . وأخذت أنحو نحو التثقف لأصلح من أمر نفسى . وكان مقالى قد أحدث في تلك الأثناء ضجة ، فكثرت شواغلى الأدبية ، حتى الهنتى عن عملى في نسخ الموسيقى . وأشار المقال انتقادات مبريرة ، اشترك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندى بنفسه ، فأنصرفت إلى الذود عن آرائى في جسارة خشى على بعض أصدقائى منها .

وما لبثت أن أدركت أن العيش في فقر وحريه « ليس بالسهولة التى يتصورها المرء دائما ! . . . ولقد حاول بعض المعجبين بى أن يعوضونى عن ذلك بالهدايا ، ولكنى رحت أرفض جميع الهدايا ، دون ما استثناء . . . ولم يصاف هذا المساك هوى من نفس السيدة لوفاسير - أم تيريز - ولا أفلح ما اتصبت به ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، في صدها عن قبول الهدايا من وراء ظهري ، ومن إغرائها ابنتها على أن تقبلها هي الأخرى ، أو تكتم عنى أمرها ، على الأقل ! ومن هنا اشتد الخلاف بينى وبين السيدة لوفاسير التى راحت تعرض ابنتها على ، وتضمنى لىالى أصيقلنى ، وتقامر مع من كانوا يحاولون منهم أن يفسدوا عزمى . . . ولقد أدى

اندماجى فى المجتمع إلى أن أعمل على إنكاء اعتدادى بنفسى ، فأحلتنى الحياء إلى هجاء لادع ، وإلى أن أزدري آداب اللياقة .. فاضطر الساخرون إلى أن يحدوا من سفريتهم .

وأدت قصة « عراف القرية » إلى تالقى فى المجتمع ، فكثر معارفى .. وكانت هذه « الأوبرا » من طراز جديد ، وقد استطاعت أن تكسب إعجاب الجمهور ، كما حضر الملك وحاشيته عرضها فى البلاط . ولقيت من التكريم ما أثار خلجى حتى أثنى عندما دعيت إلى القصر الملكى ، وقيل لى إن من المعتقد أن الملك قد أزمع أن يعلننى بأنه قرر منحى معاشا سنويا ، يادرت إلى التهرب من المفاسدة ، وتخلت من المعاش .

وزاد النجاس من تنكر أصحابائى لى ، وتالبهم على .. وفى تلك الأثناء ، وضعت رسالتى عن : « حديث فى عدم المساواة » التى أثارث فيها بعد ضجة كبيرة ، واجتلبت على ثمة الحكومات ، لاسيما حكومة (جنيف) .

وفى ذات يوم ، دعتنى السيدة ديبيناي إلى مرافقتها إلى ضيعتها (لاشيفريت) ، حيث كان العمل جاريا فى إضافة جناح إلى القصر .. وهناك ، وجدتھا قد جددت بناء كوخ صغير كان فى طرف المتنزھات الملحقة بالقصر ، فى متاخمة غلبة (مومورنسى) .. وكنت قد أبدت من قبل إعجابى به ، لقبامه فى موقع منزل جميل ، فعلمت السيدة على إعداده لسكناى ، ودعتنى للإقامة فيه . وبالرغم مما أثاره هذا من تخرصات « أصحابائى ! » ، الذين راحوا يروجون أننى أعيش على كرم

السيدة ديبيناي فإنتى لم اتردد فى هجران باريس ، والإقامة فى (اليرميتاج) - كما كان ذلك الكوخ يسمى - مصطحبا « تيريز » ولها .

وهناك ، تفرغت للانتاج الأدبى . ومع اننى بدأت أشعر بأن إقامتى على مقربة من السيدة ديبيناي ، وفى ضيافتھا ، قد حد بعض الشيء من حريتى ، إلا أن هذا لم يحد من إقبالى على الإنتاج .

وفى هذه الفترة بالذات ، اشتد توثق العلاقات بينى وبين « تيريز » ، وازداد نهم كل منا للآخر .. وقد يعجب القارىء لهذه الرابطة التى توجتها فى شيخوختى - وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة - بالزواج .. قد يعجب القارىء لهذه الرابطة « إذا صارحته بأننى لم أحب يوما « تيريز » ولا اشتھبتها .. ومع ذاك فإنھا كانت « ولما » أعز امرأتين لى ! .. والواقع أن ما دفعنى إلى التعلق بتيريز - من البداية - هو أننى كنت أتوق إلى زميلة اندمج معها روحا وقلبا .. وكان لطفها وسذاجتها وأخلاقتها كخيلة بأن توحى إلى باتھا خير من تصلح لذلك . ولكن ولأدما لأبھا وأسرتها ، وحشع هؤلاء ، كانوا يفسدان علينا هنا ! .. وكانا يجعلان تيريز ملكا لأهلها ، أكثر مما كانت ملكا لى ، أو ملكا لنفسها !

والآن .. تعال نعيش مع « روسو » فى العالم

الذى كان يعيش فيه منذ قرنين كاملين :

ولم يكن جثسمهم مؤديا إلى إفلاسها ، بقدر ما كان نصحهم مؤديا لها . . . وقصارى القول انها إذا ما لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة - والفضل في ذلك لحبها لى ولنفسها المفطورة على الطيبة - فانها كانت من الخشوع لهم بدرجة تمنع ، إلى حد كبير ، أثر المبادئ الطيبة التى سمعت إلى أن ابنتها فيها .

هذا هو السر في أن فراغ قلبى لم يلق في علاقة خالصة متبادلة كهذه - أودعتها كل ما في هذا من عاطفة - ما يملؤه تماها . وكان الأطفال ككيليون يملء هذا الخواء . . . وقد رزقنا بهم ، ولكن انجابههم زاد الأمر سوءا . فلقد كنت ارتجف لجرد التفكير في إسلامهم إلى هذه الأسرة السيئة النشأة ، لنكحل لهم نشأة أسوأ . . . كان ما لتربية اللقطاء - في الملجأ - من احتمالات سيئة ، أهون من ذلك بكثير . . . وهذا التبرير للقرار الذى اتخذته ، كان الوحيد الذى لم أجرو على فكره للسيدة دى فرانكويس ، برغم أنه أقوى بكثير من تلك التى سقتها في خطابى إليها . فقد أثرت أن أبقي في غير منجاة من لوم ثقيل الوطأة ، لكن أهول أسرة امرأة كنت أحبها . ولكن من الممكن - على ضوء أخلاق أخيهما النعس ، إن لم نقل على أضواء أخرى - الحكم بما إذا كان من واجبي ، إذ ذاك أن أعرض ابنائى لأن يتلقوا تربية كثرية !

وإذا لم أستطع أن أستمتع تمام الاستمتاع بهذه الصحبة الوثيقة التى كنت أتمتع بحاجة إليها ، فقد سمعت إلى معزات وإن لم تملأ فراغ قلبى ، إلا أنها جعلتلى أقل شعورا به . وإذا كنت أعتقد صديقا يؤثرنى بكل وده ونفسيه ، فقد وجدتنى

بحاجة إلى أصدقاء أوتوا من التحريض والتحفيز ما يطفى على تراخى وكسلى . ومن ثم فقد رحت أنسى وأعزز علاقتى بديدرو والراغب دى كونديلاك ، وأقبلت على علاقات جديدة - ولكنها أكثر توقفا . . . بجريم ، وما لبثت أن وجدتنى في النهاية - بفضل تلك « الرسالة » التعسة ، التى رويت قصتها من قبل - مرتما ، دون ما تكثير ، بين أحضان الأب ، الذى كنت أظننى قد هجرته إلى الأبد !

ولقد أفضى بى ارتيادى الأول للأدب - خلال طريق جديدة - إلى عالم فكرى آخر ، لم أكن أملك أن أتأمل بساطته وإيجازه السامى ، دون ما تحمس . . . وسرعان ما أصبحت بفضل انتهائى لا أرى في معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة ، ولا أرى في نظامنا الاجتماعى سوى ظلم وتعاسة . وفى انسياقى لضلال الغرور الأرعن ، خيل إلى أننى إنما خلقت لى أهدد جميع هذه الأباطيل . . . وإذا رأيت أنه لا بد لى من أن أجعل تصرفى يتمشى مع مبادئى - إذا شئت أن يكون رأى مسموعا - فأننى انتهجت المسلك الأوحى الذى لم يتح لى أن أستمر فيه ، والذي لم يقتصر لى أصغائى المزعومون أن جعلت نفسى مثالا وقدوة فيه ، والذي جعلتنى - في البداية - أضحوكة ، وكان خليقا بأن يجعلتنى - في النهاية - موضع الاحترام ، لو أنه تسنى لى أن أثابر عليه !

ولقد كنت حتى ذلك الحين طيبا ، فاصبحت من تلك اللحظة فاضلا ، أو نشوان بالفضيلة . على الأقل . . . وقد

بدأت هذه النشوة في رأسي ، ولكنها سرت إلى قلبي . وعلى
اطلال القصور المقوض ، نبتت أنبل كبرياء .. ولم أكن متظاهرا
بشيء ، بل انشئ غدوت كما كنت ابدو حقاً . وفي خلال السنوات
الأربع - على الأقل - التي دامها هذا الفوران في أقصى
قوته - لم أعجز عن أن أعتقد ، بيني وبين السماء ، كل جليل
وجميل يمكن أن يفتاب قلب بشر . ومن هنا نبتت بلافتي
المفاجئة .. ومن هنا تولد ذلك اللهب السماوي الصادق الذي
الهبني وانتشر في كتبي الأولى ، والذي لم يكن - أبان أربعين
عاماً - قد فقد شرارة واحدة . لأنه لم يكن قد استمر بعد
خلالها !

ولقد تغيرت تغيراً حقيقياً ، حتى أن أصدقائي ومعارفي لم
يعودوا يعرفونني . لم أعد ذلك الرجل الخجول ، الذي كان حياء
أكثر منه متواضعا ، والذي لم يكن يجرؤ على أن يظهر نفسه ،
ولا على أن يتكلم ، والذي كانت الكلمة الماجنة تريبكه ، والظلمة
الصادرة من أية امرأة تبعث حمرة الخجل في وجهه ! .. وفي
جراة ، وفخر ، وإقدام ، رحت أحبل في كل مكان اعتدادا كان
وطيدا بقدر ما كان بسيطا ، وكان مقهراً في أمالي ، وليس
في مظهري .. وكان من جراء الأزراء التي الهمتني تملاتي
الممبقة - نحو أخلاق ومبادئ - وأوهام عصري - أن أصبحت
أبعد من أن أثار بسخريات أصحاب تلك الأخلاق والمبادئ .
.. فكنت أسحق ملهمهم ونكاتهم الصغير بحكمي وأمثالي ،
كما أسحق حشرة بين أصابعي . فإله من انقلاب ! .. لقد
راحت باريس بأسرها ترد السخريات الوخازة للاذعة التي
أخذت تنبعث من رجل لم يكن قبل عامين - ولا بعد عشرة

أعوام - يعرف كيف يهتدي إلى ما ينبغي عليه أن يقوله ،
ولا الكلمة التي يجدر به أن يستعملها ! .. إن أي فرد يسعى
إلى العثور على أشد الحالات مناقضة لطبيعتي ، لن يعثر
إلا على حالي هذه .. وإذا هو رغب في أن يذكر فترة واحدة
من الفترات القصار التي تخللت حياتي وكنت فيها على غير
ما أنا بفطرتي ، فلن يعثر على بغيته إلا في هذا الزمن الذي
أتحدث عنه .. ولكنها فترة لم تدم ستة أيام ، أو ستة
أسابيع ، وإنما دامت ست سنوات ، ولعلها كانت قيمة بأن
تدوم حتى الآن ، لولا الظروف الخاصة التي أدت إلى انتهائها ،
والتي ردتني إلى فطرتي التي حاولت أن انتشل نفسي منها !

وبدا هذا التغير بمجرد أن بارحت باريس ، ولم تعد مناظر
الردائل ، في هذه المدينة الكبيرة ، تغذي الاستنكار الذي كانت
تبعثه في نفسي . ذلك أنني إذ أصبحت لا أرى الناس ، كفتت
عن ارتدائهم .. وإذا لم أعد أرى أهل الضيعة ، كفتت عن
بغضهم . فان قلبي المفلطور على العزوف عن الكراهية ، لم يعد
يملك مستوى الرثاء لتمسهم ، إذ أنه لم يكن قادراً على أن
يتبين فيه مكرهم . وسرعان ما أخذ هذا الاتجاه - الأكثر
لطفاً ، ولكنه أقل سمواً من اتجاهي السابق - حدة الاندفاع
الذي ظل يجتاحني طويلاً .. وعدت - دون أن يفطن أحد ،
بل ودون أن أفطن أنا نفسي تقريباً - خجولاً ، مجاهلاً ، هيباً
.. عنت - بايجاز - جان جاك الذي كفته من قبل ، تماماً !

ولو أن الانقلاب لم يؤد إلا إلى ردي إلى حالي الطبيعي ، فلم
يتجاوز ذلك ، لكن الأمر خيراً .. ولكم www.dvdclub.com

ذهب إلى أبعد من ذلك ، وحملني مسرعا إلى التقيض . ومثذ
ذلك الحين - لم تعد نفسي - في اضطرابها - تستقر في نطاق
الطمأنينة ، ولامكنها التذنب المتجدد باستقراره من أن تريح
هناك وتبقى . فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثاني - - فقد
كانت فترة رهيبة - مشلومة ، في مصير لا مثيل له بين البشر !

لما كنا مجرد ثلاثة افراد في ماوانا المنزل (١) ، فقد كان
من الطبيعي أن يؤدي الفراغ والوحدة إلى توثيق تألفنا .
وهذا ما حدث بيني وبين " تيريز " : فرحنا نقضى - تحت
الاشجار الوارفة الظلال - ساعات عذبة - نغم خلالها
بعزلة لم اتذوق من قبل مثل حلاوتها ! ولاح لي أن " تيريز "
هي الأخرى كانت أكثر استمتاعا بخلاواتنا معها في أي وقت
بضئ " نفتحت لي قلبها دون ما تحفظ . وأطلعني على أمور
- عن أمها وأسرتها - أوتيت المقدرة على أن تكتبها عنى زمتنا
طويلا . فقد اعتادت رأمها أن يلقيا من السيدة " دويان "
هدايا كثيرة ، كنت أنا المقصود بها ، ولكن المعجوز الماكرة
أثرت بها نفسها وأبناءها الآخرين - لتفادى غضبي - دون
أن تدع شيئا لتيريز ، ومع تحذيرها - أشد تحذير - من أن
تقول لي شيئا عنها . - وهو امر كانت الفتاة المسكينة تنفذه
في طاعة تنوق التصور !

ومما ادهشني أكثر من أي شيء آخر . أن تبينت أنه إلى



فرحت نفسي - حب لاشجار الوارفة الظلال - ساعة عذبة

بعزلة لم اتذوق من قبل مثل حلاوتها

جانب الأحاديث المتكئة - التى أكثر « ديدرو » و « جريم » من عقدها مع الأم وابنتها ليصرفاهما عنى . والثى لم تغلب بفضل مقاومة تيريز - فان الاثنين راحا يعتدان كثيرا من الاجتماعات السرية مع الأم . دون ان تدري الابنة شيئا مما كان يدبر بينهم . . . كان كل ما علمته هو ان الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورا فى الموضوع . وانه كانت ثمة جينيات وروحيات ، كانوا يحاولون التستر عليها ، وكانت هى نجعل الباعث عليها جهلا تاما . . . وعندما رحلنا عن (باريس) كان قد انقضى وقت طويل . اعتادت خلاله السيدة لوفاسير زيارة « جريم » مرتين او ثلاثا فى الشهر . حيث كانت تنصى بضع ساعات فى احاديث كان الحرص على نكتتها يدعو اليه إقصاء خادم « جريم » عن المسكن فى كل مرة !

وقد رت ان الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذى حاول ديدرو وجريم ان يستدجرا الابنة اليه . حين وعدا بان يحدلا لها ولأماها - بمعونة السيدة ديبيناي - على تصريح بالاتجار بالمخ ، او حاثوت لبيع التبغ . . . وبإيجاز عندما لوحا لها بفرض المكسب . ولقد أوحى إلى هاتين المرأتين بأننى لم أكن فى وضع يمكننى من أن أفعل من أجلها شيئا . بل ولم أكن أملك - بسببهما - أن أفعل شيئا لنفسى . ولما كتبت لم أر فى كل هذا سوى نوايا حسنة . فأننى لم أحمل لأحد ضغينة . على الإطلاق . ولم يثرنى سوى الفموض . لا سيما من جانب المعجوز التى راحت - فوق كل هذا - تزداد رياء ودهاء نحوى . يوما بعد يوم . دون ان ينعما ذلك من ان نلوم ابنتها

باستمرار - وفى الخفاء - على أنها كانت مسرفة فى حبها لياى . وانها كانت تصارحنى بكل شيء . وانها لم تكن سوى غيبة لن تلبث ان تثبت ان تثبت ان تثبت انها كانت ضحية غفلتها !

لقد أوتيت هذه المرأة أعلى درجات البراعة فى اصطيد عصفورين بحجر واحد . وفى أن تخفى عن أحد المتواطئين بعما ما تلقته من الآخر ، وأن تخفى عنى أنا ما تسليته من الجميع . . . وكان يوسعى ان أغفر لها جشعها ، ولكنى لا أستطيع ان أغفر لها رياءها . أى شيء كان يجوز لها إخفاؤه عنى . . . عنى أنا . الذى كانت تدرك تماما أن سعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هى . . . إن ما بخلته لابنتها - إنما كنت أبخله لنفسى . . . أما ما نعلته من أجلها هى . فقد كان جديرا بالمرغان منها . . . كان حريا بها ان تعترف بالفضل لابنتها ، على الأقل ، وأن تحبنى إكراما لحبها لابنتها التى كانت تحبنى . . . لقد انشغلنا من اليأس الكامل وكانت تستمد قوتها منى ، وكانت مدينة لى بكل أولئك المعارف الذين عرفت كل المعرفة كيف تفيد منهم . . . ولقد ظلت « تيريز » رقتا طويلا تعولها بما كانت تكسبه من عملها ، وأصبحت تغذيها من خبزى . . . كانت مدينة بكل هذا لابنتها . دون أن تفعل لوفد الابنة شيئا . . . وكانت بناتها الأخريات - اللاتى منحتهن تيريز مهورا (دوطات) استنفدت كل ما لها - أبعد من أن يساعدننا . بل أنهن رحن يلتهمن مواردنا ويواردى . . . وتبينت أنه كان حريا بالسيدة « لوفاسير » - فى حق ما رزق الوقت - أن تنطلق إلى كمديتها الأوحدة . ويشتغل « من »

عنها ويكتفها . وبدلاً من أن تكتم عنى الأمور التى كانت من ذات شئونى . وبدلاً من أن تتأمر ضدى فى عقر دارى . كان عليها ان تطلعنى فى إخلاص على كل ما كان خليقاً بأن يهمنى . إذا ما علمت به قبلى . غاية عين كان يوسعى . إذن - أن أرى مسلكتها الغادر ، العاهض . . . وما الذى كان ينبغي أن أظنه - فوق كل شيء - عن المشاعر التى تذرعت بها لدى ابنتها . . . أى حجود هائل كان حجودها . عندما سمت إلى أن توسوس إليها ؟

كل هذه الخواطر البت مؤادى - فى النهاية - ضد هذه المرأة . حتى اننى لم اعد أنظر إليها دون احتقار . . على اننى لم اكف قط عن أن اعامل أم شريكة حياتى باحترام . وإن أبدى لها - فى كل شيء - ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير . . بيد اننى لم أكن - فى الحق - لأحب أن أمكث معها وقتاً طويلاً . ولم يكن يوسعى أن أغضب نفسى على ما لا تحب !

وهنا أيضاً كانت إحدى تلك اللحظات القصيرة التى مرت بحياتى ، والتى رأيت فيها السعادة جد دائية - دون أن أقوى على نيلها ، ودون أن يكون لى ذنب فى نواتها ! . . ولو أن هذه المرأة كانت طيبة الشخصية . لظل ثلاثتها سعداء حتى نهاية أعمارنا . . ولكن آخر من يبقى منا على قيد الحياة وحيداً . جديراً بالراءء . ولكنكم سترون - بدلاً من ذلك - تطور الأمور ، وستحكمون بأنفسكم : أكان يوسعى أن أغير حال هذه المرأة ؟

ذلك ان السيدة لوفامبير - حين رأت اننى وطلدت مكانتى فى نؤاد ابنتها . ولأنها فقدت الفتاة - راحت تناضل لاستعادتها . وبدلاً من أن تقترب منى عن طريقها ، أخذت تسعى إلى إيفار صدري عليها . وكان من الوسائل التى استخدمتها ، أن استدعت أسيرتها إلى معاونتها . وكنت قد رجوت تمييز بالاً تستقدم أحسداً إلى (ليرميلاج) ، فوعدتنى بذلك . . غير أنهم كانوا يستعدون فى غيابة ، ودون استشارتى ، وكانت تمييز تحمل على أن تعد بالاً تقول لى شيئاً . وما أن تمت الخلوة الأولى . حتى غسدا كل شيء سهلاً . فإن المرء إذا أخفى - مرة - عين يحب أمراً ، فإنه لا يلبث أن يكتم عنه كل شيء ، دون تورع . فما كنت أذهب إلى (لاشيفريت) (١) ، حتى كان (ليرميلاج) يزخر بالناس يقبلون على الاستمتاع بالقام هناك فى استمراء . والام دائماً ما تكون قوية السلطان على الابنة التى فطرت على الطيبة . . ومع ذلك فإن العجز لم تستطع - برغم كل جهودها - أن تغرى تمييز على أن تأخذ بأرائها . أو أن تستدرجها إلى التآمر ضدى . أما عن نفسها ، فإنها كانت قد وطلت عزمها - دون انكسار - على وضع خاص : فكانت تنظر - من ناحية - إلى ابنتها وإلى أنا . كشخصين نستطيع أن نقيم فى دارها فحسب . . وكانت تنظر - من ناحية أخرى - إلى ديدرو . وجريم . ودلباخ ، والسيدة شيبيناي ، كشخصين يعدون بأمر كثيرة ، ويمنحون بعض

اشياء .. وما خطر لها قط انها كانت تخطئ، إذ تسير في ركوب زوجة نافظر عام للزراعة ، وبارون . ولو أنني كنت دقيق النظر . لرايت - منذ ذلك الحين - اني إنها كنت اغذى افعى في احضاني . بيد ان ثقتي العمياء ، التي لم يغيرها شيء حتى الآن ، كانت لا تدع لى سبيلا إلى ان احسس ان هناك من يبغي الشر بمن هو جدير منه بالحسب !! . وفي الوقت الذي كنت ارى فيه الف سيسيئة تحيط بى ، لم اكن املك ان اشكو إلا من جور أولئك الذين كنت ادعومهم أصدقاء لى ، والذين كانوا يسمعون إلى ان يجمعونى - بالرغم منى - سميدا على نسقهم لا على النسق الذي كان يحلو لى !

ومع ان تيريز ابت ان تنحاز إلى امها في تأمرها - إلا انها ابقت على سرها ، وكان باعثها على ذلك خليقا بالتقدير . ولن اقطع بها إذا كانت قد أحسنت او أنها أسأت !! . وعندما يكون بين امرأتين سر ، فانهما تشفقان بالثرثرة معا . وقد قرب هذا بين تيريز وامها . واصبح مسلك تيريز - إذ وزعت ولاءها - يشمرنى ، في بعض الاحيان - بالوحدة ، لأننى لم اعد اعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صراحة ومعاشرة . وفي تلك الفترة اشتد شعورى بالخطا الذي ارتكبته ، في بداية رابقتنا . إذ اننى لم استغل اللين الذي كان حيا يوحى به إليهما . لكنى

اريتها بمواهب ومعرفة كانت كفيلا بان تقرب بيننا في معنكنا وبأن تملأ وقتها ووقتي على خير وجه . دون ان تدعنا نشعر قط بفجوات الوقت في منزلتنا . وليس معنى هذا ان الحديث بيننا كان مجددا . ولا انها ابدت أية بادرة تمت

ملل خلال زهراتنا . وإنما معناه انه لم يكن لدينا عدد من الآراء المشتركة يكتفى لى يكون موردا مدخرا .. ولم يكن بوسعنا ان نفككم بلا انقطاع عن مشروعاتنا ، التي اقتصرت - منذ تلك الحين - على لهونا . وكانت الاشياء المحيطة بنا توحى إلينا بخواطر كانت فوق إدراك تيريز .

ولم تكن علاقة كعلاقتنا - دامت اثنتى عشرة سنة - بحاجة إلى كلام . إذ أصبح كل منا يعرف الآخر إلى درجة لم يعد يجد معها سبيلا إلى مزيد . ومن ثم فان المورد الوحيد الذي تبقى للحديث بيننا ، تمثل في الثثرة غير المجدية ، والفضائح . والنكات الركيكة !! . ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكر ، قدر ما يشعر في المزلة ، بوجه خاص . أما أنا . فلم اكن بحاجة إلى هذه الميزة كي اهدأ بصحبة تيريز . بيد ان تيريز كانت بحاجة إليها كي تجد دائما ما يسرها في صحبتى . وكان أسوأ ما في الأمر ، اننا كنا مضطرين إلى ان نعتد لقاءاتنا الخاصة في الخفاء . إذ ان أمهما أصبحت تضايقتى وتضطررتى . نحن ان احببنا الفرص تلك الخلوات .. كنت مقيد الحرية في تارى . بأوجز تعبير . وكان جو الحب يفسد جو الصداقة . دون ثم فاننا كنا نمارس علاقة بدنية . دون ان نعيش في محبة قلبية !

وما ان خيل لى أنني لاحظت على «تيريز» أنها كانت تتعامل أحيانا للتقرب من الفزهات التي كنت أعرض عليها ان نشاركها على الاقدام ، حتى كففت عن ان أقترحها عليها . دون ان اطلعها على أى استياء من أنها لم تلتزم

وأوضحها ، وأوسع نطاقها : دون أن أضن بشيء لكى تسال حظها من التقدير !

ومن ثم فقد كان لابد اعلمى من أن يخالف من جزعين منفصلين تمام الانفصال .. أحدهما يخصم لشرح مختلف غايات المؤلف ، على النسق الذى ذكرته .. أما الثانى - الذى لم يكن ليظهر إلا بعد أن يحدث الاول مفعوله - فكان على أن اعرض فيه حكمى على تلك الغايات ذاتها .. مما كان خليقا بأن يبينها ، فى بعض الأوقات ، كقصيدة من نظم شخص مبغض للبشرية ! .. وكان لابد من أن يتوج هذا الكتاب كله بإيراد حياة المؤلف . وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد ، التى رحت أزين لفمى اننى لن أشوهها إذ استخدمها . وكنت قد التقيت بالأب « دى سان - بيير » مرتين أو ثلاثا - فى شيخوخته - فكان التبحر الذى كانه لأكبراء ضمانا بطمئنى إلى أن السيد الكونت لن يستاء من الطريقة التى عاملت بها قريبه « فى مجموعها !

وأجريت محاولتى الاولى على « السلام الدائم » . وهم الأبحاث التى تضمنتها المجموعة وأكثرها نصيبا من العناية . وقبل أن استغرق فى أفكارى ، تجلت فقرات كل ما كتبه الراهب - فى هذا الموضوع البديع - بخذائره ، دون أن اضيق قط بما كان يتخلل حديثه من إطالة وتكرار . ولقد أطلع الراى العام على هذه الرسالة المستخلصة ، ومن ثم فليس لدى ما أقوله عنها . أما الحكم الذى ارتأيته بصدها ، فلم يطبع قط ، ولمست ادرى إن كان سيطبع يوما ، ولكنه كتب فى

ذات الوقت الذى أعدت فيه كتابة الرسالة . وانتقلت من ذلك إلى نظرية « البوليفيتودى » ، أو تمعد المجالس .. وهى الرسالة التى وضعها فى عهد الوصاية على العرش ، ليروج للنظام الحكومى الذى اختاره الوصى ، والذى أدى إلى إقصاء الراهب « سان - بيير » عن المحفل الفرنسى « الأكاديمى فرانسيى » - من جراء بعض رسالات كتبت ضد النظام الحكومى السالف الذكر ، الذى ألقى الدوقة « دو مين » والكاردينال « دى بولينيك » . وقد أتممت هذا العمل كما نعتت بسابقه ، سواء الرسالة أو الحكم . ولكننى توقفت عند هذا الحد ، دون ما رغبة فى مواصلة هذا المشروع ، الذى ما كان ينبغى أن أبداه !

وكان الخاطر الذى أوحى إلى بنيدة ، قد وافانى من تلقاء ذاته . وكان من المدهش أنه لم يخطر لى قبل ذلك . فان معظم كتابات الراهب ، كانت فى مجموعها - أو كانت تشتت على - ملاحظات نافذة لبعض نواحي نظام الحكم فى فرنسا . وكان بعضها من الصراحة والتحرر بدرجة يعتبر معها الراهب مجذودا لأنه أفلت من العقاب الذى كانت خليفة بأن تجره عليه . على أنه كان يعتبر فى الأوساط الوزارية - طيلة الوقت - كواحد من المبشرين ، أكثر منه كسياسى حقيقى ، ومن ثم فقد ترك يقول كل ما كان يحلو له ، لأنه كان من الجلى أن أحدا لم يكن يصفى إليه . غير أن الأمر كان يختلف إذا ما حملت أنا انتقاداته إلى الاسماع .. ولقد كان فرنسيا - ولم يكن أبدا غريبا - ماذا كررت انتقاداته - ولو باسمه - لتعريضه لى أسبى من قبله سؤالا

عسيرا صارما - ولكن دون ما ظلم - عما كنت أقحم نفسي فيه .
وقبل ان اوغل في ذلك ، غطنت - لحسن الحظ - إلى المأخذ
الذي كنت اتجه ضد نفسي « وتراجعت مسرعا . فلقد كنت
أدرك أنني - إذ أعيش وحيدا وسط رجال ، ورجال كلهم أقوى
منى - لن أقوى قط ، ومهما تكبر وسائلى ، على أن أبقى نفسي
أى أذى يحلو لهم ان يوقعوه بى . ولم يكن ثمة فى وسمى -
إزاء ذلك - سوى أمر واحد ، ذلك هو ان أجعل من المستحيل
عليهم - إذا هم راموا إيذائى - ان يفعلوا ذلك ظلما . وهذا
المبدأ - الذى جعلنى أهجر الأب « سسان - بغير « - كثيرا
ما حملنى على ان أطرح على كثيرا من المشروعات التى اعتر
بها . والذين يبادرون دائما إلى ان يجعلوا من المحنة جريمة .
كأنوا خليقين بان يدهشوا - إذا عرفوا كل ما نجشمت فى
حياتى ، لكى لا يقال لى - عن صدق - فى أوقات محنى :
« لقد استحققتها تماما ! »

وتركنى نبذ هذا العمل حائرا - بعض الوقت - بشأن
ما أتولاه بعده . وكانت هذه الفترة من البطالة مضيقا لى ، إذ
جعلتنى أحول أفكارى إلى نفسى ، نظرا لعدم وجود ما يشغلنى .
فلم تعد لدى مشروعات للمستقبل تروق لخيالى ، كما أنه لم
يكن من الميسور ان أدير شيئا من هذه المشروعات ، لأن وضعى
الراهن كان هو عين الوضع الذى جمع كل رغباتى . ومن ثم
فإننى لم أفكر فى مشروعات جديدة ، ومع ذلك فقد ظلت أشعر
بفراغ . ومما زاد هذه الحال قسوة ، أنني لم أكن أجِد
ما يفضلها إذ كنت قد أوقفت أرق عواطفى على امرأة راقية

نفاذى . وقد باطلتنى هذه العواطف ، غعشت معها على
سجيتى ، وفق ما حلأ لى ، كما ينبغي أن يقال . ومع ذلك فإن
ضيقا خفيا ظل يستولى على نفاذى ، لا يبرحه فى قربها ولا فى
بعدها . وكنت أشعر - وأنا ضجيعها - انها ما زالت غير
خالصة لى . . وكان مجرد التفكير فى أنني لم أكن لها كل من
لها ، يجعلها تبدو لى شيئا لا يذكر تقريبا !

وكان لى اصدقاء من الجنسين ، ارتبطت بهم بأخلص الود ،
وبأكمل التقدير « وكنت مطمئنا إلى أنهم يكون لى - مقابلها -
أصدق المشاعر ، فلم بخطر بيالى قط - ولو مرة واحدة - ان
ارتاب فى إخلاصهم . ومع ذلك منذ كانت هذه الصداقة تبعث
عذاب - لا نعيم لى - نظرا لعنادهم ، بل وللحاحهم فى
معارضة كل ميولى وأهوائى وطريقة حياتى ، إلى درجة أنه
كان يكفينى ان أبدى رغبة فى شيء لا بهم سوى وحدى ،
ولا ينوقف عليهم ، حتى أراهم يتأزرون - فى الحال - لإقناعى
بالتخلى عنه . هذا الإصرار على السيطرة على كل أهوائى -
الذى كان يزيده جورا أنني لم أكن بمنأى عن محاولة السيطرة
على أهوائهم نحسب ، بل أنني لم أكن قط بتعرف هذه الأهواء
- لم يلبث ان أصبح مرهقا لى إلى درجة قاسية ، حتى أنني
لم أعد - فى النهاية - اتسلم رسالة منهم . إلا وشعرت ،
وأنا أفضها ، بشيء من الخوف كانت مطالعة الرسالة لا تثبت ان
نبره . . . ولقد تبينت - بالنظر إلى أنهم كانوا يصغروننى
سنا ، وكانوا فى أشد الحاجة إلى الدروس التى يخصصونى
بها - أن معاملتهم لى كانت أظرف - ما شرف إلى معاملة
الكار لطفيل صغير . « كنت كليل نعيم :

« احبوني ، كما احبكم . وفيما عدا ذلك ، فلا تتدخلوا في شئونى ما دمت لا اتدخل في شئونكم - وهذا جيل ما اسالكم اياه ! » . وإذا كانوا قد اولوني احد المطلبين ، فمن المؤكد انه لم يكن المطلب الاخير !

ولقد كان لى مسكن ناء ، في عزلة فائتة ، وكنت سيد دارى وربها . وكان بوسعى ان اعيش هناك على هواى ، دون أن بفرض على مخلوق سيطرته . ولكن هذه السكينة فرضت على واجبا كان اداؤه يحلو لى . لولا انه كان محتوما على . فلم تكن حريتي بأمرها سوى أمر موقوف . بل إنها كانت خاضعة لسلطان يفوق مجرد الاوامر . . . وكنت مضطرا إلى قبول هذا الوضع باختياري . . . لم أكن أملك صياحا واحدا يستطيع ان أقول فيه لنفسى ، وأنا استيقظ : « ساستغل هذا اليوم كما يحلو لى » . فالى جانب اننى كنت رهنا لتدبيرات السيدة ديبيناي ، كنت رهنا كذلك لإزعاج اكبر . . . إزعاج الجمهور والوافدين . إذ ان المسألة التى كانت تفصلنى عن باريس . لم تحل دون ان يأتى إلى يوميا زرافات من المتبطلين ، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفيدون من وقتهم ، اللهم إلا ان يبددوا وقتى دون اى اكتراث . . . وكنت أفاجأ بهجومهم دون رحمة ، وأنا أبعد ما أكون عن توقعهم . . . ونائرا ما رسمت خطة بديعة لنهارى ، دون ان أراها تقلب رأسا على عقب . من جراء وصول واقد !

وقصارى القول اننى — في غمرة النعم التى كنت أشد ما أكون شوقا إليها — لم أحظ قط بالسرور الخالص . . . فرحمت أرتد

وثبا إلى أيام صباى الصافية ، وكنت أهتف لنفسى أحيانا ، ولنا انهد : « آه ! . . . لست هنا ! شارميت ! ! » (١) .

وانضت بى فكريات المراحل المتباينة من حياتى ، إلى التفكير فيما انتهيت إليه ، ورايتنى وقد بلغت عتبات الشيقوخة ، فريسة لشرور البهة . . . واعتقدت اننى كنت اقتررب من نهاية حياتى العملية ، دون ان أكون قد نعمت في أوجهها بشيء من تلك المتع التى كان القلب يصبو إليها . . . ودون ان أكون قد امسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة . التى كنت أشعر بأن قلبى كان يذخرها . . . ودون ان أكون قد استمرات ، بل دون ان أكون قد تفوقت — على الأقل — تلك اللذة المسكرة ، التى كنت أحس بها في اعماقى في عفوانها . . . والتى كان امتقادها الهدف والمجال يجعلها دائما مكبوحة ، عاجزة عن ان تنطلق بكل قواها اللهم إلا خلال زغراني !

فكيف قدر لرجل حبته الطبيعة بروح واسعة الافاق ، وكانت الحياة لديه هي الحب . . . كيف قدر لى ان اعجز — حتى ذلك الحين — عن العثور على صديق يكون لى كل نفسه . . . صديق صادق ، وأنا الذى كنت أشعر اننى خلقت لكي أكون كذلك . . . كيف قدر لى « وقد أوتيت مشاعر متاجعة ، وقلبا منعما بالحب ، وألا أكتسوى مرة واحدة — على الأقل — بلهب هذا

(١) « شارميت » بقعة في الريف السويسري - قصر فيها « روسو » فترة النقطة التى قدر له بعدها ، ان يفترق عن السيدة « ديبيناي » زفراة .

الحب ، من أجل شخص معين ؟ .. ورأيت نفسي أقترِب من
اعتاب الشيخوخة ، والحاجة إلى الحب تغري مؤاذي ، دون
أن أملك قتلها إرضاء أو إشباعا .. رأيتني أوشك أن أموت ،
دون أن أكون قد نعتت بالحياة !

هذه الخواطر الحزينة - وإن كانت ناعمة منعمة بالحنان -
جعلتني على أن ارتد بفكاري إلى نفسي في حسرة لم تخل من
لذة ! .. فقد لاح لي أن القدر كان مدينا إلى بشيء لم يستطع أن
يمنحنيهِ . فلماذا خلقت إثنين بميزات ومواهب طيبة ، إذا كان
قد قدر لي أن أتركها إلى النهاية دون أن أستغلها ؟ .. كان
الشعور بقيمة الميزات الكامنة في نفسي - يوحى إلى بالشعور
بالغبين ، ولكنه كان - في الوقت ذاته - يعوضني بما يخفف
من وطائه ، يجعلني على أن أفرغ الذم الذي كنت ارتاح إلى
أن أتركه بنسب !

* * *

وافتنى هذه الخواطر في أجل فصول السنة .. في شهر
يونيو ، وفي البساتين الرطبة ، بين شدة البلبل وخير
الجدول .. لقد تكاثبت جيبها على نفسي إلى احضان هذا
النعيم المفرى الذي خلقت له .. ولكنها دفعتني في حالة
ذهنية قاسية ، صعبة ، تولدت عن المشاعر التي ظلت تتفاعل
طويلا في نفسي ، فكانت كقيلة بأن تسلمني إلى هذا الوضع إلى
الأبد ! .. ووجدتني - لشقوتي - أميل إلى تذكر مائدة العشاء

في قصر (تون) (١) ، والتفاني بتلكا الفتاتين الباسحرتين (٢) ، في
نصل من العالم كهذا الذي كنت فيه - في هذه المرحلة - وفي
بقعة قريبة الشبه من هذه التي كنت فيها في الاونة التي
أحدث عنها .. ولقد اجتلبت لي هذه الذكرى - التي زادها
فتنة ما كان فيها من ربح البراءة - ذكريات أخرى من نوعها .
وما لبثت أن رأيت الأشخاص والأشياء التي أبقت مشاعري
في صباي « تتجمع حولي : الأنسة جالي ، والأنسة دي
جرافينرييه ، والأنسة دي بريي ، والسيدة بازيل ، والسيدة
دي لارناج ، وتلميذاتي الحسن .. حتى «جولييتا» اللاذعة ،
التي لم يستطع قلبي أن يسلوها ! .. والفيني محوطا بسراب
من الحوريات « من معارف القديسات ، اللاتي لم يكن الشوق
المخايج نحوهن ، بالشعور الجديد لدى .. وغار دمي وسخن ،
ودارت رأسي بالرغم من شعري الذي دب إليه الشيب ، وإذا
بالمواطن الجنيني الجاد الوقور ، وإذا بجان جاك المتكشف
الذي اشرف على الخامة والأربعين من عمره ، يرتد فجأة
هائما وراء الحب .. ومع أن النشوة التي تملكنتي ، كانت
مباغطة وجامحة ، إلا أنها كانت قوية وثابتة ، فلم يكن من
سبيل إلى شغائى منها ، إلا عن طريق نوبة الشقاء الفظيعة
- غير المرتقبة - التي أسلمتني إليها هذه النشوة ذاتها !

(١) ورد ذكر هذه المناسبة في الجزء الأول ، صفحة ١٥٤

(٢) روى « روسو » قصة هذا اللقاء في المصحف ٢٩٦ من ٢٢٤ من
الجزء الأول .

يبد أن هذه النسوة لم تحل - برغم ما ذهبت إليه - إلى الحد الذى يجعلنى اتنى سنى ومركزى، فأخذع نفسى بأن لدى القدرة على أن أوحى الحب إلى الصنان - مرة أخرى - أو إلى الدرجة التى تجعلنى أحاول أن أخرج عن هذا اللهب المتأجج ، وإن كان غير مثير « اللهب الذى كنت أشعر - منذ طفولتى - بقلبي يحترق فيه عبثا ! - بل أننى ما كنت آمل فى ذلك ، ولا كنت أشفيه ، فقد أدركت أن زمن الهوى قد ولى - وكنت من الشعور بالسخرية التى تنهال على العشاق إذا ما غرّوا فى كبرهم » بحيث أننى كنت أربأ بنفسى أن أتعرض لها - وما كنت بالرجل الذى ينقلب مغرورا معتدا بنفسه فى سنى القداعى ، بعد أن كنت مقسطا فى سنى ازدهارى ! - ثم أننى - كعجب للسلام - كنت أخشى العواصف المنزلية ، وكنت أحب تمييز فى إخلاص بالغ يجعلنى أربأ بأن أعرضها للووعة رؤيتى منساقا إلى سواها ، بمشاعر أشد احتدا من تلك التى كانت تثيرها فى نفسى ؟

نما الذى ترانى فعلت ، فى هذه المناسبة ؟

لا بد أن يكون قارئى قد حدس تصرفى ، لو أنه كان قد تتبعنى - حتى الآن - فى شيء من الانتباه !

ذلك أن استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية ، طوحت بى إلى عالم الأوهام والخيالات ، - وعندما عز على أن أرى فى الوجود من هم أهل لصابتي ، وحتى أغذى هذه الصيابة من عالم مثالى ، سرعان ما عمده خيالى الخصب بأناس ممن يميل

إليهم غزادى ! - أبدا ما لقي هذا المتبع منى مثل هذا الترحيب ، وأبدا ما كان يوما مثيرا إلى هذا الحد ! - ورحلت فى نوبات الهيام أسكر بجرجات دسمة من أبهج المشاعر التى دبت يوما فى قلب إنسان !

وتناسيت العنصر البشرى تماما ، فجعلت لنفسى مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال - مخلوقات سماوية فى فضائلها وجمالها - أصدقاء أمناء - موفورى الحنان والوفاء ، لا سبيل إلى مثلهم فى العالم الدنيوى - وشغفت بالتحقيق فى هذه الأناق ، بين الأطياف الفائقة التى كانت تحف بى ، حتى أننى أصبحت أتق الساعات ، بل الأيام فى ذلك - دون حساب - وأنسى كل شيء آخر - فما أن التهم لقمة من طعام فى عجلة ، حتى احترق لهنة إلى الفرار ، لكى أهرع إلى الإحراش ثانية - فإذا قدر لى - وقد ناهيت للانتقال إلى عالم السحرى - أن أرى تمسا من أهل الأرض بيفد ، فأننى كنت أعجز عن أن أتلف أو أن أكرم غيظى ، وكنت - إذ أفقد سيطرتى على نفسى - استقبلهم فى جفاء - يكاد أن بوصف بالعنف غير المذهب - ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة اشتهاى بأننى مبغض للبشر ، فى حين أنه كان خليقا بأن يكسبنى شهرة منافضة لذلك ، لو اتبع للناس أن سراعوا قلبي ، حق القراءة !

وفى أوج نشوئى الكبرى ، وجدنى أجذب كما تشد الدائرة المورقة بالخيوط ، لأرد إلى مكاني الموعود بآخرة حادة من نوبات دائى - فاستخدمت العلاج الذى كان يسمى

عنى ، إلا وهو المجسمات (١) ، الأمر الذى أوقف غرامياتى الملائكية ! .. ذلك لانه إلى جانب أن المرء لا يميل إلى الهوى وهو بعائى الألم ، فإن خيالى - الذى اعتاد أن يفكو فى الريف وتحت الأشجار - يذوى ويحتضر داخل الحجرات ، وتحت الواح السقوف الخشبية . ولكم كنت اتحسر إذ أذكر أن ليس لجنيات الغياب (١) وجود ، فلا مرأى فى أننى كنت خليقاً بأن أوقف عليها عواطفى !

وضاعف من أساى أن حدثت فى تلك الفترة ذاتها ، متاعب منزلية أخرى . فلقد كانت السيدة لوفاسير ماضية فى بذل قصارى جهدها لتؤلب ابنتها على ، فى الوقت الذى كانت تؤثرنى فيه بأبدع المجاهلات . . ولقد تلقيت رسائل من جيرانى المقدامى ، انبثت فيها بأن المعجوز الداهية ، كانت قد نورطت - دون علمى - فى ديون معتبدة ، باسم « تيريز » وبعلمها . . ولكن هذه لم تذكر لى شيئاً عنها . ولم أستا لأضطرارى إلى دفع هذه الديون ، بقدر ما استألت لأنها ظلت مكتومة عنى . . كيف تسنى لمن لم اكتم عنها سرا ، أن تخفى عنى مثل هذا السر ؟ .. وهل للبرء أن يخفى أمراً عن أولئك الذين يحبهم ؟ . . وكانت عصبة « دولباخ » قد بدأت تخشى جدياً - إذ رايتى

(١) روى « روسو » حديث مرضه وعلاجه ابتداء من صفحة ١٢٨ (١٩٣)

من الجزء الثالث .

(١) « الدرياد » .. جنبات الغياب ، فقد ورد فى أساطير الأفريق ذكر نابة

كانت تنقسم كل شجرة فيها حورية ، أو جنية غاشقة .

لا أزور باريس - أن أكون قد استقطبت الإقامة فى الريف . وأننى قد أكون من الحماسة - فى رأيهم - بحيث ابقى هناك . ومن ثم بدأت المشاغبات التى أريد بها حلقى - بأسلوب غير مباشر - على العودة إلى المدينة . وبدأ « ديدرو » - الذى لم يشأ أن يكشف عن دوره سريعاً - بأن صرف عنى « ديلبير » الذى كنت قد عرفت به ، والذى تلقى ما شاء ديدرو أن يوحى به إليه من إيماءات ، فنقلها إلى دون أن يدري الغرض الحقيقى الذى كان مقصوداً بها !

ولاح كانتا أجمع كل شيء على انقزاعى من أوهامى الناعمة ، الطائشة ! .. وقبل أن أفيق من نوبة المرض ، تلقيت نسخة من قصيدة خراب (برشلونة) ، التى ظننت أنها أرسلت إلى من لدن المؤلف (١) ، فالزمنى هذا بأن اكتب إليه ، وبأن اتحدث عن تصيدته . . وهذا ما فعلته فى خطاب طبع بعد ذلك دون أن استشار فى أمر نشره ، كما سيرد فيما يلى :

فلقد ذهلت إذ رايت هذا المسكين يتخبط فى حيرته - كما ينبغي أن يقال - إزاء الثروة والمجد ، فيحبل فى مرارة على محن الحياة وتعاساتها ويخلص إلى أن كل ما فى الحياة شر وسوء ، فتولفتنى رغبة رعاء فى أن أردّه إلى رشده ، وأن أثبت له أن كل ما فى الحياة خير وطيب . فالواقع أن « فولتير » - وإن بدأ دائماً مؤمناً بالله - لم يؤمن قط بغفر الشيطان ! .. إذ أن الله المزعوم لم يكن سوى كائن شرير ، لا يجد لذة - فى رأى

(١) كانت من قصائد « فولتير » .

فولتير - إلا في الأذى . وإذا كان مخف هذا الرأي واضحا .
إلا أنه مثير لصدوره - بوجه خاص - من رجل أثقل بالخيرات
من كل نوع ، فإذا به يسمى - من أحضان هنائه - لبث
القنوط في نفوس أقرانه ، بأن يصور لهم كل التكبكات - التي
كان هو ينجي عنها - في صورة بشعة قاسية ! .. ولما كنت
أحق منه بأن أعدد مساويء الحياة الإنسانية وإن أرتها .
فقد استعرضتها في غير تحيز ، وأثبت له أن الحكمة الإلهية
براء من كل هذه المساويء .. وأن هذه إنما تدين بأصولها
إلى سوء استخدام الإنسان لمواهبه . أكثر منها إلى الطبيعة
ذاتها . ولقد عاملته في هذا الخطاب بكل اعتبار . وكل مراعاة .
وكل تلطف .. بل إنني لأذهب إلى القول بأنني عاملته بكل
احترام ممكن . ولما كنت أعرف مدى سهولة اهتياج حبه
لنفسه ، فأنني لم أبعث بهذه الرسالة إليه شخصا ، وإنما
أرسلتها إلى الدكتور « ترونشان » - طبيبه وصديقه -
وخولته مطلق السلطان في أن يسلمها إليه أو أن يكتبها عنه .
وفقا لما يراه مناسبا .. وقدم « ترونشان » الرسالة ،
فرد على فولتير ببضعة سطور أبدى فيها أنه كان مريضا .
وساهرا على مريض ، ومن ثم فإنه رأى أن يرجئ رده إلى
وقت آخر .. ولم يقل شيئا في الموضوع . وإذا أرسل لي
ترونشان هذا الخطاب ، أرفقه بآخر منه ، أعرب فيه عن
قلة تقدير للشخص الذي عهد به إليه !

ولم أقدم على نشر هذين الخطابين ، بل ولا على إطلاع
أحد عليهما ، فما أحببت قط عرض مثل هذه الأنواع من

الانتصارات الصغيرة ، بيد أن أصولها موجودة في أضايري
(الملت « ١ » ، رتبا ٢٠ و ٢١) . ولقد نشر فولتير - بعد
ذلك - الرد الذي وعدني به ، والذي لم يرسله إلى قط .
وما هذا الرد سوى قصة « كاتديد » ، التي لا أملك أن اتحدث
عنها . لأنني لم أقرأها !



كانت كل هذه الشواغل خليقة بأن ثبرئني تملها من
غرامياتي الوهمية .. ولعلها كانت وسيلة أرسلتها السماء إلى
لتحول دون معتباتها المشنومة . ولكن نجى المنحوس كان في
صعود ، فما أن شرعت في الخروج ثانية - بعد شقائي -
حتى عاد رأسي وقليبي وقدمي إلى عين الدروب السائلة .
واقول « عين » في نطاق ضيق ، وإذا أن آرائي كانت - في هذه
المررة - أقل سموا وجوحا ، فظلت على الأرض . ولكنهما
أحسننت اختيار نخبة من كل ما أمكنها العثور عليه من الأشياء
المستحبة ، فلم تك هذه النخبة ثقل في وهبتها عن العالم
الوهمي الذي هجرته !

فلقد رسمت لنفسي الحب والصداقة - وهما محبوبا قلبي -
في أبداع الأشكال الخالية . وطالب لي أن أزيئهما بكل ما كنت
أعجب به دائما من مقائن الجنس . ولقد ملت إلى تصورهما
صديقين ، وليسا صديقين « لأن مثل هذا المثال من الصداقة ،
وإن كان نادرا - إلا أنه أكثر ملاعبة ولطفا في الوقت ذاته ! ..
وخلمت عليهما شخصيتين متجاسرتين وإلى ذلك مالتين ..
ووجهين ليسا بالغي الكمال ، ولكنهما ممتلئان بهجة .. وشعاع

رحمة وإحساسا . وجعلت إحداها سمراء ، والأخرى ناصعة البياض . . . إحداها كثيرة الحركة والمرح ، والأخرى رقيقة هادئة . . . إحداها عاقلة حكيمة ، والأخرى ضميعة ، ولكنه ضعف يهتو بالأمندة ، إلى الدرجة التي تمكن الفضيلة من الكسب بفضلها ! . . . ووهبت أحدهما حبيا ، كانت الأخرى صديقتها الحنون . . . بل وأكثر من ذلك . ولكنني لم أدع مجالاً لتزاحم ، أو خصام ، أو غيرة ، لأنه من العسير على أن أتصور المشاعر المؤلة . ولم أتما أن أشوه الصورة الفاتنة بشيء يحط من قدر الطبيعة . وإذا شغفت بالتمودجين الفاتنين ، تمثلتني - قدر الامكان - العاشق والصديق . . . ببد أتقى جعلته مليحا وشابا ، وخلعت عليه - فوق ذلك ما كنت أراه في نفسي من فضائل وميوب .

ولكني أضاع هاتين الشخصيتين في وسط يلائهما . رحت استعرض - تباعا - أجمل البقاع التي رأيتها خلال أسفاري . ولكنني لم أهتد إلى أحراش ذات بهجة كائنية ، ولا بلد كاف لتحريرك العواطف ، وفق ما كان يروق لي . ولقد كانت وديان (تيسالي) خليقة بان ترضيني ، لو أنني كنت قد رأيتها . ولكن خيالي كان قد تعب من الابتكار ، فرغب في بقعة حثيثة تصلح لأن تكون أساسا ، ولأن نوحى إلى بصورة عن حقيقة أولئك الذين كنت أزمع أن أسكنهم هذا المكان . ولقد فكرت طويلا في جزر بوروما (١) ، التي كان ينظرها الساحر قد أطربني . ولكنني وجدت فيها من الوثى والزينة المصطنعة

أكثر مما كنت أبغى لشخصياتي . ومع ذلك ، فقد كان لابد من بحيرة ، فانتقيت إلى اختيار تلك التي لم يكن قلبي يكف عن التحويم حولها . واستقررت على ذلك الجزء من الشاطئ الذي كانت أماني قد أقامت عليه مقامي منذ أمد بعيد ، في السعادة الوهمية التي جعلتني حطى أقصر عليها . فلقد ظل مسقط رأسي « ماما » المسكينة ينطوى على سحر خاص بالنسبة لي . وأدى تباين المواقف ، وغنى البقاع وتنوعها ، وروعة ، وجلال المنظر في مجوعها . . . هذه الصفات التي تبهز الحواس ، وتهز القلب ، وتسمو بالروح ، أدت إلى أن أقر الرأي ، وأن أوطد مقام شخصياتي الشابة الحبيبة في اغنيائي . . . كان هذا جماع ما تصورته إذ ذاك ، أما الباقي فلم يضاف إليه إلا فيما بعد .

ولقد قصرت نفسي على هذا المشروع المبهم المعالم ، زمتا طويلا ، إذ أنه كان كافيا لأن يملأ خيالي بأمليلاف مستحبة ، وفؤادي بعواطف كان يحب أن يتغذى عليها . ولم تلبث هذه التصورات أن اكتسبت - بحكم تكرار تردها على - قدرا كبيرا من الثبات ، فوطدت نفسها في عقلي ، تحت شكل محدد . وإذا ذلك ، خطر لي أن أعبر على الورق عن بعض المواقف التي كانت نوحى إلى بها ، فاسترجعت كل مشاعر شياي ، لاتيح المجال - إلى مدى معين - للارغبة في الحب . . . تك الرغبة التي لم استلعم قط أن أشبعها . والتي كنت أشعر بأنها تلتهمني !

دون تسلسل أو ترابط . وكنت كلها حاولت أن أضرم بعضها إلى بعض ، أجد نفسي في حيرة شديدة . والأمر الذي لا يكاد أن يبدو معقولا ، وإن كان هو الحقيقة بعينها — برغم ذلك — هو أن الجزعين الأولين كتبنا بأسرها — تقريبا — بهذه الطريقة . دون أن يكون لدى خطة مكتحلة التكوين ، بل ودون أن أتوقع أن انساق يوما إلى أن أجعل منهما عملا أدبيا منسقا . ومن ثم فسوف يرى أن هذين الجزعين المؤلفين — بعد وقت طويل — من مواد لم تكن مهياة للمكان الذي وضعه فيه . ملينان بحثو من كلام مسهب ولكنه مقل في معناه . مما لا يوجد في الأجزاء الأخرى .

وفي غنفوان نفيلاي « زارنتي السيدة » دودينو » . فكانت هذه أول زيارة تؤديها لي في حياتها ، ولكنها — لسوء الطالع — لم تكن الأخيرة . كما سيبدو فيما بعد . . وكانت الكونتة « دودينو » ابنة المرحوم السيد دي بليجارد ، الناظر العام للزراعة ، وأخت السيد ديبيناي والسيد دي لاليف ودिला بريس . اللذين صاروا من مقدمي السفراء « ١١ » . ولقد ذكرت من قبل . كيف تعرفت إليها قبل زواجها . ولكني لم أرها بعدده إلا في الحفلات التي كانت تقام لـ « لاشيفريت » . وفي ضيافة أخت زوجها ، السيدة ديبيناي . وإذا قدر لي أن اتضى

١١. مقدمو السفراء : كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والأمراء الأجانب عند زيارتهم الملك أو رئيس الدولة .

عدة أيام معها ، سواء في (لاشيفريت) أو في (ايبيناي) . باتني لم أجدها مقرطة اللطف فحسب ، بل إنني خلت أنني رأيت منها ميلا نحوي . وكانت جد مشفوفة بالتريض معي على الأقدام . وقد كان كل منا قديرا على المشي . ولم يكن الحديث يفتر بيننا . بيد أنني لم أرها قط في باريس ، بالرغم من أنها دعنتني بل والحفت علي في ذلك . ولقد زاد من اهتمامي بها ، علاقتها مع السيد « دي سان — لامبر » ، الذي كانت عرى الصداقة قد بدأت تتوثق بيني وبينه . . ومن أجل إبلاغى أبناء هذا الصديق ، كان مجيئها إلى (ليرميلاج) .

ولقد بدت هذه الزيارة — إلى حد ما — كفاتحة قصة غرامية . فلك لأنها ضلت الطريق — أثناء قدومها — إذ انحرف سائق عربتها عن الطريق عند مضى فيها ، وأراد أن يقتضب المسافة ، بأن يسمي في خط مستقيم بين الطاحون القائمة في « كيرفو » و (ليرميلاج) . ولكن العربة غاصت في الوحل في قاع الوادي الصغير ، فقررت السيدة أن تبرحها وأن تقطع ما بقي من الرحلة على قدميها . ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبثا أن ابتلا . ثم غاصت هي في الوحل . ولقي خدعها اشد العناء في تخليصها . . وقد رهاها أن تصل أخيرا إلى (ليرميلاج) . وقد ارتدت حذاءي رجل . وسط رنين الضحكات التي مزجت بها ضحكاتي حين شهدت منظر الوصول . . . وكانت السيدة مضطرة إلى أن تغير جميع ثيابها . وقد تولت « فريز » هذه المهمة ، بينما اقمعتها أنا بأن تطرح عنها كبرياءها . . . وأن تشاركنا وجبة (تصيرة) ريفية . لم تثبت أن اسمها ليسا .

وكان الوقت قد فات ، فلم تحك سوى برهة وجيزة . بيد ان اللقاء كان مرحا ، وقد راق لها ، وبدا عليها الميل إلى ان تأتي مرة اخرى . ومع ذلك فانها لم تحقق ذلك إلا في العام التالي . ولكن : وا أسفاه .. إن هذا الأرجاء لم يعصمنى في شيء !

وقضيت خريف تلك السنة في عمل لا يخطر ببال أحد . . . ذلك هو حراسة نواكه السيد ديبيناي . فلقد كان خزان المياه التي تروى بستاتين (لاشيفريت) يقوم عند مبني (اليرميتاج) ، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية ، وقد زرعت فيها اشجار متباينة ، كانت نهد السيد ديبيناي يلوأكه تفوق في كميتها إنتاج الحديقة الملحقة بمطابخ (لاشيفريت) ، برغم ان ثلاثة أرباعها كان يسرق . ولكي لا اكون ضيفا عديم النفع ، نانني تكفلت بشئون الحديقة ، وبالإشراف على البستاني . وسار كل شيء على ما يرام ، حتى حان موسم الفاكهة ، فإذا بها تختفي تباعا ، كلها نضجت ، دون ان أدري ما كان يحل بها . واكد لي البستاني ان جردان الحقل التهمتها جميعا ، ومن ثم فقد أعلنت الحرب على الجردان حتى قضيت على كثير منها . ومع ذلك فقد ظلت الفاكهة في اختفاء . واحكمت الرقابة ، حتى اكتشفت أخيرا ان البستاني نفسه ، كان الجرذ الأكبر . . . فلقد كان يقيم في (مونبورنسي) ، وكان ينفذ مع زوجته وأولاده في جنح الليل ، فيحلبون الكميات التي يكون قد أعدها - في النهار - في العائش



ثم غاصت هي في الوحل . ولقي حديقته أشد العناء في تخليص

البيع في سوق (باريس) جهارا ، وكأنه أوتي يستأنا ملك
يمينه ! .. وكان هذا التعسر الذي أغرقته بخيراتي ، والذي
كسبت تميز أولاده ، والذي أصبحت أعول أياه تقريبا . بعد
أن كان يتسول .. هذا التعسر كان يسرقنا نحن أيضا .
بسهولة وقحة « إذ لم يكن بيننا نحن الثلاثة . ن أوتي بقطعة
كافية لأن توقعه عند حدد .. ولقد استطاع - في ليلة واحدة
- أن يفرغ قهو مسكني ، فاذا بي لا أعثر فيه على شيء . في
الصباح التالي !

ولقد كنت احتمل أعماله ، عندما كان يبدو أنه يقصر نشاطه
على وحدي .. أما وقد رعبت في تحمل مسؤولية الفلكهة .
فأني اضطررت إلى أن أفصح السارق . ورجعتي السيدة
ديبيناي أن اتقده أجره . وأسرجه من الخدمة . وأبحث عن
سواه . ففعلت .. ولما راح هذا الشقي بحوم حول (البرميّاج)
كل ليلة ، متسلحا بفتيل حديدى ضخيم : كان يبدو كالهراوة ،
ومتبوعا بأنزال آخرين من صنفه . فقد رايت لمكى أظهن
« الدافين » (١) اللتين أفزعها هذا الرجل إلى أقصى حد
أن أدعو خليفته لأن ينام في (البرميّاج) كل ليلة . ولكن هذا
لم يهدى من روعهما ، فطلبت من السيدة ديبيناي بتدقيقه
احتفظت بها في غرفة البستاني ، مع تنبيهه إلى عدم استعمالها
إلا عند الحاجة . عندما تدبر محاولة لاغتصاب الباب أو تسور
الحديقة . - - - - -

(١) الدافين « هو الاسم الذي أطلقه أصغاه «روسو» على شيرز وأمها .

إرهاب اللصوص . - - - - - ولا مرأى في أن هذا كان أقل احتياظ
يتخذ من أجل السلامة العامة لرجل معلول . يقضى الشتاء
وسط الغابات ، وحيدا مع امرأتين رعديتين . وحصلت أخيرا
على كلب صغير ليستخدم في الحراسة .

وإذ جاء « ديلير » لزيارتي في تلك الفترة . فقد رويت له
قصتي ، وضحكت معه من استعدادي العسكري . فلما عاد
إلى (باريس) : « رغب في أن يضحك « ديدرو » بدوره .. ومن
هنا علمت عصابة « دولباخ » أنني كنت أعزّم جادا أن أقضى
الشتاء في (البرميّاج) ، فأسخطهم هذا الإصرار على عزمي ،
إذ لم يكن بوسعهم أن يتصوروه وعملوا - ريثما يرسمون بعض
«الاحاييل لكي يمحروا إقامتي» - إلى الموقعة ، عن طريق
« ديدرو » ، يبنى وبين « ديلير » ، الذي اعتبر احتياطي - في

(١) عقب «روسو» على هذه النقطة - بعد الفراغ من كتابة اعترافاته -
بقوله : « أنني - في لحظة هذه - أعجب من فئالي أدلم أصر : عندما
كنت أكتب هذه السطور . أن الأسقاء الذي أسخطهم عصابة « دولباخ »
- حين تبينت أنني كنت مزعم الإقامة في الريف - لم يكن راجعا إلا إلى أنهم
- بمودوا يحدون السيدة لوقاسير - في تناول بدنه ، لقرصهم في خطوهم
- - - - - فان نحدد لهم الأماكن والمواعيد . وهذه الفكرة - التي لم تتوانى إلا آخر
حدا - توصلت إليها غراية سلكهم الذي يبدو غير واضح تحت أية افتراضات
أخرى . - - - - - ولم يوجد هذا التعقيب في أية وثيقة سابقة على نشأة
- - - - - بل ينم عن أن هذه الفكرة وافته عندما
في حوزته .

البدائية - مجرد أمر طبيعي ، ولكنه لم يلبث أن انتهى إلى انه أمر مناقض لمبادئ ، واسوأ من أن يستحق المسخرفة فحسب . . وصارحتني بذلك في خطابات أغرقتني فيها بنكات لازعة . بلغ من لذعها أنها كانت تسمى كرامتي ، لو أن مزاجي كان ميالا إلى هذا الاتجاه . ولكنني كنت مغرقا - إذ ذاك - في المشاعر الرقيقة ، اللطيفة ، فلم أشك في أي شيء آخر ، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرد مداعبات للاضحك . كما اعتبرت « ديلير » مجرد ماجن ، في حين أن أي امرئ غيبي كان خليقا بأن يعتبره مخبولا ! (١) .

وبفضل اليقظة والعناية ، أفلحت تماما في حماية الحديقة ، التي درت ثلاثة أمثال ما درته من الفاكهة في العام السابق . ورغم أن المحصول كان فاشلا - تقريبا - في هذه السنة . بل أنني رافقت الشجرات التي أرسلتها إلى (لاشيفريت) و (ابييناى) ، وحملت بنفسى بعض السلال . وإلى لأذكر أنني و « الة » (٢) حملنا في إحدى المرات سلة بلغ من ثقلها أننا اضطررنا - لكي نتفادى التداعى تحت وطأة الحمل - إلى أن نستريح كل الثنتى عشرة خطوة . . ووصلنا - في النهاية - مبللين بالعرق !

(١) أضاف « روسو » إلى هذه العبارة : « ومن ثم فإن الذين حرضوا ،

أصاوعا جهنم سدى في هذه المناسبة . عطفيت الشتاء في هدوء بالغ : » .

(٢) الة : لقب اعتاد « روسو » أن يطلقه على « تيريز » .

سنة ١٧٥٧

عندما شرع فصل الطقس السيء في إلزامي مسكني ، وددت أن أعاود مهملي التي تؤدي في البيت ، ولكنني لم أجد إلى ذلك مسبيلا ، إذ أنني لم أجد أرى في كل مكان سوى الصديقين الفائتين (١) ، وصديقيهما ، وما يحيط بهما ، والبلد الذي يقيمان فيه ، والأشياء التي خلقها خيالي أو هذبهما من أجلهما . ولم أجد ملك نفسي لحظة واحدة ، فإن هذا الحلم لم يعد يفارقتني ، وبعد جهود كثيرة ، غير مجدية ، لإقصاء هذه الرؤى الخيالية عني ، وجيتني أنساق لغوايتها ، فلا أشغل منذ ذلك الحين إلا بمحاولة توفير شيء من النظام وشيء من التتابع فيها ، لكي أجعل منها نوعا من القصص الخيالي .

وكان أعظم ما حيرني ، هو ذلك الخجل الذي ساورني ، إذ شعرت بأنني أناقض نفسي صراحة وفي جراحة . أتبع المبادئ الصارمة التي أرسيتها بكل هذا الضجيج ، وبعد الآراء القشقية التي رحلت أبشر بها بكل هذه القوة ، وبعد الحملات اللاذعة التي حملتها على الكتب الناعمة (المخنثة) التي كانت تنفوح بالحب والميوعة . . أتبع كل هذا يكون ثمة ما هو أسعد عن الارتقاب ، وأدعى للدهشة والاستكار ، من أن أرى فجأة وقد انضويت - بمحض إرادتي - بين مؤلفي تلك الكتب التي انتقدتها بكل هذه القسوة ؟! . . لقد أحسست بهذا التذبذب في عنفوان قوته ، تمرحت اليوم بنفسى ، واستحيي بها ، وأمسخت

عليها .. ولكن كل هذا لم يكن كافيا لأن يردني إلى حجابي .
وكان على - في انصياعي التام - أن أخوض كل المخاطر .
وأن أتهيا لمواجهة كل ما يقال .. وأن أعد ذهني لكل شيء اللهم
إلا أن أتعرض لأن أقرر - فيها بعد - ما إذا كنت أنشر كتابي
على الناس أو لا أنشره . إذ أنني لم أكن أعتقد أنني قد
أنشره !

وإذ انتهيت إلى هذا الرأي ، المقيت بكل نفسي في غمرة
صوراتي ، وبفضل تقليديها في ذهني مرارا ، رسمت في النهاية
مشروع الخطة التي شاعده الرأي العام الكتاب يخرج
بمقتضاها ، ومن المحقق أن هذا كان خيرا ما يستند من نزواتي
.. فإن حب الخير ، الذي لم يقادر قلبى البتة ، حول هذه
الغزوات تحويلا طبيعيا نحو أهداف نافعة ، كان من الممكن أن
تغدو مثمرة وذات نفع خلقي . لقد كانت مناظري المستوحاة
من الحب خليقة بأن تنفذ بهاءها - لو أعوزتها صفة البراءة
اللطيفة . إن الفتاة الضعيفة تكون موضع إشفاق ، قد يجعله
الحب مادة مشوقة لا تفتقر متعتها في كثير من الأحيان . ولكن
منذ الذي يطبق - دون استنكار - منظر الآداب والأخلاق في
إطسار حديث .. أى شيء أدعى للتقزز من غرور الزوجة
الخائنة ، التي تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارا . ثم
تزعم - برغم - ذلك - أن زوجها خليق بأن يتقبل في عرمان
عميق ، ما تنهجه من صنيع . إذ تتكرم فلا تدع نفسها تباعث
وهي تمارس الخيانة !؟ .. ليس للخلوقات المثالية الكلمة
وجود ، ومن ثم فإن الدروس التي توحى بها جد بعيدة عن أن

تستسيغها . أما إذا قدر لشبابه ، منحنها الطبيعة قلبا يزخر
بالشرف بقدر ما هو مقعّم بالحنان ، أن تدع الحب يغلبها وهي
فتاة عذراء ، ثم تجد من نفسها القوة على أن تهزمه بدورها
.. وقد غدت امرأة نبيا - لتغدو عفيفة من جديد ..! إن الذي
يقول لك إن هذه الصورة في مجموعها فاضحة ، وغير مفيدة .
لكاذب ومنافق ، فلا تصغ إليه ، مهما يكن !

وكان لدى إلى جانب الأخلاق والأمانة الزوجية - اللذين
يرتبطان ارتباطا جوهريا بكل نظام اجتماعي - هدف أعمق
وأكثر نواريا .. ذلك هو التوافق ، والوئام العام .. وهو
هدف أعظم من سابقه ، وربما كان - في حد ذاته - أكثر قيمة
راهمية .. بل إنه كان كذلك في تلك الآونة حقا .. ولم تكن
العاصفة التي أثارها « الموسوعة » (١) قد خمدت ، بل إنها
كانت - في هذه الفترة - في أوج احتدامها . فقد انطلق كل من
الغريقيين (٢) يهاجم الآخر في سعار جامح - وكانتهما تطيعان - ن
ذئاب بسعورة ، ناهب كل منهما لأن يمزق الآخر في هياجه ..
لا فريقيان من مسيحيين (٣) وفلاسفة تواثين لتبادل المعرفة
والافتناع ، كي يهدي كل منهما الآخر إلى طريق الحقيقة ! ..
بل إنه لمن الجائر أن يقال إن كلا من الغريقيين لم تكن تنقصه

(١) أورد « روسو » فكر « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » في صفحة
١١٥ - ١٦٩ من الجزء الثالث .

(٢) يقصد أنصار المشروع ومعارضيه .

(٣) يستعمل « روسو » كلمة « » ليعبر عن المتحورين .

سوى قادة عاملين ذوى شهرة ، كى ينقلب النزاع إلى حرب أهلية ! .. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب أهلية دنيئة ، كانت أقصى ألوان التعصب تكن في قرارة كل من الجانبين !

ولما كنت بفطرتى عدوا لكل تحزب ، فاننى انضيت إلى كل من الجانبين بالعقائق المبررة التى أبوا أن ينصتوا إليها . وأنطت بنفسي مهمة أخرى تراعت لى - فى سذاجتى - جديرة بالأعجاب . تلك هى أن أخفف من العداء المتبادل بين الفريقين ! وأن أقوض أباطيلهما ونعراتهما ، وأبين لكل كفاءة الآخر ومضائله وجدارته بالقددير العام ، وباحترام الجنس البشرى بأسره (١) . ولقد ظفر هذا المشروع غير المعقول - الذى قاذنى إلى عين الخطأ الذى أخذه على الأب « سان بيير » - بالنجاح الذى كان يستحقه . إذ أنه لم يقرب بين الفريقين ، وإنما ألبها معا ضدى ! .. وإلى أن تكشفت لى حماقتى ، أقبلت عليها بكل حماس جدير بالحائز الذى الهميتها ، كما ينبغي أن يقال ، فرسمت شخصيتى « فولار » و « جولى » « وأنا فى نشوة حائلتى على أن أمل فى أن أجمعهما معا خليقين بالحب ، وأن يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر !

وإذ ارتحت إلى رسم الهيكل البدائى لمشروعى ، عدت إلى المواقف التى كنت قد عينتها للتومسح والتقصيل . نادى النظام

(١) كان تنفيذ هذه المهمة يتمثل فى إنتاج كتاب هو محور حقيقته فى هذه الفقرات .. وهو كتاب « جولى » .

الذى رتبها بمقتضاه ، إلى الجزعين الأولين من كتاب « جولى » ، الذى كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء ، فى غبطة لا سبيل إلى وصفها ، مستعملا أبداع ورق مذهب الحواف ، ومستخدما مسحوقا أزرق وفنسيا لتجفيف مداد الكتابة ، وشريطا أزرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتى . وموجز القول أننى لم أضن بكل شيء أنيق وبديع على فتاتى الفاتنتين ، اللتين عشقتهما وكأنتى « بيجاليون » (١) آخر (٢) . فكنت فى كل مساء ، أقرأ - إلى جانب مدقائى - هذين الجزعين وأرددهما على سماع « الدافنتين » . فكانت الابنة تذرف معى الدمع حنانا ، دون أن تنبى بنت أمة . أما الأم التى لم تجد قريبا كنت أقرأ أبة مجاملات ، فانها لم تفقه شيئا ، فكانت تهكك ساكنة ، مكفبة بأن تردد لى دائما ، فى لحظات الصمت : « هذا بديع جدا يا سيدى » !

واتلق السيدة « ديبيناى » أن تعلم أننى كنت وحيدا - فى الشتاء - وسط الغابات ، وفى منزل منعزل ، فراحات تكثر من إيفاد من يتسقطون أنبائى . وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لى ، كما أن مشاعرى لم تكن يوما أكثر حرارة مما كانت فى مقابلة ودها . وإبنى لأنب إذا أغفلت أن أنكر من هذه الشواهد أنها أرسلت إلى صورتها ، وسألتنى

(١) « بيجاليون » ملك زعمت الأساطير الإفريقية أنه صنع تمثالا من ماء للبراءة - كما كان يراها - فإذا به « جولى » الفنان ، حتى يت « انروبيت » الحياة فى العاج ، فانقلب التمثال المثلج إليها . ذلك الفنان .

ان اذن لها بالحصول على صورتي ، بريشة « لاتور » . تم عرضتها في قاعة جلوسها (صالونها) . كذلك ينبغي الا اغفل لفئة أخرى من لفئاتها ، قد تبدو مضحكة ، ولكنها من معالم تاريخ شخصيتي . وذلك بفضل الأثر الذي أحدثته في نفسي . ففي ذات يوم ، وقد اشتد تكاثف الصقيع ، فضضت حزمة أرسلتها هي لي ، وضمنتها عدة أشياء تكلفت باعدادها لي . فوجدت بينها « جولة » داخلية قصيرة ، من « الفانيلا » الإنجليزية ، ذكرت أنها اعتادت ان ترتديها ، وأعربت عن رغبتها في ان اصنع منها صدارة . وكان أسلوب رسالتها ساحرا ، مليئا بالحنان والسذاجة . وبدا لي هذا الدليل على العناية - الذي كان يفوق كل ما تلييه الصداقة - بالغ الحنان ، حتى لكأنها قد تعرت لكي تكسوني ، وحتى أنني - في جيشان عواظلي - قبلت الرسالة و « الجولة » عشرين مرة ، وأنا أبكي ! وظننت « تيريز » أنني قد اختبلت ! .. ومن العجيب حقا ان شيئا من دلائل الود - التي أسبغتها علي السيدة ديبيناي - لم يؤثر في نفسي قدر ما أثر هذا الدليل الذي ما اعتدت ان أتذكره دون ان تخفق مشاعري ، حتى بعد القطيعة التي ضربت بيننا . وقد احتفظت برسالتها القصيرة أبدا طويلا ، وكنت خليقا بان أظل بحفظها بها ، لولا أنها لقبت مصيرها مع رسائل الأخرى التي نمت إلى هذه الفترة (١) .

(١) نشرت هذه الرسالة في مذكرات السيدة ديبيناي ، وقد جاء بها :
« أرسل الي ناسكي هذه الأشياء للسيدتين لوفاسير . ولما كان الرسول انفي »

ومع ان احتباس البول لم يدع لي نصيبا يذكر من الراحة ، في ذلك الشتاء ، ومن أنني كنت أضطر - لفترة من الزمن - إلى استخدام المجسات .. مع ذلك فإن هذا الفصل كان امتع الفصول التي قضيتها - منذ وصولي إلى فرنسا - وأكثرها هدوءا ! .. ففي خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التي ساعد سوء الطقس على زيادة اعتكافي وعزلتي عن الزائرين ، استمرت هذه الحياة المستقلة ، المسترسلة ، البسيطة ، كما لم استمرها من قبل .. ولم يزدها الاستمرار - في نظري - إلا قيمة .. ولم يكن لي من أنيس سوى « الدادين » - في عالم الحقيقة - وابنتي جنسهما ، في عالم الفكر . وفي ذلك الوقت بالذات ، رحت أهني نفسي يوما بعد يوم ، على القرار الذي أوتيت من حسن الإدراك ، ما مكنتني من اتخاذه ، دون ان أحفل بصيحات أصدقائي .. الذين أغضبهم ان راووني أملت من تسلطهم (١) .. ولكم حدثت انسياء عندهما سمعت عن

استخدمه جديدا ، هناك بيان ما أرسلت معه .. وفي نهاية الأشياء قالت :
« قطعة من « الفانيلا » الحمرية جد صالحة لها (أي السيدة لوفاسير)
لتصنع منها صدارة مناسبة لها ، أو لك أنت » وهم صياح يملك الدبة !
.. ومن الواضح ان هذه الرسالة لا تتحقق كل هذا الاسهاب الذي ذكرها به « روسو » ، ولكن أبرادها في سياق ذكريانه - على هذا النحو - بدل على مدى تقديره لما كان امتناؤه بؤنونه به من كرم وعطف ، وعلى أن ما لقيه من بعض هؤلاء الأصدقاء ، لم يجعله على أن يحدث انسياء في أوقات الصفا !

(١) بقصد قرار الزوج من باريس والاستقامة في البرية.

محاولة معنوه (١) ، وحين حدثني « ديلير » والسيدة « ديبيناي » ، في خطباتهما ، عن الاضطرابات والقلق التي سادت باريس ، إذ كنت بمنأى عن مناظر الارهاب والجريمة . التي لم يكن لها من اثر سوى تغذية وشحن المزاج الصفراوي ، الذي كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره في نفسي . . في حين انني لم اكن ارى نفسي - في هذه الفترة - محوطا بغير اطياف باسمه ، وأدعة ، فكان فؤادي غير منساق لغير الاحاسيس المستحبة اللطيفة . إنني لأسجل هنا في انتشاء ، سير تلك اللحظات الوادعة التي كانت آخر ما اتيح لي ان اتمتع به . فان الربيع الذي امقب هذا الشتاء الهادي ، شهد تفتح بذور المصائب التي بقي على ان اصبها ، والتي لن يقدر لامرئ ان يرى - خلال نسجها - فترة تشبه هذه التي كنت استطيع ان اجد فيها متقنا :

ومع ذلك ، أراني اذكر انني - خلال هذه الفترة المظلمة ، بل وفي اعماق عزلتي - لم ابق بمنجى تام من عصبية « دولباخ » . فقد اثار « ديدرو » بعض مضايقات لي ، وما لم اكن موقفا في الخطأ ، فأنني اظن ان « ابناء السفاح » - وهي القضية التي سأحدث عنها توا - ظهرت في هذا الشتاء . ولست بحاجة إلى ان اذكر عددا جد ضئيل من الوثائق التي يمكن الاستناد إليها فيما يتعلق بهذه الفترة . بل إن الوثائق

(١) محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر ، في ٤ يناير سنة ١٧٥٧

التي تركت لي منها ، غير دقيقة التواريخ إلى حد كبير . فان ديدرو لم يكن يثبت التاريخ على رسالة قط ، وكذلك لم تكن السيدة ديبيناي والسيدة دوديتو تؤرخان خطابتهما بغير ذكر اسم اليوم ، وكان ديلير يحو حذوها في اكثر الأحيان . فلما اردت ان ارتب هذه الرسائل ، كان علي ان اتحسس طريقي في الظلام لاحدس تواريخ لا يمكن الجزم بصحتها . ولا أمك ان اركن إليها . ومن ثم فأنني - إذ أعجز عن إثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة - أوثر ان أروى فيما بعد - في قسم منفصل - كل ما أستطيع ان اذكره عنها .

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتي العاطفية ، فاذا بي في نوباتي الولهانة اصوغ - للجزعين الآخرين من «جولي» - عدة خطابات تطلع بالنشوة التي كنت فيها وانا اكتبها . واستطيع ان اذكر الرسالة التي دارت حول جنة الوثنيين ، والرسالة التي وصفت الزهرة على ضفاف البحيرة ، وهما اللتان - إذا صبح ما أفكر - تخفمان الجزء الرابع . فاذا قدر لاحد ان يقرأ هاتين الرسالتين دون ان يشعر بقلبه يلين ويخوب في نفس المشاعر التي املتها علي ، فخير له ان يفلق الكتاب ، لانه غير قدير علي ان يعترف للأشياء العاطفية قيمتها !

وفي تلك الاونة بالذات ، تلقيت زيارة ثانية - لم تكن مرتقبة - من السيدة « دوديتو » . فلقد وقعت علي (اوبون) - في وسط وادي مونورنسي - في غياب زوجها الذي كان ضابطا في الشرطة ، وشقيقها الذي كان كذلك في «سلك العنبري» .

وكانت قد اتخذت لإقامتها هناك بيتا بديعا للغاية . ومن هذا البيت ، جاءت في نزهة ثانية إلى (ليرميلاج) . وقد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد ، وفي زى الرجل . ومع اننى لا أميل إلى مثل هذا الخلط في الأزياء ، إلا اننى اعجبت بما كان في تنكرها هذا من جو شاعرى ، خيالى . . وكان شعورى في هذه المرة هو . . الحب ! . وإذ كانت هذه هى المرة الاولى - والوحيدة - في حياتى بأسرها ، وقد تركت معتباتها اثرا على ذاكرتى طبع بقوة لا تجعله ينحى ، فلا بد لى من ان اخوض هذه المسألة بشئ من التفصيل .

كانت السيدة الكونتيسة دوديتو تقرب من عامها الثلاثين ، ولم تكن جميلة على الإطلاق . فقد ترك الجدرى آثاره على وجهها ، وكانت بشرتها تفتقد النعومة ، كما انها كانت قصيرة النظر ، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغي . . بيد انها أوتيت مع كل هذا إشراقة الشباب ، وكانت قسماتها - التى جمعت بين الحيوية والرفقة - جذابة . . وكانت تمتلك فضا من شعر اسود رائع ، مجمد طبيعته ، ومتسلسل حتى ركبتها . . أما قوامها ، فكان صغيرا لطيفا ، وكانت تودع كل حركاتها خفرا وبهاء في وقت واحد . وكان ذكاؤها عاديا ومقبولا للغاية ، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة انها اقتران . فكانت تنساب في سيل من الدعمايات الفاتنة التى لم تكن تتكلفها البتة . . والتى كانت تنطلق بالرغم منها أحيانا . وكانت على كثير من المواهب المستحبة ، فكانت تفتن العزف على « البيانو » ، وتجيد الرقص ، وتقرض أشمارا بديعة للغاية . اما أخلاقها -

فكانت ملائكية ، باطنها رقة النفس ، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل . . وكانت - فوق كل هذا - أهلا للثقة في المعاشرة ، وذات وفاء في الصحبة ، إلى درجة ان اعداءها انفسهم لم يكونوا بحاجة إلى ان يتسبوا منها . . واقصد بأعدائها أولئك الذين ، او بالأحرى أولئك اللاتى كن يكرهنها . اما من تاجبتها هى ، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على ان يكره احدا . . واعتقد ان هذا التشابه في الطباع ، قد ساعد كثيرا على إفكاء وجدى نحوها !

وما سمعتها قط - في الخلوات التى كانت تمتاز باوثق مظاهر الود - تتحدث بسوء عن الغائبين ، بل ولا عن أخت زوجها . . . وما كانت تملك ان تخفى ما يفكرها عن اى مخلوق . ولا ان تكبح شيئا من مشاعرها . حتى اننى لأميل إلى الاعتقاد بانها كانت تتحدث بها عنه إلى أصدقائها ومعارفها وكل الناس على السواء . . . وأخيرا ، فان الذى يثبت - دون مرأى - نفاء وإخلاص فطرتها الرائعة ، هو انها كانت تتعرض لأعجب نوبات شرود الذهن ، ولأكثر نوبات السهو مدعاة للضحك ، وكثيرا ما كانت هذه النوبات تفتقد الخبكة - بالنسبة لها هى بالذات - ولكنها لم تكن لتمس قط اى إنسان بما يجرح كرامته !

وكانت قد زفت - وهى بعد صغيرة ، وبالرغم عنها - إلى الكونت دوديتو ، الذى كان ذا جاه ، وكان عسكريا شهيرا ، ولكنه كان مقامرا ، شرسا ، يعور . . . عيب نفسه على قط . . . وإنما وجدت في السيد . . .

ما كان لدى زوجها من خصال طيبة ، إلى جانب صفات أخرى أكثر ملامة .. فمن ذكاء ، إلى فضائل ، إلى مواهب . ولو جاز للمرء ان يفر شئنا من طباع ذلك العهد ، فانها الجدير بالفقران حقا هي العلاقة التي لا تزدد مع الزمن إلا صفاء ، ولا تزيد آثارها إلا تكريما وتمجيدا ، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين (١) !

وعلى قدر ما يخبل إلى ، كانت قد صدرت في زيارتها لى عن قليل من ميلها الخاص ، وكثير من الرغبة في إرضاء « سان - لامير » . فقد كان يستحقها على ذلك ، وكان على صواب إذ اعتقد ان الصداقة التي بدأت تقوم بينهما ، كانت خليفة بأن تجعل هذه الصبغة ملائمة مستحبة لثلاثتنا . وكانت تعلم أنني مطلع على علاقتيها ، ومن ثم فإن في استطاعتها ان تتحدث إلى عنه دون حرج ، كانت كفيلة بان تجعلها تترشح إلى

(١) توفيت هذه السيدة وهي في الثالثة والثمانين من عمرها . وقد تلت إلى آخر حياتها محتاطة بطيبة نفسها ، واحترام عواطفها وخيالها . وميلها إلى اللهو والسرور الذهبية . وكانت ذات براعة في قرض الشعر . وقد قالت في قصيدة ودمت بها عشيقها « سان - لامير » : قيل رجله للخدمة العسكرية :

« الحبيب الذي أعبد .. وقد تاهب لقرافي

» بقيت له لحظة .. فاراد أن يستغلها » .

« يا لها من محة باطلة .. يشقى اقتناصها .

» وما أشد الشئ .. ليصبح المرء لذة ؟ » .

صحتي . ومن ثم جاءت .. واستقبلتها .. وكنت نشوان بحب غير ذي هدف منظور . فإذا المنشوة تسحر عيني ، وإذا الهدف يتركز عليها هي . فرأيت « جولى » - التي ابتدعتها - في السيدة « دوديتو » .. ولم أعد - بعد قليل - أرى سوى السيدة « دوديتو » فقط ، وقد اكتسبت بكل أسباب الكمال التي كنت أزين بها محبوبدة قلبي ! .. ولكي تسكرني تماما ، راحت تحدثني عن « سان - لامير » في وجود مشبوب .. فبالسلطان الهوى المضيق ! .. لقد استولت على - إذ كنت اسمعها ، وإذا كنت أشعر بالقرب منها - قشعريرة عذبة ، لم أعهد قط في قسرب أى شخص ! .. وراحت تتكلم ، وأنا نهيب للانفعالات .. ووهمت أنني لم أكن مهتما بغير مشاعرها ، فلذا بى احس بمشاعر على شاكلتها .. ورحت أجرع - في دفعات كبيرة - الكأس المسمومة التي لم أعد أتذوق فيها سوى الحلاوة العذبة ! .. وفي النهاية ، بعثت في نفسي نحوها - دون أن أفطن ، ودون أن نطنن هي - كل ما عبرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها . واحسرتها ! .. كان الوقت المناسب قد مات ، وكان من القسوة أن احترق بوجود مشبوب - لم يكن في عنفه بأقل منه في تعاسنه وشقوته - نحو امرأة ، كان قلبها مليئا بحب آخر !

وبالرغم من الانفعالات الغريبة التي خامرتني في قربها ، فأننى لم أفطن - في البداية - إلى ما أصابنى .. ولم يكن ذلك إلا بعد رحيلها ، وعندما ارتدت إلى قلبي في « جولى » - فإذا بى أيتها إذ وجدت أنني لم أعد أتذوق على شاكلتها في حب السيدة

دوديتو . وإذ ذاك ، انجابت الحجب عن عيني ، واحسست بسوء حظي ، فرحت أن وأتوود . . ولكنني لم احسس ما كان هناك من نتائج !

ولقد ترددت طويلا بصدد الطريقة التي انتهجها في تصرف نحوها ، وكأنها كان الحب الحقيقي قد خلف من العقل ما يكفي لكي اتخير لنفسى المسلك . . . ولم اكن قد انتهيت إلى قرار ، عندها جاءت مرة أخرى ، ففاجأتني على غير استعداد . وفي هذه المرة ، أيقنت من موقفي ، فإذا الحياء — قرين السوء — يعقل لسانى ، فرحت ارتجف أمامها ، دون أن أجرؤ على أن افتح فمى ، أو أن ارفع عيني . . كنت في اضطراب لا سبيل إلى وصله ، حتى لقد كان من المستحيل ألا تكون قد ابصرته . واعتزمت أن اصارحها ، وإن ادعها تحسس السبب . . فقد كنت بهذا كائننى أبوح لها بصراحة تامة !

ولو أنني كنت شابا ومليحا ، وكانت السيدة دوديتو قد ابدت ضعفا ، من جراء هذا ، لأقمت هنا على لوم مسلكها . ولكن شيئا من هذا لم يكن ، ولم اكن املك سوى أن أطرى مسلكها وأعجب به . . وكان الراى الذى اتخذته ، يجمع بين الكرم والحكمة . فما كان بوسمها أن تنأى عني فجأة ، دون أن تذكر السبب لسان — لاميير ، الذى أوصاها — بنفسه — بأن تزورنى . . ومعنى هذا ، تعريض صديقين للقطعية ، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة في تفاديها ! . وكانت تكن لى كل تقدير ، وكل خير . ولقد رثت لخبلى ، وراحت تلتبس له المعاذير — في غير تملق ولا رياء — وحاولت أن تبرئنى منه

. . ولقد كان يسرها ، كل السرور ، أن تتمكن من الإبقاء — لنفسها ولحبيبها — على صديق كانت تقدره حق قدره . ولم تحفئننى عن شيء ، بهتل الإغتياب الذى راحت تحدثنى به عن الود ولفظ المعاشرة اللذين نستطيع أن نوثقهما بيننا ، نحن الثلاثة ، عندها اعود إلى رشدى . . على أنها لم تقتصر تمام . على هذه المواساة الودية ، ولم تعنى — عند الحاجة — من تأنيبات كانت اقضى مما كنت استحق !

ولم اكن أقل منها مسوسة في تأنيب نفسى . . فما هو أن اهبحت وحيدا ، حتى عدت إلى نفسى ، وإذا بى اكثر هدوءا ، بعد أن بحت بما كنت أكتهم . . فان الحب إذا ما عرف لتلك التي أوحيت به ، يفدو اكثر احتيالا . . ولابد ان الشدة التي رحمت اليوم بها نفسى على الحب الذى اسقشعرته كانت كتيبة بان تبرئنى منه ، لو أن هذا كان ميسورا . . أية حوافز قوية لم استنجد بها لخلق هذا الحب ! . . إن قوانينى الخلقية ، واحاسيسى ، ومبادئى ، وحيائى ، وخيانة العهد ، والإجرام ، وإساءة استغلال الودية التي ائتمنت عليها بحكم الصداقة ، والسخرية التي كان يستوجبها تحرقى — في مثل هذه السن — بأشد المصائبات جيوحا ، نحو هف لم يردعنى انشغال قلبه ، ولا سمح لى بأى رجاء . . صباية كانت — فوق كل هذا — بعيدة عن أن تمتاز بها يكفل لها الدوام ، بل إنها راحت تتجاوز حد الاحتمال ، يوما بعد يوم . . كل هذه الأمور والاعتبارات ، فكرت فيها !

منذا الذى يصدق ان الاعتبار الآخر ، الذى كان كفيلا بان يرجح كفة الاعتبارات الأخرى ، كان هو الذى أوهم قوتها جبينا . . فلقد قلت لنفسى : « أية هواجس أحفل بها إزاء نزوة حمقاء ، لا يتعذب بها سوى » . . أفانا مغازل شاب يحق للسيدة دوديتو ان تخشاني ؟ . . أئن يقال — على ضوء ما كانت توحيه إلى نزعات الفرو — ان تطرفى ، ومسلكى ، ومظهري قد أغوتها . . إذن ، فأحبب ما شاء لك الهوى ، يا جان جاك البائس . . احبب وأنت مرتاح الضمير ، ولا تخش ان تزعج زغرائك ، « سان — لامير » !

ولقد أصبح من الواضح ، اثنى لم أكن يوما مقداما على نشدان النفع الذاتى ، واستغلال الفرص ، حتى فى صباى . وكان هذا المذهب فى التفكير ، يتسق مع اتجاه ذهنى ، فكان يمتدح صبايى ويزينها « مما سهل على الاستسلام لها فى غير ما تحفظ ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التى خلت — عن غرور ، وليس عن تعقل — أثنى أوحيت بها . . فباله من درس جليل للنفوس الشريفة » التى لا تهاجها الرذيلة جهارا قط « ولكنها تتحايل على مباغتتها ، وهى تتوارى دائما وراء سقار من الزهد . . أو من الفضيلة غالبا !

كنت مضطربا دون ندم ، ولكننى سرعان ما أصبحت مضطربا دون حد . . وأناشدكم ان تروا كيف سارت صبايى فى أعقاب طبيعتى ، لتجرنى فى النهاية إلى الهاوية . . لقد اتخفت هذه الصباية — فى البداية — مظهر القواضع ، لكى تطمئننى . . ثم دفعت هذا التواضع إلى ان انقلب تحديا ، لكى تحفزنى . .

ومع ان السيدة « دوديتو » لم تكف عن تذكيرى بواجبى ، وعن محاولة ردى إلى حجابى . . ومع انها لم ترض لحظة عن حماقتى ، إلا انها ظلت — غيبا عدا ذلك — تعاملنى بأعظم قدر من اللطف « وراحت تبدي نحوى أرق مظاهر الود . وإنى لأعترف بان هذا الود ما كان يكفينى ، لو اثنى آمنت بأنه كان صادقا ، غير اثنى الفيتة أشد تحسبا من أن يكون صادقا ، فمضيت قدما فى الإعزاز إلى نفسى بان الحب — الذى لم يعد منذ ذلك الحين ملائما لسنى ولا لشكلى — قد حقرنى فى نظر السيدة دوديتو ، وأن هذه الشابة النزقة لم تكن تبغى سوى أن تتخذ منى ومن عواطفى التى لم تكن تلاثم سننى ، مادة للتسلية ، وانها قد صارحت « سان — لامير » بذلك ، فاذا استنكره لعدم وفائى يحمله على ان يرى فى ما كانت تراه حبيبته ، وإذا بينهما اتفاق للمبث بى والضحك منى . . هذا الوهم الذى حملنى — عندها كنت فى السادسة والعشرين من عمرى — على ان أتحدى مع السيدة دى لارناج — دون أن أكون على تعارف بها — لم يكن مما يغتفر فى سن الخامسة والأربعين ، ومع السيدة دوديتو ، لو اثنى تجاهلت انهما وجيبهما كاتا اكرم من ان ينفسا فى مثل هذه الملهاة القاسية ! وواصلت السيدة دوديتو اداء زيارات لى ، لم أكن لأتوانى عن ردها . فلقد كانت مثلى ، تحب القريض على الإقدام ، نكاحا نقوم بنزهات طويلة فى منطقة من الريف فائتة . وبما اثنى قنعت بان احب ، وبأن أجرو على الإنشاء بجبى ، فمقد كان خليقا بى أن اغتبط بأثنى فى « عهدا وضع » . لو لم يعد تهورى كل لحظة . ذلك انها لم تنف — فى البداية — شيئا من

الفرق الذي كنت انتقل به بملامحاتها . ولكن قلبي العاجز دواما عن ان يتعلم كيف يخفى ما بداخله ، لم يدعها طويلا في جهل بما كان يساورني . ولقد حاولت ان تحمل شكوكي ومخاوفي على محل الدعاية . ولكنها اخفقت في عبث المحاولة التي لم تؤد إلا إلى نوبات من الغضب المحتدم ، ومن ثم قانها غيرت مسلكها . ومع ان رقتها الناعمة لم تترعزع ، إلا انها راحت توجه إلى من القائب ما كان يخترم قلبي .. واطلعتني - في مقابل مخاوفي الظالمه - على قلق رحت أعييه .. وطالبتها بدليل على انها لم تكن تهزأ بي ، فلم تجد من وسيلة لكي نظمنني . سوى مين الشيء الذي كتبت انشدته .. ورحلت الح .. وكان الموضوع دقيقا ، شائكا .. ومن العجيب - بل لعله من المصادفات الفذة - ان تمكز امرأة جرؤت على التهادي إلى جد المساومة ، من ان تخرج من المازق بسلام .. فانها لم تاب على شيئا مما يستطيع ارق الود ان يكفله .. ولكنها لم تمنحني شيئا مما كان يحتمل ان يرديها في حماة الخيانة .. وقدر لي ان أرى - في ذلة وهوان - ان النيران التي كان اتفه صنيع من ناحيتها يؤججها في مؤادى ، لم تشعل في قلبها اضال شرارة . ولقد قلت - في مكان ما (١) - إن على المرء الا يتبع للشهوات شيئا عاى الاطلاق . إذا هو رغب في أن ينكر عليها بعض الاشياء .. ولتبين مدى إخفاق هذا الراى ، في قصتي

(١) ورد هذا القول في الجزء الثالث من كتابه « هيلوز الجديدة » .

مع السيدة دوديتو . ومدى حكمتها هي وسداد رأيها في الاعتماد على نفسها ، يجب ان اصنف بإسهاب خلواتنا الطويلة ، المعيدة ، وأن أبين كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التي قضيناها معا في ود لا يكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين ، اقتصرا على حدود معينة لم يتجاوزاها البقاء .. إذا كنت قد تأخرت طويلا قبل ان اشعر بالحب الحقيقي ، فما افدح الثمن الذي دفعه قلبي وحواسي .. ويا للانفعالات التي لابد للمرء من أن يستشعرها بالقرب من شخص حبيب ، يحبنا ، إذا قدر للهوى الذي لا يلقى جزاء ، ان يوحى بظنير له !

ولكنني أخطئ إذ اقول « حبا بدون جزاء » ، فان حبي كان يحظى بمقابل ، إلى حد ما .. كان حبا متعادلا لدى الطرفين ، وإن لم يكن متبادلا بينهما .. كان كلانا غشوان بالهوى .. هواما للحبيبة ، وهواى لها .. وكانت زمرانا ودموعنا المسرية تختلط معا . وكانت نجوانا واعترافنا ومشاعرنا مترابطة أوفق ترابط ، حتى لقد كان من المستحيل الا تتحد عند أمر من الأمور .. ومع ذلك فان السيدة دوديتو لم تكن تنسى نفسها لحظة واحدة ، في غمرة الفتوة الخطرة .. أما أنا ، فاعترف - بل أقسم - أنني إذا كنت قد حاولت في بعض الأحيان ، ان أحلها على الخيانة ، مدفوعا بمشاعري الشهوية ، إلا أنني لم أكن اصبر في ذلك عن شعوة حقيقية قط .. كان استنار وجدى ، ينش هذا الوجد في سلاته ، من تلقاء ذاته .. ذلك لأن واجبنا اننا ذاتا نسير على خطى

أن رواء الفضائل جميعا راد معبود قلبي بهاء في عيني . فكان في تدنيس طيفه القدسي قضاء مبرما عليه . ولقد كنت خليقا بأن ارتكب هذا الجرم ، إذ أنه ارتكب في فؤادي مائة مرة . ولكن .. كيف كنت أجرو على أن أهين حبيبتي صوفي ؟! .. أمكان هذا من المحتمل يوما ؟! لا ، لا ! هكذا رحت أؤكد لها - في نفسي وفؤادي - مائة مرة .. ولو أنني ملكت يوما أن أرضى نفسي ، ولو أن الحبيبة أسلمتني نفسها طواعية ، وعن طيب خاطر ، لكان جديرا بي أن أرفض السعادة بهذا الثمن . لقد كنت أحبها حبا أقوى من أن أطبع في وصالها !

* * *

إن المسافة بين (الميريتاج) و (أوبون) تقرب من فرسخ . وقد قدر لي أحيانا - في رحلاتي العديدة إلى (أوبون) - أن أقضي ليلي هناك . وفي إحدى الليالي ، بعد أن تناولنا العشاء على أفراد - شرعنا في التريض في الحديقة - في غمرة ضوء القمر الذي كان زاهيا . وفي الطرف الأقصى لهذه الحديقة ، كان ثمة حرش واسع النطاق ، مسعينا فيه إلى روضة جميلة يزينها مسقط مائي ، كنت أنا صاحب الفكرة في إقامته ، وكانت السيدة دوديتو هي التي تولت إنشاؤه . - ياله من تفكار خالد للبراءة والفطنة ! .. وفي هذه الروضة جلست وإياها على أريكة من الحشائش ، تحت خيمة محلاة بالزهور .. وبحثت - في سبيل التعبير عن مشاعر قلبي - عن لغة تليق بمهذه المشاعر . وكانت هذه أول مرة - بل المرة الوحيدة في حياتي - التي سموت فيها عاليا بمشاعري ، إذا جاز إطلاق هذا

الوصف على الفتنة الوادعة ، المغرية ، التي يوحى بها إلى قلب الرجل أرق ألوان الحب وإقواها . ويا للدموع النشوانة التي سكبتها على ركبتيها ! .. ويا للدموع التي استدرت بها إياها على الرغم منها ! .. وأخيرا ، صاحبت ، صاحبت في انفعال لا يرادى : « لا ! لا ! .. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط .. وأبدا لم يحب عاشق بهذا الوجد ! .. ولكن صديقتك » - سان - لاميير « يسمع إليسا ، ومسا كان لقلبي أن يحب برتين ! .. » ولم أخرج عن الصوت إلا بالزفرات ، واحتضنتها .. وای عنقاي !

ولكن هذا كان جل ما في الأمر ! .. وكانت قد قضيت ستة أشهر وحيدة ، أعني بمنأى عن عشيقها وعن زوجها .. وكنت قد ظلمات - لثلاثة أشهر - أراها في كل يوم تقريبا ، وكان الحب ثالثنا على الدوام ! .. ولقد تمسشنا على أفراد .. وكنا وحيدتين في خيمة ، تحت ضوء القمر الزاهي .. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث ، غادرت - في منتصف الليل - هذه الخيمة ، وأحضنا صديقتهما ! .. وهي لم تمس بدنس ، لا تزال طاهرة الجسد والقلب ، كما أقبلت في البداية .. ألا تدبر كل هذه الظروف يا قارئ ، فلن أضيف مزيدا قط !

ومذا الذي لا يستطيع أن يتصور أن أحاسيسي تركنتي دون ازعاج - في هذه المناسبة - كما امتادت أن تعمل من قبل إزاء

(١) يقصد نفسه طبعاً ! .. ولا تزال
والدار ذاتها بآلية في (أوبون) ! ..

« تيريز » و « ماما » . ولقد قلت من قبل ، إن ما خايرنى فى هذه المرة ، هو الحب .. الحب فى جماع قواه وفى عفتوان جيشاته ! .. ولن أصف هياجى « ولا ارتجافى » ولا خفقان نؤادى ، ولا اختلاجى المشنجة « ولا ضعف القلب الذى كنت استشعره باستمرار : فمن الميسور إدراكها من القاتل الذى كان طيفها وحده يحدثه فى نفسى !

فقد ذكرت أن « ليرميثاج » كان بعيدا عن « أوبون » ، وكنت أمر فى طريقى بـ « لال » « انديللى » البديعة . وفيما كنت أسير إلى « أوبون » رجعت أحلم بتلك التى كنت أسمى إلى زيارتها . وبالقضاء الناعم ، وبالقبة التى تنظرنى عند وصولى . هذه القبة الوحيدة ، هذه القبة الخمر « الهبت دى » — حتى قبل أن ألقاها — بدرجة جعلتنى أشعر بالدوار . وبأن ستارا قد هبط على يصرى ناعمانى .. واهتزت ركبناى فلم تعودا تقويان على حملى .. ووجدتنى مضطرا إلى التوقف عن السير ، بل وإلى الجلوس .. فان كل كيانى اضطرب ، دون ما مبرر واضح .. وكنت أروح فى إغواء .. وإذا نطنت إلى الخطر . رجعت أحاول — حين عاوت السير ثانية — أن اشغل بالى بتذكير آخر .. على أننى لم اكاد أقطع عشرين خطوة ، حتى عاودتنى نفس الرؤى وما ترتب عليها « فى هجوم لم أجده فى وسمى النجاة منه ، وبطريقة ما أرائى كنت مستظيما أن ابلغ هدفى دون ما ضرر » لو لم أجاهد كى أمليتها !

ووصلت إلى « أوبون » وأهز القوى ، مرهقا ، منهوكا ، لا اكاد أسقوى معتدل القائمة . وما أن رأيتها — أى السيدة



إن ما خايرنى فى هذه المرة . هو الحب فى جماع قواه وفى عفتوان

جيشاته

جان چاك روسو

جيشاته

نوديتو - حتى ارتدت إلى قواى ، ولم أعد أشعر بالقرب منها إلا بتدفق قوى لا تنضب ، ولا نفع لها أبداً . . . وكان في طريقي ، وعلى مشرف من (أويون) طريق مرصوفة لا بأس بها ، يطلق عليها اسم (مونت أوليب) اعتدنا أن نلتقى عندها أحياناً ، وقد أقبل كل من ناحيته . وكنت الأسبق إلى الوصول ، فكان على أن انتظر . ولكن ما أغلى ما كان هذا الانتظار يكذبني ! . . ولكني أشفق بالي ، حاولت أن اكتب بقلمي الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تكتب بأظفر ما لدى من دم . . وما قدر لي قط أن أتم واحدة تكون مقروءة .

وعندما كانت هي تجد إحداها في الكوة التي اتفقنا على إيداع الرسائل فيها ، لم تكن تطالع فيها سوى الحال الذهنية المتداعية التي كنت فيها عند كتابتها . . ولقد امت هذه الحال - لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة أشهر من الانفعال والكتب - إلى إرهاقي ، حتى اتنى لم ابل منها لعدة سنوات ، وانتهت بأن خلعت لي هيوماً ساحلماً ممي ، أو يحلني معه . إلى القبر . وكانت هذه هي الغبطة الخرافية الوحيدة للرجل الذي أوتى أشد الأمزجة - التي انجبتها الطبيعة - ناجحاً ، وأعظمها تهيباً وخجلاً ، في آن واحد . . كما كانت هذه آخر الأيام الجيلة التي احتسبتها على الأرض . . فمنذ ذلك الحين - بدا نسبيح من حياتي ومصائبها . . النسبيح الطويل الذي سيري أنه غير متقطع !

ولقد تبدى - خلال مجسرى حياتي بأسره - أن قلبي شفاف كالبللور ، فلم يتعلم أن يكتم قط لدقيقة واحدة ، أية عاطفة على شيء من الاحتدام ، لانت به . ومن ثم ففى الوسع إدراك الذي كان في طائفتي أن اذهب إليه في كتمان حبي للسيدة نوديتو . . كان ودنا جلدا لكل عين ، فلم نحطه بشيء من الكتمان ولا الغموض ، إذ أن طبيعته لم تكن من نوع يحتاج إلى ذلك . . وكما كانت السيدة نوديتو تكن لى أرق ود ، دون أن تجد أى حرج أو تثريب ، فأننى كنت أحس نحوها بتقدير ما كان سوى ليذكر مدى عدالته وصحته . . ومن ثم فأننا كنا في طمانينتنا الغرور ، نتيح فرصاً للذيل منا أكثر مما كنا نفعل لو أننا كنا بذننين . هي بصراحتها ، وتشتت بالها ، وعدم اكترائها بالتفكير . . وأنا بصدق عاطفتي ، وتهيبى وخجلى ، وغرورى ، ونفاد صبرى ، وغوراتى العاطفية . . فكنا نذهب معا إلى الاشيفريت ، أو نلتقى هناك على موعد - في كثير من الأحيان - أو دون موعد ، في بعض الأحيان . . وكما نواصل هناك ما ألفنا من حياة ، فتنبشى معاً وحدين يومياً - ونحن نتبادل الحديث عن هوانا ، وواجباتنا ، وصديقتنا ، وخططننا البريئة - في القتره المواجه لجناح السيدة ديبيناي ، ونحت نوافذها التي كانت ترقبنا منها ، وقرانا بعينى قلبها بغل دافق من نبع الغضب للكرامة ، إذ كانت تخال في ألفتنا إهمالاً لها وأزدراء بها !

ولقد أوقيت النساء براعة في إخفاء غضبيهن ، لا سيما إذا كان هذا الغضب عارماً ، قزياً وقد ذهبت السيدة

ديبيناي - التي كانت واسعة العقل والحيلة - برغم عنفها ، قدرا كبيرا من هذه البراعة . لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئا أو ترتاب في شيء . وبينما أخذت تضاعف اهتمامها بي ورعايتها إليي - إلى حد المضايقة - راحت تحير أخت زوجها بخشونة مسنكها ، وجاءت بمعاملتها ، وتعرضاتها المهينة التي بدا أنها كانت تحاول أن توحى بها إلي ، وثبتها في نفسي أنا الآخر . ومن السهل إدراك أنها لم توفق ، ولكنني كنت حائرا معذبا . . . كنت نهباً لمشاعري متعارضة ، ففي الوقت الذي كان فيه عطف السيدة ديبيناي ولطفها يؤثران في نفسي « كنت أجد غناء في كبح سخفي إذ أرى تضالوا احترامها للسيدة دودينو . ولقد استطاعت الأخيرة أن تحتل ذلك دون تذمر ، - بل ودون ضغينة - بفضل ما أوتيته من طباع ملائكية . كما أنها كثيرا ما كانت شاردة البال ، لا تكاد تحس ما حولها ، حتى أنها لم تكن تلاحظ نصف ما كان يجري !

وكانت مستغرقا في وجدى ، حتى أنني لم أكن أبصر سوى « صوفي » . - وقد كان هذا من أسماء السيدة دودينو - فلم أعطن إلى شيء ، بل ولا إلى أنني أصبحت حديث أهل القصر جميعا والزائرين . . . وقد كان البارون « دولباخ » - الذي لم يزر (السيغريت) من قبل ، على ما أعلم - بين هؤلاء الآخرين . ولو أنني كنت من التريث بالدرجة التي صرت إليها فيما بعد ، لشككت كل الشك في أن السيدة ديبيناي دبرت عمدا هذه الزيارة ، لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية . . . مناظر المواطن العاشق !

على أنني كنت من الغياء بحيث لم أر ما كان واضحا بقلبي لكل مخلوق . ومع ذلك ، فإن غيائي كله لم يحل بيني وبين أن أرى أن البارون كان أكثر اعتباطا وانشراحا من عادته . وبدلا من أن يتجهم في وجهي ، أغرقني بسيل من الدملبات التي لم أنقذ منها شيئا . وحلفت فيه ، دون أن أجيب . . . واضطرت السيدة ديبيناي إلى أن تمسك جتبيها لتحد من ضحكها ، ولكنني لم أستطع أن أفرى شيئا من حقيقة أمرها . . . ولما لم يكن مزاحها قد تجاوز الحدود ، لذك فقد كان خير ما أتمله - لو أنني فهمت كنهه - هو أن أدلي فيه بدلوى . ولكن الواقع هو أنه كان من السهل أن يلصق المرء في عيني البارون - خلال مرجه الساخر - وميضاً من طرب مقبض ، كان من المحتمل أن يثير قلقي ، لو أنني انتبهت إليه إذ ذاك كما انتبهت فيما بعد ، حين استرجعته في ذهني !

وحدث أن ذهبت لزيارة السيدة دودينو في ١ أوبون - يوما - عقب عودتها من إحدى رحلاتها إلى باريس ، فوجدتها واجمة ، ولاحظت أنها كانت تبكي قبل وصولي . واضطرت إلي أن أتمالك نفسي ، إذ كانت السيدة «دويلينغني» - «أخت زوجها» - حاضرة . ولكنني ما كنت أخلو إليها لحظة ، حتى أفضيت إليها بقلقي ، فقالت وهي تنتهد : « آه ! . . . لشد ما أخشى أن تجردني نزواتك من كل طمانينة وراحة بال ، طيلة ما تبقى من حياتي . . . لقد نقل إلي «سان - لاميير» أمرا ، بأسلوب محرف . وإنه ينبغي لي أن أتركك . . . على أنني والآن من هذا ، أنه لا يصارحني بك شيء . . . »

— لحسن الحظ — لم اتكتم امر صداقتنا التي نشأت تحت رعايته .. فقد كانت خطاباتي — كتابي — مليئة به . ولم أخف عنه شيئا سوى حبك الأرعن - الذي كنت آمل ان أبرئك منه ، والذي استطيع ان أثبتن انه يراه جرما من ناحيتي ، وإن لم يذكر لى ذلك . لقد اساء إلينا شخص ما ، وظلمنى ، ولكن .. لا بأس . وعلينا أن نصمم تعارفا « أو ليكن مسلكك كما ينبغى ويليق ، فلمست رغبة في أن اكتم شيئا — بعد الآن — من حبيبي ! » .

وكانت هذه هي أول لحظة أدركت فيها عار رؤية نفسي مهينا ، إذ تطلعت إلى أساعتي إزاء شابة أحسست بأنها كانت محقة في لومها ، وكان خليقا بي أن أكون راميا لها وناصحا . وكان السخط الذي بعثه هذا في نفسي ، كفيلا بأن يجعلنى من القسوة بحيث أستطيع ان اغالب ضعفى ، لولا أن الاشتغال الحنون — الذى لثارته في نفسي ضحية هذا الضعف — طفى على قلبى - فوالسفاه ! .. افكأنت هذه لحظة املك فيها أن أبث في قلبى صلابة ، وهو زاهر بالدموع التى كانت تنساب إليه من كل ناحية ؟! .. وما لبث هذا الحنان أن انقلب إلى غضب على وشاة السوء ، الذين لم يروا من شعور خاطئ ، ولكنه غير إرادى ، سوى جانبه الأثم .. دون ان يعتقدوا « بل دون ان يحسدوا ، ما كان لهذا القلب الذى نبض به ، من إخلاص شريف !

* * *

ولم ينبق طويلا في ريب من اليد التى وجهت هذه الصنعة ! كما نعرف — معا — أن السيدة ديبيناى كانت تكتب « سان — لامبير » . ولم تكن هذه هي العاصفة الأولى التى اثارتها ضد السيدة دوديتو ، فالتد بذلت محاولات لا عداد لها ، لتنتزع « سان — لامبير » منها ، وكان ما أحرزته بعض هذه المحاولات — فى الماضى — يحل السيدة دوديتو على أن ترتجف فرقا مما يخبئه لها المستقبل ! .. وإلى جانب ذلك ، كان « جريم » — الذى اعتقد انه تبع السيد « دى كاسترى » فى رحيله مع الجيش — فى (ويستفاليا) ، وكذلك كان « سان — لامبير » وكانا يتزاوران أحيانا ! .. وكان « جريم » قد حاول التقرب إلى السيدة « دوديتو » ، ولكن محاولاته أخفقت . وقد أفضبه هذا إلى الدرجة التى جعلته يكف عن زيارتها . ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور — على ضوء ما أشتهر به من انضاع — مدى « برود الدم » الذى تلقى به ما زعم من أن السيدة دوديتو آثرت عليه رجلا يكبره سنا ، لا سيما وأنه لم يكن يتكلم عن هذا الرجل — من عرف طريقه إلى الأوساط الراقية — إلا باعتباره شخصا ينعم برعايته وعطفه !

وغدت وسالوسى من ناحية السيدة ديبيناى امورا مؤكدة ، عندما سمعت ما حدث فى بيتى . فقد اعتادت « تيريز » أن تتردد على (لاشيفريت) — فى الفترات التى كنت أقضيها هناك — لتحل لى خطاباتي « أو لتؤدى لى بعض اشياء كانت صحتى المهتلة تتطلبها . ولقد حدث ان منحتها السيدة ديبيناى عما إذا كانت السيدة دوديتو تكتب لى . فلما أماتتها بانها تبادل

الرسائل ، راحت تلج عليها لتسلبها رسائل السيدة دوديتو . مؤكدة لها انها مستحکم إغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لا تتم عن انها قصت ...! ولقد عمدت ترميز - دون ان تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب ، وفون ان تثبتي به - إلى اتخاذ أقصى اسباب الحيلة ، لتخفي ما كانت تحمله إلى من رسائل .. وكان إجراء حكيما « إذ ان السيدة ديبيناي قد اقامت عليها رقابة كلما جاءت ، وكانت تترى لها حتى تبر بها » وقد ذهبت في جراتها إلى حد تفتيش مرسلاتها !

بل انها فعلت ما هو أكثر من هذا ، فقد دعت نفسها والسيد « دى مارجينسى » يوما إلى الفداء في « ليرميتاج » . وكانت هذه أول مرة تفعل فيها ذلك منذ مكنه ، واستغلت اللحظة التي كنت أنشى فيها مع « مارجينسى » ، فذهبت مع الأم والابنة إلى غرفة مكتبي ، وسالتهما ان تطلعا على رسائل السيدة دوديتو . ولو ان الأم كانت تعرف مكان هذه الرسائل « لكان من المحقق ان تسلبها إليها ، ولكن الابنة وحدها - لحسن الحظ - هي التي كانت تعرف المكان ، وقد زعيت انني لا احتفظ بشيء منها ...! وكانت في هذا كاذبة ، دون نزاع .. ولكنه أشرف ، وأخلص ، وأكرم خداع ...! وإذا رأت السيدة ديبيناي انها لن تستطيع ان تغريها ، راحت تحاول ان تستنهض غيرتها ، بان اخذت تلومها على طيبة قلبها ، وعدم بصيرتها « ومضت تقول لها : « كيف تغفلين عن تبين أن علاقتهما آتمة ؟ ..! إذا كنت - برغم كل الذي تستطيعين ان تبصره بعينيك - لا تزالين بحاجة إلى مزيد من الأدلة ،

نعاوني فيما كان يجب ان تفعله أنت للحصول على ذلك .. انك تقولين إنه يمزق رسائل السيدة دوديتو بمجرد أن يطلع عليها ، حسنا ...! إذن ، فاجمعي القصاصات بعناية ، واسلمينيها ، وسوف الصقتها بعضها إلى بعض ! »

هكذا كانت الدروس التي لقتها صديقتي لرينيتي !

ولقد كنت « ترميز » من الحكمة بحيث انها لم تذكر لي شيئا عن هذه المحاولات زمنا طويلا . ولكنها حين رأت ورطتي - في النهاية - شعرت ان من واجبها ان تقضى إلى بكل شيء ، حتى أصبح على بصيرة بأولئك الذين كان على أن انازلهم ، فأتخذ من الخطوات ما يكلل حمايتي من الضرر الذي كان يدبرا لي !

وكان سخطى وغضبى بفوقان كل وصف ، بدلا من ان اخفي ما بنفسى عن السيدة ديبيناي - كما كانت هي تفعل معي - وأقابل سئاسها بهتلا ، فاننى انسقت للثبور « دون ان اكبح نفسى » وأدعيت - بتسرعى المجهود - على القطيعة علانية . ومن الممكن قياس اندفاعى وعدم مطلقى ، بالرسائل الغالية ، التي تبين بوضوح كيف تصرف كل منا في هذه المناسبة :

رسالة من السيدة ديبيناي (المرف ١ - رقم ٤٤)

« ما السبب في اننى لا اراك - يا صديقى العزيز ...! اننى قلقة بصدك لقد وعدتني مخلصتك ، لكن فشلت على الجي »

والذهاب ، بين هنا و (ليرمي تاج) . وعلى هذا ، فقد تركتك تفعل ما يحلو لك . ولكن ، لا . . . لقد تركت أسبوعا ينقضى دون أن تبر بوعدهك . ولولا أنني نبئت بأنك بخير ، لظننتك مريضا !

« لقد ارتقبك بالأمس ، أو في اليوم السابق عليه ، ولكني لم أرك أثرا . قيا الله . . . ما شأنك ، وماذا جرى لك ؟ . . . ليس ثمة ما يشغلك ، وليس ثمة ما يزعجك . فأننى أطمئن نفسي إلى أنك ما كنت لتتوانى عن المجئى لتفنى إلى بما يهمك ، لو كان الأمر كذلك ! . . . إذن ، فلا بد أنك مريض ! . . . إننى أرجوك أن تسرى عنى قلقي ثورا ! . . . وداعا يا صديقى العزيز ! ولعل هذه الـ « وداعا » ، تواتينى بـ « صباح الخير » منك ! » .

الرد

« صباح الأريماء »

« ليس بوسمى أن أقول لك شيئا ، بل إننى أثريت رينما أستكمل معلوماتى ، وهذا ما سوف يتحقق عاجلا » أو آجلا . وإلى أن يتم ذلك ، ثقى من أن البراءة المتهمه ، ستلقى مدانعا أو تنسى من الحماس ما يكفى لأن يتيج للواشين - أيا كانوا - ما يدعوه للندم والحصرة ! » .

الرسالة الثانية من السيدة نفسها (الملف ١ - رقم ٤٥)

« أتصرف أن خطابك يثير ذمى . . . ما الذى يرمى إليه ؟ . . . لقد أعجبت قراءته نيفا وخمسا وعشرين مرة . والحق إننى لم

أفقه منه شيئا . كل ما أراه هو أنك قلق معذب ، وأنت تنتظر إلى أن يزول عنك ذلك ، قبل أن تكلمنى فى الأمر . انهذا ما تعاهدنا عليه يا صديقى العزيز ؟ . . . فما الذى جرى - إذن - لهذه الصداقة ، ولهذه الثقة ؟ وكيف ترائى مقدتها ؟ هل غضبتك ضدى ، أو هى من أجلى ؟ . . . مهما يكن الأمر ، فأنى أناشدك أن تاتى الليلة ، وتذكر أنك وعدتنى - ولما تنقض بعد ثمانية أيام - بالا تكتم فى قلبك شيئا ، وبأن تفتحنى فى الذو . إننى أنشيت بهذه الثقة « يا صديقى العزيز . . .

« مهلا ! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى » فلم أكن أفضل حظا فى فهمه من ذى قبل ، ولكنه يجعلنى أرتجف . لكم يبدو لى أنك مهتاج بدرجة تاسية ، فأرجو أن تهذا . أما وأنا أجهل موضوع همومك ، فأنى لا أدرى ماذا أقول ، اللهم إلا أننى سأظل أضارعك شقاء ، إلى أن يقتدر لى أن أراك ! . . . فإذا لم تكن هنا فى الساعة السادسة من هذا المساء ، فسأطلق غدا إلى (ليرمي تاج) ، مهما تكن حال الطقس ، ومهما تكن حالى أنا ! إذ أننى لن أستطيع مضيا فى تحمل هذا القلق !

« نعم صباحا ، يا صديقى العزيز الطيب . . . وكيفما يكن الأمر ، فأننى أجازف بأن أدعوك - دون أن أدرى ما إذا كنت بحاجة إلى هذا النصيح أو أنك لست بحاجة - إلى أن تحاول الحيلة وأيقاف التقدم الذى يحرز الانزعاج والقلق ، فى العزلة . . . فإن الذبابة لا تلبث أن تنصبغ . . . وقد جريت هذا ، كثيرا ! » .

الرد

« مساء هذا الأربعاء »

« ليس بوسعى أن أزورك ، ولا أن أقبّل زيارتك ، طالما ظل القلب الذى استثمره . إن الثقة التى تتكلمين عنها لم تعد قائمة ، ولن يسهل عليك أن تستردّيه . . . إننى لا أرى فى ظهرك الراهن ، سوى الرغبة فى أن تستخلصى من اعترافات الغير نفعا يخدم وجهات نظرك . ولكن قلبى - الذى يبادر إلى الارتياح فى أحضان أى قلب يفتتح له - يفلق أبوابه فى وجهه المكر والحيلة . إننى أعرف ما وراء الصعوبة التى تلقينها فى تفهم رسالتى . افتتقدينى من الغفلة بحيث اظن أنك لم تفهميها ؟ لا ، ولكننى سأعرف كيف أقهر دهاك بالصراحة ! . . وسأفصح عن نفسى بهزيد من الجلاء ، لكى يتسنى لك أن تصبى أكثر منهما لى .

« هناك عاشقان وثيقا الترابط ، وأهل لأن يتحابا ، يحتلان من نفسى مكانة عزيزة . وأحسبك لن تتركى من أعنى ، إلا إذا ذكرت لك اسميهما . وأرى أن هناك من حاول التفرقة بينهما . وإننى الشخص الذى استخدم لإثارة غيرة أحدهما . ولم يكن الاختيار جد بارع ، بيد أنه لا حيلنا للفرض الخبيث . . وانت التى أرتاب فى أنها مخدرة هذا الخبيث . وأرجو أن يزداد هذا انضاجا !

« وهكذا - على ما أعرف - تعرض المرأة التى أجلها فوق كل من عداها ، لمعرفة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين . كما تعرض أنا لعل أن أكون أحد هذين الشخصين الضعيفين

النفس . . . لو أننى عرفت أنك كنت تقديمين على مثل هذا الظن بها وبى - للحظة واحدة من العمر - لأبغضتك حتى الموت . ولكنى لا أتهمك إلا بأنك قلت « وليس بانك ظننت وفكرت ! . . . وليست أفهم - فى مثل هذه الحال - من من الثلاثة كنت تشتهين إيذاءه . ولكنك خليقة - إذا كنت تحبين طهانية النفس - بأن تخشى الفحس الذى يجلبه عليك النجاح . . . إننى لم أكنم عنك - ولا عنها - وكل ما أراه من سوء فى بعض روابط معينة ، ولكنى أرجو أن تنتهى هذه الروابط بوسيلة شريفة تعادل المشاعر التى تألفت منها فى الأصل ، وأن ينقلب حب غير مشروع ، إلى صداقة أبدية ، أمانا الذى لم أوقع يوما بخلق أذى استخدم كوسيلة بريئة لإيذاء صديقى ؟ . . لا . إن أصفح عنك أبدا . بل إننى لأخلق بأن أصبح عدوك الذى لا سبيل إلى استرضائه . ولن أحترم فى ذلك بسوى أسرارك وحكك ، لأننى لن أكون يوما رجلا بلا عهد ولا ولاء !

« إننى لا أتصور أن تدوم الحيرة - التى أعانيها - طويلا . ولن البت أن أتبين ما إذا كنت مخطئا . وإذا ذاك ، فقد يكون من واجبي أن أصلح غلطة كبرى ، وإن يكون فى حياتى ما أقدم عليه بطبيب خاطر يفوق ما سأنفعل به ذلك . . . ولكن ، اتعربين كيف سأكثر عن أخطائى فى الفترة القصيرة التى سأنظّل اقضيها على مقربة منك . . . لسوف يكون ذلك بأن أعمل ما لا قبل لغيرى بفعله . . . بأن أقول لك بصراحة ما يراه الناس نيك . . . وبأن أطلعك على الثغرات التى يظن عليك ارتكابها فى نسج سمكت . . . وبالرغم من كل من يحسبون بك من مدعى

الصداقة ، فإنيك عندما ترينني أرحل . ستودعين الصديق ،
إذ أنك لن تجدى بعدى من يقوله لك . »

الرسالة الثالثة من السيدة بيناي (المجلد ١ رقم ٤٦)

« لم أفهم رسالتك التي تلقيتها في هذا الصباح . ولست
أقول هذا ، إلا أنه كذلك . وإني لأنتظر رسالة هذا المساء .
فلا تخشى إلا أجيب عنها قط ، وإنها أنا جد تواقفة إلى أن
أنساها . ومع أنك تشر إشفائي ، إلا أنني لا أملك دفعا للحرارة
التي ملأت بها نفسي . أنا أستخدم المكر والدهاء معك . . .
أنا أنهم بأسود الشناعة ! »

« وداعا ، وإني لأندم على أنك كتبت هنا . . وداعا ، فليست
أدرى ماذا أقول . . وداعا . ولن أتوق إلا إلى أن اصفيح عنك .
ولك أن تأتي عندهما يحلو لك ، وسوف تستقبل بأفضل ما لا
تؤهلك له شكوكك . وليس عليك سوى أن تريح نفسك من
عنساء الانشغال بسمعتي ، فليس في الأمر ما يهمني . إن
مسلكي حبيب ، وهذا يكفي . . »

« وفيها عدا هذا ، فإني أجهل تماما ما جرى للشخصين
الذين يحتفلان من نفسي أنا الأخرى ، المكافئة العزيزة التي
يحتفلانها من نفسك » (١) .

(١) في النص الذي ورد في مذكرات مدام دي بيناي ، ذكرت العبارة
الأخيرة ، على النسق التالي : « إنني أحبك - متى شئت - بما ذكرت بيناي »

ولقد خلصتني هذه الرسالة الأخيرة من حيرة اليأس .
ولكنها ألقت بي إلى أخرى لم تكن تقل عنها . ومع أن هذه
الرسائل وردودها تبولت بسرعة بالغة ، في بحر يوم واحد ،
إلا أن هذه الفترة كانت كافية لكي أقطع استرسال نوبات
غضبي ، ولكي أفكر في ضخامة اندفاعي غير الحكيم . ولم تكن
السيدة دودينو قد أوصتني بشيء قدر ما أوصتني بأن ألزم
الهدوء ، وأن أترك لها عبء تخليص نفسها بنفسها من هذه
المسألة ، وبأن أتفادى كل قطيعة وكل ضجة « لا سيما في تلك
الفترة بالذات . ومع ذلك فما إنذا أنكبت - بإهانتاتي البالغة
الصراحة والمقذعة الفظاعة - نار السخط في قلب امرأة لم
تكن إذ ذاك ترجو سوى ذلك . وما كان لي - بطبيعة الحال -
أن أنتظر من ناحيتها سوى رد بالغ الكبرياء ، والازدراء ،
والإهانة . إلى درجة لا أملك معها - إلا باقصى ذلة مهينة -
أن أحجم عن مفادرة بيتها في الحال . على أن دهاءها كان
- لحسن الحظ - يفوق غضبي . فتفادت بلهجة جوابها أن
تسب في تحقيري إلى هذا الحد . غير أنه لم يكن ثمة بد من
أن أغادر البيت ، أو أن أذهب لزيارتها على الفور . . لم يكن
ثمة مفر من اختيار أحد الأمرين ! وقد استقر رأيي على الأخير
منها ، وأنا في حيرة شديدة من المسلك الذي كان ينبغي أن

أستري ، حتى لا أحسك عناء صيغتها ، فإنيك لست أعرف - أكثر من أي شخص
آخر - أن ليس لدى الكل ما يشرفني .
من هذا النص إلى « جريم »

انتبهه في الإيضاح الذي توقعته أن اطالب به . فكيف كان يوسى أن أخلص نفسي بنون أن أقحم السيدة دوديتو أو تيريز ؟ . إذ ويل لتلك التي سأضطر إلى أن أفشي باسمها ! . ما من شيء في انتقام امرأة حقود ، بارعة في المكائد ، إلا آثار مخاوفي على تلك التي قد تقع النقرة على رأسها . وما قصرت رسائلي على مجرد « شكوك » إلا لتفادي هذه النقرة ، إذ أننى بذلك تلافيت أن أضطر إلى تقديم أدلة ما . ومن الصحيح أن هذا جعل فورأتى أبعد من أن تفتقر ، إذ ما كان أى شك مجسود ليبيح لى أن أعامل امرأة « وامرأة صديقة » ، كمسا عاملت السيدة ديبيناي . ولكن .. هنا بالذات ، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة ، التي حققتها بجدارة . إذ كثرت عن أخطائي ومواطن ضعفى المستقرة ، بأن تحملت نفوياً أشد واقسى ، لم أكن مرتكبها ، ولا كنت يوماً جديراً بوزرها .

على أننى لم أضطر إلى تحمل الهجوم الذي كنت أخشاه . بل كان كل نصيبى منه هو الخوف الذي راودنى « فما أن اقتربت من السيدة ديبيناي ، حتى ألقت ذراعها حول عنقى ، وانفجرت باكية . ومس قلبى هذا الاستقبال غير المرتقب ، من صديقة قديمة ، فتأثرت كل التأثر ، وبكى كثيراً أنا الآخر ! . وقتلت لها بضع كلمات قللاً ، لم يكن لها من معنى . . وقالت لى بضع كلمات مثلها ، كانت أبعد من أن تكون ذات معنى . . وكان هذا غاية الأمر ! ثم أعدت المائدة ، فجلينا إليها معا . وهناك ، وفى انتظار أن ادعى للإيضاح - الذى ظننت أنه لم يربحاً إلا ريشاً نفرغ من العشاء - كنت فى أسوأ حال ، إذ أننى

تصاع دائماً لأقل اضطراب يملكنى « حتى أننى لأعجز عن أن أخفيه عن أقل الناس ملاحظة وطفنة . ولقد كان ارتباكى كميلاً بأن يلهما الشجاعة ، بيد أنها لم تجرؤ على الإقدام . ومن ثم لم يكن هناك إيضاح بعد العشاء ، يفوق ما كان قبله ! . لا ولا كان ثمة فى غد . . بل إن خلواتنا الصامتة . لم تملأ إلا بأمرور غير ذات بال ، أو بوضع محاولات مؤذية من جانبى ، حاولت بها أن أشرح موقفى وأن أوعز بأننى لم أكن أملك أن أقول شيئاً عن الأساس الذى قامت عليه شكوكى ، وأن أؤكد - بكل إخلاص وصدق - بأن حيلتى بأسرها ستبقى فى إصلاح ما كان فى هذه الشكوك من غبن « لو أننى تثبت من أنها لم تقم على أساس ما !

ولم تعد السيدة ديبيناي أقل فضول إلى معرفة كله هذه الشكوك تماماً ، ولا كيف وأقننى . بل اقتصر الصلح بيننا - سواء من ناحيتها أو من ناحيتى - على المناق الذى ضمنا حين التقينا . ولما كانت هى الوحيدة التي مستها الإساءة - من الناحية المشكلية على الأقل - فقد لاح لى الادعى بدعوى إلى أن اسمى إلى إيضاح لم تكن تنشده هى نفسها ، ومن ثم عدت إلى بيتى كمسا بارحته ! . وقبلاً عدا ذلك ، ظلت علاقتى بها على ما كانت عليه من قبل « وسرعان ما نسيت النزاع نسياناً شبه تام ، واعتقدت - فى غباء - أنها قد نسيت هى الأخرى ، لأنها لم تعد تبدي ما يدل على أنها ظلت تتذكره !

ولم يكن هذا - كما سيبدو سراعاً - هو الكرب الوحيد الذي جره على ضمعي، ولكنني تعرضت لكروب غيره، لم تكن أقل إزعاجاً، ولكنني لم أكن مجتلبها حقاً، وما كان لها من داع سوى الرغبة في انتزاعي من عزلتي (١)، ولقد افقتني هذه المضايقات من « ديدرو » وعصبة دولياخ - فان ديدرو لم يكتب يوماً - منذ استقرارى في (اليرميتاج) - عن التحرش بي، سواء بنفسه، أو عن طريق ديلير - وسرعان ما تبينت من دعايات هذا بشأن نزعاتي في الغاية - مدى الخيلة التي خلعوا بها على الفاسك ثوب الراعي العاشق - ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التي أخذت بها ديدرو، بل كانت ثمة أسباب أشد وأعظم !

ذلك أنه عقب نشر « ابن السفاح »، أرسل لي نسخة من الكتاب قراتها بالاهتمام والشوق اللذين يولييهما المرء عادة مؤلفاً من إنتاج صديق له - وإذا طالعت الحوار الشعري الذي الحق به « دهشت، بل وهزنت، إذ وجدت فيه - إلى جانب عدة تليجات غير كريمة، ولكنها تحفل، وقد وجهها ضد أولئك الذين يعيشون في عزلة - هذه العبارة الخشنة :

(١) أردف « روسو » بحقياً بقوله : « وأمنى بذلك، الرغبة في انتزاع المرأة المجوز من هذه العزلة، إذ كانت الحاجة ماسة إليها في تدبير المأزاة. ومن المدحش أن تفتي الصفاء في الخير، ظلت - أبان هذه العاصفة الطويلة للأجل - تحول بيني وبين أن أهتم أنها هي - ولست أنا - التي كانت مرتجاة العودة إلى باريس » .. ويقصد بالمرأة المجوز هنا، السيدة لوفليسير، أم « تيز ».

المريرة، التي لم يكن لها مجال في السياق : « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث » !

وهذه العبارة مبهمة، ونحتمل تاويلين « كما يبدو لي ». أحدهما صادق كل الصدق، والآخر زائف كل الزيف. إذ أن من المستحيل على إنسان يعيش - ويرغب في أن يعيش - في عزلة، أن ينفى إيذاء أحد، وبالقالي، فمن المستحيل أن يكون خبيثاً - ومن ثم فقد كانت العبارة - في حد ذاتها - تتطلب إيضاحاً .. وهي أكثر طلباً له، لصدورها من مؤلف كان له - عندما طبعت هذه العبارة - صديق يلوذ بالعزلة - وبدأ لي أنه من المستنكر، ومن الجفافة للأمانة، أن يكون ديدرو قد نسي - عند نشرها - هذا الصديق المعتكف .. أو - إذا كان قد تذكره - ألا يكون قد أردف - في تمحيبه الرأي، على الأقل - ما كان ينبغي عليه من استثناء كريم وعادل لا بالنسبة لهذا الصديق محسوب « وإنما بالنسبة إلى كثير من الحكماء ذوي المكائنة، الذين كانوا ينشدون في العزلة - في جميع الأزمان - الهدوء والسلام، والذين سبح مؤلف لنفسه - لأول مرة منذ خلق الدنيا - بأن يجعل منهم، على كثرتهم، اسراراً بلا استثناء، وبجرة قلم !

قلت لحب « ديدرو » من قلبي، وكانت أقدره صادقاً، وكنت مطمئناً تهام الطمانينة « إلى عين المواطف من ناحيته - ولكنني ضقت بعناده الذي لم يكن يلين، في معارضتي في أخواني، وميولي، واسلوب معيشتي وفي كل ما كان يعنيني وحدي، بوجه خاص .. وأثارني مرأى رجل يصفرني ويهيمني بكل حيلة

نفى بداية مكثى فى (ليرميثاج) ، لم تبتد السيدة لوفاسير ارتياحا ، ووجدت ان المكان كان منعزلا أكثر مما ينبغى . وقد رددت ملاحظاتها فى هذا الصدد على مسمى « غمرضت ان أردنا إلى باريس » ، إذا كانت تفضل ذلك ، وان أدفع لها أجر سكناها هناك ، وان اعنى بحاجاتها كما أنها كانت ماضية فى الإقامة معى . . . بيد أنها رفضت اقتراحى ، وأعلنت أنها جد راضية عن (ليرميثاج) ، وان جو الريف كان مفيدا لها . وقد تبدى ان هذا كان صحيحا ، إذ أنها ارتدت إلى الشباب « كما ينبغى ان يقال » وأصبحت أفضل حالا مما كانت فى باريس . بل إن ابنتها اكدت لى أنها كانت - فى قرارة نفسها - مسنأة لجارحتنا (ليرميثاج) ، الذى كان مقاما قاننا حقا ، وأنها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه فى الحديقة وفواكهها ، وأنها إنما قالت ما قالت بليعاز من الغير ، لتحاول إغرائى على العودة إلى باريس !

وإذ اخففت تلك المحاولة « سموا إلى ان يحصلوا بخارة الريب » ، على ما لم تؤد إليه المجاملة « فراحوا يظنون ان من الجرم ان استبقى العجوز هناك ، بعيدا عن الخدمات التى قد تحتاج إليها فى مثل سننا ، دون ان يظنوا إلى أنها وكثيرا من المكتهلين ، الذين يطيل طقس الريف الرائع من حياتهم ، كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات فى (مونبورنسى) ، التى كانت جد قريبة من مسكنى . . . وكانها لم يكن ثمة كهول إلا فى (باريس) ، ولم يكن فى وسع الطاعنين فى السن ان يعيشوا فى أى مكان آخر ! . . . ولست كلنا لوفاسير

إلى ان يسيطر على كما لو كنت طفلا . . ونفرضى منه سهولة إرجائه الوعود ، وإهماله ألوفاء بها . . وغاظنى منه كثرة المواعيد المعتودة وتخليه عنها ، وشغفه بمعد مواعيد جديدة لكى ينكث بها مرة أخرى . . ومثلت انتظاره عبثا ثلاث او أربع مرات فى الشهر . فى أيام كان يحددها هو ، لكى انتهى إلى تناول العشاء وحيدا فى المساء ، بعد ان أكون قد سرت إلى (سان دنيس) عسى ان التقى به فى الطريق . وبمعد ان أكون قد ارتقبته طوال النهار . . كان قلبى متخفا بئس هذه العيوب المتراكمة . وكان الصيب الأخير منها . يبدو لى أشدها . كما انه كان أكثرها جرحا لكرامنى . ولقد كتبت إليه شكاكيا ، ولكن . . فى حنان ولطف جعلانى أغرق ورفقى بالدموع . وكان خطابى مؤثرا إلى درجة كانت خليقة بان تستدر دموعه . ولكن أحدا ما كان ليحدث رده على ذلك الخطاب . . وما هو ينصه (الملف ١ - رقم ٢٣) :

« إننى لجد مغتبط لأن كتابى راق لك . . إنك لا تقرنى على رأيي بشأن النساك المعتزلين . فحدث عنهم ولا حرج ، ما شاء لك الحديث ، نلسوف نظل الوحيد فى العالم ، الذى أفكر فيه فى هذا المجال . . ومع ذلك فلا يزال لدى الكثير مما أستطيع ان أقوله بهذا الصدد ، لو كان فى الوسع الكلام دون إغضابك . إن امرأة فى الثمانين من عمرها . . الخ . لقد أتبانى بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيدة ديبيناي ، ولا بد انه آلمك كثيرا ، وإلا فأننى لم ألم كل الإلمام بدخيلة نفسك . »

ولابد لى من ان أوضح العبارتين الأخيرتين من هذا الخطاب:

— التي كانت اكولا ، عظيمة النهم — عرضة لانهابات المارارة ، ولنوبت قاسية من الإسهال ، كانت تلازمها أياها ، ولا تلبث أن تشفى من تلقاء ذاتها . ولم تكن العجوز تتناول شيئا حين كانت في باريس — وإنما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها . وكذلك كانت تفعل في (ليرميتاج) إذ أدركت أنها لا تملك سبيلا خيرا من هذه !

ولكن المراقبين في إثارة المتاعب ، لم يعبأوا بهذا ، فما دام لم يكن ثمة أطباء ولا صيادلة في الريف ، فإن استبقاء العجوز هناك ، كان يعنى الرغبة في موتها . . . ورغم أنها كانت هناك في صحة طيبة . . . وكان خليقا بديرو أن يحدد السن التي لا يجوز بعدها السماح للمسننين بالبقاء بعيدا عن (باريس) — والتي يكون استبقاؤهم بعدها قتلًا مع الإصرار . . . ولقد كان هذا أحد الفئتين الشنيعتين ، اللذين لم يشأ من أجلهما أن يستثنى من رأيه . . . « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث » ! وكان هذا تفسير تعجبه المؤثر ، « والى إلى آخره » التي تكرم بإضافتها ، حين قال : « أن امرأة في الثمانين من عمرها . . الخ » !

وخطر لى أتتى لن أجد ردا على هذا اللوم ، أفضل من أن أرجع إلى السيدة لوفاسير نفسها . فسألتها أن تكتب إلى السيدة ديبيناى معبرة عن شعورها الطبيعي إزاء الأمر . ولكني أتركها تسترسل على سجيته . لم أسألهما أن تطلعنى على خطابها . . بل إننى أطلعتها على الخطاب التالى ، الذى كتبت

قد كتبتة إلى السيدة ديبيناى ، بشأن رد — كنت قد أعترمت أن أجيب به عن خطاب أعنف من السابق ، ورد من ديرو — ولكنها منعتنى من إرسال هذا الرد .

« يوم الخميس

» إن السيدة لوفاسير تعزم أن تكتب إليك ، أيتها الصديقة الطيبة . . فليقد رجوتها أن تروى لك بصراحة ما يدور بخلدتها . ولكى تكون على سجيته تماما ، فقد أخبرتها باننى لا أريد أن أرى خطابها ، كما إننى أناشدك ألا تذكرى لى شيئا عن محتوياته .

« إننى لم أرسل خطابى (١) ما دمت تعارضين في ذلك ، ولكن شعورى باننى طمنت طعنة بالغة ، يجعل من الصغار ، بك ومن القش الذى لا أسمح به لنفسى ، أننى أرضى بأن أكون مخطئا . . ولا راء في أن الانجيل يدعو المرء الذى يصنع على أحد خديه ، أن يدير الخد الآخر ، ولكنه لا يدعوه إلى أن يطلب الصنح . أتذكرين ذلك الرجل الذى يهتف — في المسرحية الفكاهة — وهو ينهال بعصاه ضربا : « ها هو ذا دور الفيلسوف » ؟ !

« لا تخدعى نفسك إذ ترين أن بوسعك أن تمنعني من المجيء متعلقة بمسوء الطقوس هنا ، في الآونة الحاضرة . . فإن حقنه سيهبه ما تاباه عليه الصداقة من وقت وقوة . . وستكون هذه هى أول مرة في حياته ، يفد فيها في ذات اليوم الذى يضربه

(١) يقصد الرد على الخطاب القاسى الذى كتبتة لى السيدة ديبيناى .

موعدا ! ولسوف يبذل قصارى جهده لكي يأتي مبررد بلساته
ما كاله لى فى خطاباته من إعانات . ولسوف اتحملها ببائع
الصبر . ولسوف يعود إلى باريس ، وهو مريض . ومن ثم
اغدوا أنا - كالعتاد - شخصا بغيضا كل البغض . فماذا
افعل ؟ لا مفر من الاحتمال !

« ولكن ... الست تعجبين بحكمة شخص رغب فى ان
يجيء فيصحبنى إلى (سان دنيس) فى مركبة « لتتناول الغداء
هناك » ثم يظننى - فى العودة - فى مركبة .. ثم لا تلبث ثروته
ان تعجز - بعد ثمانية ايام - (المرف ١ - الرسالة رقم ٢٤)
- عن ان تمكينه من ان يقد على (ليرميتراج) إلا سائرا على
قدميه ؟ .. ليس من المستحيل فى شيء - إذا تكلنا بأسلوبه
- ان تكون هذه هى سمة الاخلاص وحسن النية ، ولكن لا بد
له - فى هذه الحال - من ان يطرأ على موارده تغير خارجى
خلال ثمانية ايام !

« إبنى اشاطرك أساك من اجل مرض السيدة والدتك »
ولكنك ترين ان الآمك لا تعادل الآمى . فان رؤية الأشخاص
الذين نحبهم مرضى ، أقل إيلاما للنفس من الغبن والقسوة .
« فوداما يا صديقتى الطيبة ، وستكون هذه آخر مرة
اتحدث فيها إليك عن هذه المسألة القمصة .. إنك تحدثيننى
عن الذهاب إلى باريس فى هدوء أعصاب كقول بأن يطربنى .
لو أنه حدث فى ظروف أخرى ! » .

وأتبات « ديدرو » بما فعلت مع السيدة لوفلسير ، نزولا
عند رأى السيدة ديبيناى نفسها . وقد اختارت السيدة

لوفلسير البقاء فى (ليرميتراج) - وهو ما كان فى وسع أى امرئ
ان يحدسه - لأنها كانت جد مرتاحة إلى المقام فيسه ، حيث
كانت تجد دائما أنيسا ، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها .
ومن ثم فإن « ديدرو » لم يصد يدري بأى ذنب يتهمنى ،
فجعل من هذا الاحتياط الذى اتخذه (١) ذنبا ، كما اتخذ من
استمرار بقاء السيدة لوفلسير فى (ليرميتراج) ذنبا آخر ،
بالرغم من ان هذا البقاء كان بمحض اختيارها ، وقد ظلت
حرة فى ان تصود إلى باريس لتقيم مهتمة بنفس ما كانت
تتمتع به فى بيتى من مساعدة .

هذا هو بيان اليوم الأول ، الذى ورد فى رسالة « ديدرو »
رقم ٢ . أما أيضا اليوم الثانى ، ففى سياق خطابه رقم ٣٤ :

« لا بد ان الاثيب (٢) قد كتب إليك عن ان ثثة عشرين
شريدا تعسا على الاسوار ، يموتون بردا وجوعا ، ويرتقبون
المليم الذى اعتدت ان تمنحهم إياه . هذه عينه من ثروتنا
البسيطة .. ولو أنك استمعت إلى بقيتها « لوجدت فيها
ما يروك ، كهذه ! » .

وها هو ذا ردى على هذا الجدل البقيض ، الذى بدا وكأن
« ديدرو » كان مزهوا به :

(١) الاحتياط الذى شغل فى انه ترك مدام لوفلسير تكتب ما تشاء ، دون
ان يطلع على خطابها .

(٢) لعب أطلقه جريم على ابن السيدة ديبيناى .

« اعتقد أنني رددت على « الأديب » - أقصد أين ناظر الزراعة العام - بأنني لا أستفق على الفقراء الذين رأهم على الأسوار يرتقبون مليى . وأن من الواضح أنه قد عوضهم عما فقدوا ، وأنتى قد عبقته بديلا عفى ، وأنه ليس لفقراء باريس أن يشتكوا من هذا التغيير . وإننى لا أجد من السهل العثور على بديل آخر ، يصلح لفقراء (مونورنسى) ، الذين هم أشد حاجة ! . . . فهنا شيخ طيب ، ومحترم ، قضى حياته فى العمل . ولم يعد اليوم يقوم عليه ، فهو يموت جوعا إبان شيخوخته . وأن ضميرى لبشعر بارتيساح إزاء قطعنى « السو » اللتين أمنحه إياهما فى يوم الاثنين من كل أسبوع ، يفوق ذاك الارتياح الذى يستشعره إذا أنا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار . انكم لتلهون - يا معشر الفلاسنة - حين تنظرون إلى جميع سكان المدن ، بحسبانهم الوحيدة الذين يطالبكم الواجب بأن تشغلوا بأمرهم . . . إنها يتعلم المرء حب الإنسانية وخدمتها فى الريف ، ولا يتعلم فى المدن سوى ازديانها ! .

* * *

هكذا كانت الموساوس العجيبة ، التى استند إليها رجل ذكى ، منساقا لنزوة حمقاء حملته على أن يجعل - جادا - من بعبادى عن باريس ذنباً وجرمًا ، وعلى أن يحاول أن يبرهن لى بحالى على الاسبيل إلى الإقامة خارج العاصمة ، إلا إذا كان المرء خبيثا ، ولست أدرى اليوم ، كيف كنت من البلامة بحيث رددت عليه ، واستأثت منه ، بدلا من أن يكون جوابى الأوحد ، هو أن أضحك ساخرا ؟! . . . على أن قرارات السيدة ديبيناي ، والفضة التى أثارها عصبة دولباخ ، استولت على

أذهان الناس وغرتهم ، حتى لقد اعتبرت - بوجه عام - مخطئا فى هذه المسألة . . . وحتى أن السيدة دوديتو نفسها - وهى من أشد المعجبات بديدرو - رغبت فى أن أذهب إلى زيارته فى باريس ، وأن أؤدى كل المقدمات لصالح لم يقدر له أن يدوم طويلا ! بالرغم من أنه كان مخلصا وكان من ناحيتى .

وكانت الحجة الموفقة التى استغلتها السيدة دوديتو للتأثير على قلبى، هى أن يدرو كان - فى هذه اللحظة - تأسا شقيا . فألى جانب العاصفة التى ثارت ضد « الموسوعة » ، كان عليه أن يحتل عاصفة أخرى أشد عنفا ، أثارها الكتاب . فبالرغم من المقدمة الصغيرة التى مهد لها به ، اتهم « ديدرو » بأنه قد نقله يأكله عن « جولدونى » . ولقد كان ديدرو أكثر تأثرا وارثياكا بالنقد من مولير . ولقد ذهبت السيدة « دى جرافيني » فى دهائها إلى حد أنها أذاعت شائعة بأننى انتهزت هذه الفرصة لكى أقطع ما كان بينى وبينه . لذلك فقد رأيت أن من الأنصاف والكرم ، أن أظهر نقديش ذلك على الملا ، فذهبت لأقضى يومين فى داره ، وإن لم أقضهما فى صحبته وحده ! . . . وكانت هذه هى رحلتى الثانية إلى باريس، منذ استقر بى المقام فى (ليرمييتاج) . فقد قمت بالرحلة الأولى ، لأبادر بأن أكون إلى جوار « جوفكور » الذى أصيب بنوبة فالج ، لم يقدر له أن يشفى منها تماما . وقد ظللت طيلة مرضه ملازما لمرأسته حتى تجاوز الخطر !

وأحسن ديدرو استقبالى
محو الأخطاء

ذلك . . . وتبادلنا بعض الإيضاحات ، كما كان ثمة داع لها .
ما دامت الإساءات متبادلة . ففى مثل هذه الحال ، لا يكون ثمة
ما ينبغي فعله سوى . . . النسيان ، لاسيما وأنه لم تكن ثمة
دسائس خفية - فيما كنت أعلم على الأمل - كما كانت الحال
مع السيدة ديبيناي . ولقد أطلعنى على مشروع كتابه . « اب
الأسرة » ، فقلت له : « هذا خير دفاع عن « ابن السفاح » :
. . فالزم الصمت ، وامض فى هذا المؤلف بعناية ، ثم طوح به
نجاة فى وجوه أعدائك ، فانه الولد الوحيد . » ولقد فصيل
ذلك . ووجد انها خطوة موفقة !

ولقد أرسلت إليه الجزئين الأولين من « جولى » - قبل
ذلك بستة أشهر - أسأله رأييه فيها . ولم يكن قد قراها
بعد ، فطالعنا شطرا منها معا . وقد وجد انها « قرطوسة » (١) ،
وكان هذا هو التعبير الذى استخدمه ، قاصدا ان الجزئين
كانا مليونين بالكلام المنق ، وبالفكرار والإطالة . وكنت قد
شعرت بذلك ، من تلقاء نفسى ، ولكن ما أوردته فيها كان
هذيان المحمى (٢) . « ولم أكن قد راجعته أو صححته . على أن
الأجزاء الأخيرة ليست على هذا القرار ، لاسيما الرابع
والسادس ، فانها تحفة فى البلاغة .

(١) قرطوسة : مشقة من قرطاس ، هو الورق . . وهو يقصد هنا . ان
المادة كانت حشوا ، أو مجرد تصويد ورق .

(٢) كتب « روسو » الجزئين الأولين من « جولى » ، وقد انتابه الحزن
الى الحب ، لراح يوحى اليه بأخلاق مجومة ، على ما أورد من قبل .

وفى اليوم التالى لوصولى ، رغب - فى إصرار - فى أن
يصطحبنى ل تناول العشاء لدى السيد « دولباخ » راغبا فى أن
افسخ الاتفاق الخاص بأصول كتاب « الكيمياء » ، لأننى كنت
أرى بنفسى أن اكون على التزام نحو هذا الرجل (١) . ولقد
انتصر « ديدرو » على طول الخط ، وانقسم على أن السيد
« دولباخ » كان يكن لى أخلص الود ، وان الواجب يقتضى
أن اغفر له مسلكه الذى يتخذه مع الناس كافة ، والذى يعانى
منه اصداقؤه أكثر مما يعانى سواهم . وصور لى أن رفض
إنتاج هذا الكتاب « بعد أن قبلته منذ عامين » إهانة لصاحب
العرض ، لا يستحق أن يجازى بها . بل إن هذا الرفض قد
يساء تأويله ، فيحمل على محمل اللوم لأنه مكث هذا الأمد
الطويل دون أن يحقق الاتفاق . واستطرد قائلا : « إننى أرى
دولباخ فى كل يوم ، وأعرف حال نفسه أكثر مما تعرفها أنت .
وإذا لم يكن ثمة مجال لك كى ترضى عن هذا العمل ، فانتظر
ان صديقك يقدم على نصحك بأن تحط من قدر نفسك » . وفى
إيجاز ، سمحت لنفسى بأن أسلم له - بكل ما عرف عنى من
ضعف - وذهبتا معا لتناول العشاء مع البارون ، الذى
استقبلنى على مالوف عاذقه . ولكن زوجته تلقتنى بفتور ، بل

(١) يفتد « دولباخ » . ويلاحظ أن « روسو » لم يذكر شيئا من تهل
من « أصول كتاب فى الكيمياء » : ولا عن « الاتفاق » الذى تم بشأن ذلك .
ومن ثم فإن إيراد الأمر على هذه الصورة - « جولى » - هو - وليس
نجد فيها كتب شيئا يلقى مزيدا من الضوء على الموضوع .

وبجفاء غير كريم (١) حتى كدت أنكر فيها «كارولين» اللطيفة ،
التي أظهرت لي - قبل زواجها - كثيرا من آيات النية الطيبة .
وكنيت قد لاحظت - قبل ذلك بزمان طويل - أنني لم أعد زائرا
بمرونا ، مذ أصبح «جريم» ضيفا مستمرا في قصر (اين) .

وبينما كنت في (باريس) ، وفد «سان - لامير» في
إجازة من الجيش . ولما لم أكن قد علمت بذلك ، فأننى لم أره
إلا بعد عودتى إلى الريف ، في (الاشيفريت) أولا ، ثم في
(ليرميستاج) ، حيث أقبل مع السيدة دوديتسو -
واستضافنا نفسيهما للضيءاء . ومن الميسور تصور
مدى الاغتياب الذي استقبلتهما به !.. ولكنى كنت أكثر
اغتيابا لمشاهدة انسجامهما البديع ، وسعدت بدورى . إذ
اطمأننت إلى أنني لم أعكر صفو هئائهما . وبوسعى أن أقسم
على أنني ما كنت - طيلة وجدى الطائش ، بل وفي تلك الآونة
بالبات - لأننى أن أخذ السيدة دوديتو «من «سان -
لامير» ، ولو استطعت إلى ذلك سبيلا .. بل إننى ما كنت
لأشعر بمجرد الرغبة في ذلك !.. فلقد وجدتني جذبة بحب
«سان - لامير» ، مدلهة في هواه ، حتى أنني لم أكد أتصور

(١) ذكر «روسو» في الكرامة الثانية ، نيا موت السيدة دولباخ . ومن
ثم بصر أن فذكر هنا أن البارون دولباخ كان ما يزال في مقتل الشباب .
عندما نزل ، فتزوج ثانية ، وكانت زوجته الجديدة «كارولين» - سو آن
: - «اين» ، وهي أخت زوجته المتوفاة . وقد حصل على ابن بذلك من روما .
ومن هنا نعلم أن قصر (اين) ، الذي ذكر بعد ذلك ، كان من أملاك الزوجة .

أنها تستطيع أن تهيم بى بهذا القدر ، وكان كل ما طمعت
فيه - في بحران الوجد - هو أن تدعى أحبا من ناحيتي ،
دون ما رغبة منى في أن أعكر صفو رابطتهما !.. وقصارى
القول أننى - برقم عنف الصبابة التي كانت تلهمنى بغيراتها -
وجدت متعة في أن أكون موضع ثقة هذه السيدة ، لا تقل عن
المتعة التي كنت خليقا بأن أستشعرها إذا كنت هدف حبا .
ولم أنظر إلى عاشقتها لحظة على أنه غريم أو مزاحم ، وإنما
فللت - على الدوام - أنظر إليه كصديق . ولقد يقال إن هذا
لم يكن بعد غراما حقيقيا ، فليكن !.. لقد كان أكثر من الغرام !

أما «سان - لامير» . فقد كان تصرفه تصرف الرجل
الكريم . الرزين . ولما كنت المذنب الوحيد ، فأننى كذلك كنت
الجدير بالعقاب ، وكان عقابي مشويا بالتسامح . فقد علمنى
«سان - لامير» في خشونة ، ولكن في ود . واستطعت أن
المح أنني قد فقدت بعض تقديره . ولكنى لم أفقد شيئا البتة
من صداقته . فتعزيت بذلك ، موقنا من أن استعادة الأول ،
أسهل بكثير من استعادة الثانية .. ومبركا أنه كان أعقل
واحكم من أن ينقم على ضعف لا إرادى ، وطارىء ، ومنبعث
عن عيب طبيعى ، وإذا كانت ثمة أخطاء من ناحيتي - في كل
ما جرى - فأنهما كانت طفيفة . فأنما الذى سسى إلى
عشيقته ؟.. ألم يكن هو الذى أرسلها إلى ؟.. ألم تكن هي
التي جاءتني ؟ فهل كان بوسعى أن أمتنع عن استقبالها ؟..
ما الذى كنت أملك أن أفعله ؟.. فأنهما معا سمى «سان - لامير»
مكن من معذب سوى !

ولو أن « سان - لامير » كان في مكاني ، لفعل عين ما فعلت ، بل ربما أسوأ مما فعلت !.. ذلك لأن السيدة دوديتو - برغم وفائدها ، وبرغم جدارتها بالاحترام - كانت امرأة !.. ولقد كان هو كثير التغيب . فكانت الفرص موفورة ، والمغريات شديدة . وكان من الشاق حقا أن تدود دائما عن نفسها ضد أي عاشق أكثر جرأة ، بعين التفريق الذي صدقني به . ويقينا أنه كان من الكثير - الذي ينبغي أن يذكر لنا ، هي وأنا - أن استظمنا في ظروف كهذه - أن نضع حدودا ، لم نسمح لأنفسينا قط بتخطيها !

ومع أنني كنت أستطيع أن استخلص من أعماق قلبي شهادة كريمة في صالحى . إلا أن المظاهر كانت ضدى . حتى أن الشعور بالخجل الطاغى - الذى كان يسيطر على دواي - خلع على ، في حضور « سان - لامير » ، مظهر الخنز ، فأكثر هو من استغلاله لإذلالى . وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل . فلقد قرأت عليه - عقب الفداء - الرسالة التى كنت قد كتبتها لولثير ، قبل عام ، والذى سمع بأمرها . وإذا به يستسلم للعنان ، بينما كنت أقرؤها . وبعد أن كنت نخورا ، إذا بى أغدو غيبا ، فلا أجزؤ على أن أقطع القراءة . ومن ثم فقد استرسلت فيها ، بينما استرسل هو في الخطيط !.. وهكذا انزلت نفسى .. وهكذا كان ثاره لنفسه .. غير أن كرم نفسه لم يكن يخوله أن يمارس هذه الأساليب ، إلا غيما بيننا نحن الثلاثة !

وبعد أن رحل « سان - لامير » ثانية ، ألقت السيدة دوديتو قد تغيرت إزائى تغيرا شديدا . وقد ذهلت لهذا ، وكأنه لم يكن خليقا بى أن أتوقعه . وتأثرت به أكثر مما كان ينبغي ، مما سبب لى كثيرا من الآلام والقباح . .. وكأنها كل شيء مما توقعت أن يبرئنى ، كان يزيد من تغفل السهم في قلبي .. ذلك السهم الذى أصبحت - في النهاية - أؤثر أن أكسره ، عن أن أنزع !

وعقدت العزم على أن أقهر نفسى تماما ، والا أدع شيئا إلا فعلته لكى أحول مصابى الرعناء إلى صداقة طاهرة ، باقية . وعلى ضوء هذه الغاية ، رسمت أروع الخطط في الحياة ، ولم يكن يعوزنى في تنفيذها سوى معونة السيدة دوديتو . فلما حاولت أن أحدها عنها ، وجدها شاردة البال ، مضطربة الخاطر ، فشعرت بانها لم تعد تحس بأية لذة في صحبتى ! وتبينت بجلاء أن شيئا ما قد جرى ، وأنها لم تكن راغبة في أن تبتلى به . وما قدر لى قط أن أعرفه . ولقد عذبنى أسمى العذاب ، هذا التغير الذى عجزت عن أن أصل إلى إيضاح له . وسألتنى أن أرد إليها خطاباتها ، فرددتها جميعا . بأمانة جرح كرامتى أن السيدة أرقبت فيها لحظة !.. وكان هذا الارتياح طعنة أخرى أصابتنى ، كما لا بد أن تكون قد أدركت . وقد انصغفتى وموضتتى ، ولكنها لم تفعل ذلك نورا . فقد أدركت أن فحص حزمة الرسائل التى أسلمتها ليما ، جعلها تظن لى ظلمها . بل إننى استطعت أن أرى أنها قد أنبت نفسها على ذلك . وهكذا فى تلك المسيلة التعويض .

وما كان لها ان تأخذ رسائلها دون ان تعيد إلى رسائلي ..
وقالت لى إنها أحرقتها ، فجزوت بدورى على أن أرتاب في
ذلك ، كما ينبغي أن أعترف . لا .. إن المرء لا يلقى بمثل هذه
الخطابات إلى النار . لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة
في قصة « جولى » ، فيا لله ..! ما الذى قيل عن ذلك ؟ .. لا ،
لا .. إن المرأة التى أوتيت القدرة على أن توقد كل هذا
الوجد ، لا يمكن أن تواتيها الشجاعة قط على أن تحرق أدلة
وجوده . ولكننى مع ذلك لم أكن أخشى أن تسيء استغلالها ،
نما كنت لأؤمن بأنها قادرة على ذلك . كما أننى كنت قد اتخذت
القدابير للحيلولة دون ذلك ..! ذلك ان الخوف الأحمق ،
والمحترم في الوقت ذاته « من أن أتعرض للسخرية ، جعلنى
على أن أبدا هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلى في مأمن من
ان تذاع . ولقد ذهبت في ذلك إلى حد الإسراف في الالفة التى
كنت قد انتهجتها في نشوتي « فرحت أخاطبها بصيغة المفرد .
ولكنى حرصت في ذلك على ألا أنجرح هذه الالفة كرامتها .
ومع أنها شكت مرارا من ذلك ، إلا أنها لم توفق إلى حملى
على العدول .. ولم تؤد شكواها إلا إلى إيقاف هواجسى ، فضلا
عن أننى لم أمتطع أن أحمل نفسى على التراجع . ولو أن هذه
الرسائل كانت موجودة ، وقدر لها يوما أن ترى الضوء ،
لعرف الناس كيف أحببت ! (١)

(١) رغبته المسددة برومان ، التى كانت تقيم على مقربة من (أوبون) ،

في أن تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل : تلك المسددة بروسو يوما من
الأمم ، لمجبتها هذه بأنها قد أحرقته فعلا . أما هذا رسالته واحدة ، لم



وسألتنى أن أود إليها خطابتي ، فرددتها جيباً ، بأمانة جرح كرامتى أنا السيدة

أوقات فيبى لحظة : ..

ولقد أدى الألم الذي أحدثه متور السيدة دوديتو ، واليقين من اننى كنت استحقته ، إلى أن أنهج منهاجا عجيبا ، إذ شكوت منه إلى « سان - لاميير » نفسه !.. وفى انتظار نتيجة خطاى بهذا الصدد ، أغرقت نفسى فى الشواغل التى لم يكن ثمة بد من أن أسارع بالبحث عنها ، فلقد أقيمت فى (الاشيفريت) بعض حفلات ، وضعت الموسيقى التى عزمتم فيها . وحفز نشاطى على ذلك ، تلك المنفعة التى تمتثلها إذ أرفع من قدر نفسى فى عيني السيدة دوديتو « بعرض الموهبة التى كانت تغرم بها . وساعد ظرف آخر على إنكفاء نشاطى . وهو رغبتى فى أن أظهر للملا أن مؤلف « عراف القرية » كان على دراية بالموسيقى . إذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة ، أن ثمة من كان يعمل فى الخفاء على ذر الريب حول ذلك « فيما يختص بالتأليف الموسيقى على الأمل !.. ولقد كان أول ظهورى فى باريس . والاختبارات التى تعرضت لها فى مناسبات مختلفة فى دارى السيدة دوبان والسيد ديلابولينيير ، والقدر الذى ألقته به الموسيقى خلال أربع عشرة سنة - وسط أعظم أهل الفن شهرة ، وتحت أبصارهم - ثم أوبرا «عرائس الشعر اللطاف» ،

نوت القدحامة على حرفها لأنها كانت قطعة من البلافة والغرام المشبوب .. وقد أسلمتها إلى السيد دى « سان - لاميير » . هذا ما فكره السيد دى موسيه - فى كتبه له بمتوان : « حكايات للفتيقوب على مذكرات السيدة ديبيناي » - عن شهادة السيدة اليكونة دالار ، التى عاشت فى ود وثيق مع السيدة دوديتو ، زهاء ثلاثة عشر عاما .

بل وأوبرا « العراف » ، وأغنية كتيبتها للآنسة فيل وغنتها بنفسها فى حفلات «الموسيقى الروحية» ، والمناقشات العديدة التى دارت بينى وبين كبار الأساتذة ، من هذا الفن الجميل .. كل هذه البراهين كانت جديرة بأن تمنع ، أو بأن تسدد أية شكوك من هذا القبيل . ولكنها - مع ذلك - كانت موجودة . حتى فى (الاشيفريت) ، فقد رايت أن السيد ديبيناي لم يكن بمنجى منها !.. وبدون أن أظهر انفى كنت أنظر إلى ذلك ، عكفت على تلحين أنشودة من أجله ، لقدشين كنيسة (الاشيفريت) ، وسألته أن يردنى بالكلمات التى ينتقها لها بنفسه . فعهد إلى دى لينان ، مربي ابنه ، بأن يكتبها . وقد ألف دى لينان بضعة أبيات تناسب المقام ، وبعد ثمانية أيام من موافاتى بها ، كانت الأنشودة معدة .

وفى هذه المرة ، كان الفيظ هو ملهى ، فلم تخرج من بين يدي يوما موسيقى أجزل من هذه !.. وقد بدأت أبياتها بهذه الكلمات اللاتينية : *Ecce sedes hic Tonantis* (١) . وكانت روعة المقدمة الموسيقية ، تتمثل فى مجازاة الكلمات ، وكانت أنشودة بأسرها من البهاء بحيث بهت كل امرئ إعجابا !.. وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيعة كبيرة ، وقد حشد ديبيناي حير العازمين . وتولت السيدة بروننا - وهى مغنية إيطالية - إلقاء الأنشودة ، وكان العزف رائعا فى

(١) أضاف « روسو » إلى هذا نعتيا فيه : علمت فيما بعد ، أن هذه الكلمات كانت من نظم « دى سانتون » لجان نسيها إلى نفسه !

مصاحبتها . وقد نجحت الأنثى سودة نجاحا باهرا . حتى أنها
القيت بعد ذلك في حفلات « الموسيقى الروحية » ، حيث لقيت
نفس الإعجاب مرتين ، وبالرغم من الدسائس الخفية ومن سوء
الإخراج . . . كذلك اقترحت - بمناسبة عيد ميلاد السيد
ديبيناى - قطعة غنائية صنفها تمثيل عادي ، ونمونها تمثيل
صامت « بالإيماء » . وقد تولت السيدة ديبيناى تأليف الكلام ،
وتوليت أنا تأليف الموسيقى . ولقد سمع « جريم » - عند
وصوله - بانتصاراتي الموسيقية ، ولم تنقش ساعة ، حتى
لم يعد ثمة حديث عنها ، ولكن لم يعد ثمة ريب - على الأقل -
في أنني كنت أعرف التلحين وأحفظه !

وما إن استقر « جريم » في (لاشيفريت) ، حيث كنت
لا أشعر بكثير من الانسراح . حتى أفلح في أن يجعل بقائى
هناك أمرا لا يطاق ، وذلك بتصرفات لم أرها تبدي من أحد قط
قبل ذلك ، ولا كانت تخطر لى على بال . ففي اليوم السابق
على وصوله ، نقلت من أفضل غرف الضيوف - وهى التى
كانت تجاور مخدع السيدة ديبيناى - ليجتليها جريم ، بينما
أفردت لى غرفة أخرى ، في أقصى أطراف الدار . وقد ظلت
للسيدة ديبيناى ضاحكا : « ألا انظرى كيف يطرد الوافدون
الجدد ، النزلاء القدامى ! » ، فبدأ عليها الارتباك . . . وقد
نهمت السر في ذلك بجلاء ، في ذلك المساء ، حين علمت أن ثمة
بابا خفيا بين مخدعها والمخدع الذى فارقته ، وأنها لم تكن
قد رأت جدوى من اطلاعى عليه . ولم تكن علاقاتها بجريم
سرا على أحد « سواء في قصرها ، أو في المجتمع ، بل ولا على

زوجها نفسه . . . ومع ذلك فانها بدلا من أن تاتمنى عليها .
أصرت على إنكارها ، ورغم أنني كنت الأمين على أسرار تفوقها
قيمة ، وكانت هى تدرك أن هذه الأسرار بمأمن لدى . ولقد
أدركت أن التحفظ كان راجعا إلى « جريم » الذى لم يكن راغبا
في أن تكون في حوزنى أية أسرار تمسه ، ورغم أنه كان
يستودع أسرارى جيما !

وشغمت له عواطفى القديمة - التى لم تكن قد خدمت -
وكثافته الحقبة . بيد أنها لم تستطع أن تصمد أمام العناية التى
راح يبذلها لى يهدمها . . . فقد كان سلوكه إزائى ، شبيها
بسلوك الكونت دى توفبير (١) ، حتى أنه لم يكذب ويكرم بـرد
تحيتى حينما استقبلنى ، لا ولم يوجه إلى كلمة واحدة ،
وسرعان ما أعفانى من أن أحاطبه . إذ لم يحاول أن يوجه إلى
ما أجيب عنه البتة . وكان يتقدمنى في أى مكان ، دون أن
يحاول قط أن يحفل بى . ولقد كان يوسعى أن أتجاوز عن
هذا ، لولا أنه أبدى حرصا على جرح كرامتى ، ويكفى أن
أسوق واقعة واحدة من ألف ، ليستنى الحكم على ذلك . .
ففى ذات مساء . شعرت السيدة ديبيناى بتوكل بسيط ،
طلبت إلى الخدم أن يحملوا إليها بعض الطعام في مخدعها
بالبابق الملوى ، حيث اعترضت أن تتناول العشاء إلى جانب
المخافة . ودعتنى إلى الصعود معها إلى المخدع « فلبيت .
وما لبث « جريم » أن أقبل بعد ذلك .

(١) شخصية في إحدى المسرحيات الشهيرة . هو « جريه » . « الطمرون » من
تأليف « ديوتش » . . . وقد ظهرت في سنة ١٧٧٦ .

وكانت المائدة الصغيرة قد أعدت ، بحيث لا تنضم سوى شخصين ، وأحضر الطعام ، فالتفت السيدة ديبيناي مجلسها إلى أحد جانبي المدفأة . وأستولى السيد « جريم » على مقعد وثير ، فاستقر فيه ، إلى الجانب الآخر . وجرت المائدة فجعلها بينهما ، ونشر المنشفة « وشرع في الأكل » دون أن ينبس ببنت شفة لى ! . وتفرج وجه السيدة ديبيناي خجلا ، ولكي تحمله على أن يعتذر عن تصرفه القابى . عرضت على مكانها . وأم يقل « جريم » شيئا ولا هو تطلع نحوى . ولما لم يكن لى من سبيل كي اقترب من المدفأة ، فقد قررت أن أذرع الحجرة ، ريثما يحضرون لى أدوات للمائدة . وتركتى أتناول عشائى فى طرف المائدة بعيدا عن النار ، دون أن يبدى انه اعتذار لى وقد كنت أكبره سنا ، وكنت معلولا ، وكنت صديقا قديما للأسرة وقد قدحته بنفسى إليها ، فكان خليقا به أن يكرمنى لذلك ، لاسيما وهو الأثير لدى السيدة ! . وكانت كل تصرفاته معى تشبه كثيرا هذا النموذج . فقد كان يعاملنى وكأننى أقل منه شأنًا حقًا ، وكان يعتبرنى كما لو أننى لم أكن شيئا بذكر !

وكان من العسير على أن أعرف فيه « خاتم المدوسة » الذى التحق بخدمة الأمير « ساكس - جوتا » ، والذى كان يرى فى احتقائى به شرفا وتكريما ! . ووجدت عناء أشد ، فى أن ألتق بين هذا الصمت العميق ، وهذا الترفع المهين ، وبين تلك الصداقة اللطيفة التى كان يتظاهر بأنه يكنها لى . أمام أولئك الذين كان يعرف انهم يولوس . إياها فعلا ! . ومن الصحيح انه لم يكن بيدى شيئا اللهم إلا ليرثى لحالى - التى لم أكن

أشكو منها على الإطلاق ! - وبشفق على حظى المحزن - الذى كنت قريبا به ! - ولينمى على أننى كنت أرفض فى مفاظلة اللفتات الكريمة ، التى كان يعلن أنه مشسوق إلى إظهارها نحوى ! . وبفضل هذا الدهاء استطاع أن يحل القوم على أن يعجبوا بعطفه الكريم ، وعلى أن يعتبوا على نفورى الجاحد . كما استطاع أن يوهم الناس أجمعين - دون أن يفتنوا - . بالا يتصوروا أن تقوم بين راع شسهم مثله - وتعى شقى مثلى ، روابط غير روابط الاحسان من أحد الطرفين ، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر . دون أن يخطر ببالهم - ولو على قبيل الاحتمال - أن هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين !

وعبثا حاولت - من ناحيتى - أن اتبين أى اعتبار يخصمنى لى التزام إزاء هذا الراعى الجديد . فلقد أقرضته نقودا ، ولكنه لم يقرضنى شيئا البتة . ولقد سهرت عليه فى مرضه ، ولم يكده هو بعودنى فى مرات سقائى . ولقد عرفته بكل أصدقائى ، ولكنه لم يعرفنى يوما بواحد من أصدقائه . ولقد أطربته بكل جهدى ، أما هو . . إذا كان قد أطربنى يوما ، فليما فعل فى أضيق نطاق من العلانية ، وبطريقة أخرى ! . وما أدبى لى يوما - بل ولم يعرض استعداده لأداء - خدمة من أى نوع ، فكيف إذن كان الراعى الذى غمرنى بعطفه . . وكيف كنت الأثير المعتمد على رعايته . . لقد كان هذا - وما يزال - فوق إدراكى !

ومن الصحيح - إلى حد ما ، خيرا أو شرا - انه

كان شرسا مع كل الناس ، ولكنه لم يذهب في شراسته إلى درجة الضراوة مع سواي .. وإنني لأفكر أن « سان - لامير » أوشك - ذات مرة - أن يطوح يطبق الطعام إلى راس « جريم » ، إذ تجرأ على أن يكتبه جهرا على المائدة ، قائلا في قحة : « هذا غير صحيح ! » . وكان يقرن لهجته الساخرة - بطبيعتها - بعجرفة الشخص الحديث العهد بالنعمة .. بل أنه أصبح موضع استهجان ، بفضل سفاخته .. فقد اغراء اختلاطه بكبار القوم على أن يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على أنها معقولة « حتى بين هؤلاء القوم !

ولم يكن ينادى خادمه إلا بكلمة « آيه ! » ، وكان السيد الجليل الشأن قد أوتي مددا كبيرا من الخدم ، فهو لا يدرى أيهم المنوب بخدمته ! .. وإذا منحه عطاء كان يلقي به على الأرض ، بدلا من أن يفسد في يده . وقصارى القول أنه كان ينسى أن الخادم إنسان ، فكان يوسمه إزدراء وقسوة - في كل مناسبة - بدرجة تثير النفس ، حتى أن الفتى - وكان من خيرة الخدم ، وقد نزلت له عنة السيدة ديبيناي - لم يلبث أن ترك خدمته دون ما شكوى ، سوى عدم احتماله هذه المعاملة ! .. فكان على شاكلة « لافير » في مسرحية « المظفرون » الفكهة !

ولقد كان يلبد الذهن بقدر ما كان مغرورا ، وكان يخال أنه - بعينيه الكبيرتين اللقيبتين ، ووجهه المترمل - ذو حظوة عظيمة لدى السيدات ، فان عددا من أفراد الجنس اللطيف

اعتبرته - بعد تمثيلية الأنسة فيل الخرافية (١) - رجلا ذا عواطف مشبوبة .

وقد اذاع ذلك صيته في المجتمع ، واكسبه ميلا إلى اناقة النساء ، فراح يتجمل ، وأصبحت زينته عملية خطيرة ، وكان الناس جميعا يعرفون أنه يستخدم المساحيق والمعاجين .. اما أنا فلم أكن اعتقد ذلك ، ولستكني لم البث أن بدأت أصدقه ، لا لجمال بشرته ، ولا لجرود أنني كنت أجد أواني المعاجين على مائدة زينته ، وإنما لأنني وجدته - إذ ولجت مخدعه ذات صباح - منهكا في تنظيف أظفاره بفرجون صغير صنع لهذه الغاية ! .. وهى عملية واصل أداءها أمامي مزهوا . وحسبت أن الرجل الذى يقضى ساعتين من كل صباح في تنظيف أظفاره « لا يضر ببضع دقائق لكى يملأ تجاعيد جلده بالمعاجين ! .. لقد أطلق عليه « جوفكور » الطبيب - الذى لم يكن غيبا - اسم « تيران الأبيض » ، على سبيل الدعابة والهزء !

ولم تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة ، ولكنها كانت تخالف أخلاقي ، وقد انتهت بأن حملتنى على الشك في أخلاقه ، فأتيت لا أكاد أصق أن رجلا استولت على رأسه النزوات ، يملك لقلبه قيادا في الطريق السوى . ولقد كان يفخر بحساسية

(١) كان « جريم » قد أحب الأنسة « فيل » - دون أن يأنله هى الحب - فقامت غيبوبة محبة ، روى « روسو » تمثيلية « الأنسة فيل » بين ١٦٠٥ و ١٦٠٦ .
www.dvd4arab.com
الجزء الثالث .

روحه وعنفوان مشاعره . أكثر مما يفخر بأى شيء أخسر . فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التى لا تلصق بغير ذوى العقول الصغيرة ؟ . وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصلة ، التى تخلق بها مشاعر القلب الحساس - خارج نطاق هذا القلب - أن يشغل بالله باهور تافهة تتعلق بشخصه الضئيل ؟ . آه ، يا إلهى ! . إن الذى يشعر أن فؤاده يتكوى بهذه أنوار السماوية ، يسعى عادة إلى أن ينفثها خارجه ، وإلى أن يكشف دخيلة نفسه . إنه يتلهف إلى أن يعرض قلبه على أسرار وجهه ، ولا يفكر قط فى أية معاجين ، أو أية زينة لهذا الوجه !

ولقد تذكرت خلاصة فلسفته الخلقية ، كما أتيتنى بها السيدة ديبيناى ، التى كانت قد انتهجتها . وهذه الخلاصة تضم مبدأ واحدا . . ذلك هو أن الواجب الأوحد للإنسان ، هو أن يسير وراء نوازع قلبه ، فى كل شيء ! . ولقد أمدنى هذا القانون الخلقى - حين سمعت به - بمادة بغيفية للتفكير ، برغم أننى لم اعتبره - فى ذلك الوقت - أكثر من فكاهة . . على أننى سرعان ما تبين أن هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل فعلا ، ولم أزد - فيها بعد - إلا تثبتا من ذلك ، وإن جاء الدليل على حسابى أنا ! . . كان ذلك هو المذهب الباطنى ، الذى كثيرا ما حقتنى عنسه فبدرو ، وإن لم يعمد قط إلى الإيضاح والشرح .

وتذكرت كذلك الانذارات العديدة التى تلقيتها - قبل ذلك بسنوات - لتنبهى إلى أن ذلك الرجل كان غشاشا ، وأنه كان يعبث بالمشاعر ، دون أن تكون لديه عواطف ما ، بوجه خاص .

واستمرضت عدة وقائع صغيرة ، كان السيد دى فرانكوى والسيدة دى شينونسو قد ذكراها لى بهذا الصدد . . فما كان أى منهما لبولييه اعتبارا ، ولا بد أنهما كانا على دارية طيبة به ، إذ أن السيدة دى شينونسو ، كانت ابنة السيد دى روشبشوار . الصديقة الحبيبة للمرحوم الكونت دى فريز . . كما أن السيد دى فرانكوى - الذى كان وثيق الصلة بالفيكونت دى بولينيك فى تلك الفترة - كان كثير التردد على القصر الملكى ، فى عين الوقت الذى سمع لجريم فيه بدخوله . ولقد عرفت باريس بأسرها نبا اليأس الذى استولى عليه عقب وفاة الكونت دى فريز . وكان همه الأكبر هو الاحتفاظ بالميت الذى اكتسبه ، بعد المعاملة القاسية التى لقيها من الأنسة فيل ، والذى كان من الخلق بى أن أكون أقدر الناس على كشف زيف الضجة التى ترتبت عليها ، لو اتنى كنت أقل عسى وغفلة ! . . كان لابد من جره إلى قصر دى كاسترى ، حيث أدى دوره بهارة مصطنعا أقوى وجد فتاك . وكان فى كل صباح يسمى إلى الحديقة ، لييكى ما شاء له البكاء ، ممسكا أمام عينيه بتفديل مبتل بالدموع ، طالما كان على مشهد من القصر . وما أن يخرج مع اتحناء الطريق ، إلى شارع ضيق ، حتى يدس المنديل فى جيبه بعد أن يخرج من هذا كتابا ، على مآراه أشخاص لم يكن لديه أى ظن عن أنهم كانوا يشاهدونه !

لقد روى - وهو يفعل ذلك - أكثر من مرة ، وسرعان ما أصبح النبا مشاعرا فى باريس ، والتفهم منه . . حتى أنا نفسي ، ولكن مسألة حبس جانكيت فى سجن به .

فلقد كنت طريح الفراش ، على اعتاب الموت ، في المسكن الذي كنت أتخذه في شارع (دى جرينيل) ، بينما كان هو في الريف . وفي ذات يوم ، أقبل ليمودنى ، وهو لاهث الانفاس . وقال ليته قد وصل لتوه من ريفه . وإن هي إلا دقيقة ، حتى علمت انه وصل في اليوم السابق ، وانه شوهد في المسرح ، في اليوم ذاته !

ولقد عاودتني ألف من هذه الوقائع الصغيرة ، ولكن اشد ما أذهلني « تبطل في شيء دهشت لأنني لم أظن إليه من قبل . ذلك أنني كنت قد قدمت « جريم » إلى جميع أصدقائي ، دون استثناء ، فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعا أصدقاء له . وكنت لا أكاد انفصل عنه ، حتى لقد بات من المعتز أن أواصل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله . ولم يرفض زيارته سوى السيدة دى كريكى ، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعا يكاد يكون تاما . . . ولقد تعرف جريم - من ناحيته - على أصدقاء آخرين ، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه ، أو عن طريق الكونت دى فريز . ولم يقدر لأحد من أصدقائه جميعا أن يغزو صديقا لي ، كما انه لم ينف بكلمة واحدة لحظي على التعرف بهم ، على الأقل . . . وما اظهر لي واحد من كل أولئك الذين كنت ألتقي بهم في مسكنه احبانا ، أية نية حسنة . . . ولا الكونت دى فريز الذي كان جريم يقيم لديه - والذي كان يسرني أن أوثق الصلات معه - ولا الكونت دى شومبيرج ، قريبه الذي كانت العلاقة بيه وبين جريم تنوق الود الوثيق ! وهناك ما يفوق ذلك . . . فان أصدقائي الأصليين ، الذين

جعلت منهم أصدقاء له - والذين كانوا على صلات وثيقة معي قبل هذا التعارف - لم يلبثوا أن تغيروا نحوى بعده . . . ابدا لم يقدم لي احدا من أصدقائه ، وإن كنت قد قدمت إليه كل أصدقائي . . . ومع ذلك فانه انتهى إلى أن حرمني منهم جميعا . فاذا كانت هذه هي نتائج الصداقة « فما هي نتائج البغضاء ؟

ولقد حزنني « ديدرو » مرات عدة - منذ البداية - من أن « جريم » الذي أوليته كل هذه الثقة ، لم يكن صديقا لي . وما لبث أن بدل لهجته ، عندما كف عن أن يكون صديقا لي ، هو الآخر !



ولم تتطلب الطريقة التي تصرفت في أولادى بمقتضاها ، معونة من أحد . ومع ذلك فقد أطلعت عليها أصدقائي « لاجرد اطلاعهم ، حتى لا أبوء في أعينهم بأفضل مما كنت ، وكان هؤلاء الأصدقاء ثلاثة : محاسب : ديدرو ، وجريم ، والسيدة ديبيناي . ولقد كان « ديكلو » - وهو أجدر أصدقائي بثقتي - الوحيد الذي لم أتنبه . ومع ذلك فانه عرف بالأمر . . . من لا . . . لست أدري . ومن المقصود احتمال أن تكون السيدة ديبيناي هي الذنب بخيانة الثقة - في هذه المرة - لأنها كانت تعلم خير العام ، أنني إذا حذوت حذوها - لو أنني كنت قادرا على مثل هذا العمل - لثارت لنفسى بقسوة . . . وبيتى بعد ذلك جريم وديدرو ، اللذان كانا - في ذلك الوقت - وشقي الارتباط في كثير من الأمور ، لا سيما ما يكون بها ضدى . . . ومن ثم ففك أكثر من مجرد الاعمال مأثمة بالظن بها . . .

وأراهن على أن «ديكلو» — الذى لم أكتشفه بسرى ، والذى لم يكن مضطرا لذلك إلى الصمت — كان هو الوحيد الذى لم يشئ بهذا السر !

ولقد بذل جريم وديدرو — فى محاولتهما لإقصاء «المريبتين» عنى — جهدا لاستدراج «ديكلو» إلى المساهمة فى خطتهما . ولكنه كان يرفض دائما فى إزهراء . ولم يحدث إلا فيما بعد أن علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد . ولكننى كنت إذ ذاك قد عرفت من تيريز ما كان كافيا لأن أبصر فى المسألة كلها غاية خفية ، وأنها كانتا مشوقين إلى أن يتخلصا منى ، دون أن أفطن — على الأقل — إن لم يكن بالرغم منى . . أو أنهما — على الأرجح — كانا يبغيان أن يستغلا هاتين المراتين كادائين فى خطة سرية . ولقد كان فى كل ذلك شيء غير شريف ، حقا . وهذا ما تدل عليه معارضة «ديكلو» ، دون نزاع ، فلير من يشاء فى هذا صداقة أو ودا !

لقد كانت هذه الصداقة المزعومة خطرة على حياتى الداخلية ، كما كان شأنها على حياتى الخارجية . فان الأحاديث الطويلة ، والمديدة ، مع السيدة لوماسير — لعدة سنوات قبل ذلك — قد بدلت من مشاعر هذه المرأة نحوى ، بدرجة ملموسة . . ومن المحقق أن هذا التبدل لم يكن فى صالحى . فماذا كان موضوع الحديث — إذن — خلال هذه الخلوات العجيبة . . وما السر فى هذا الفيوض العميق ؟ . وهل كان حديث هذه المرأة العجوز مستحبا إلى درجة اعتباره نعمة . أو مهما إلى درجة تدعو إلى فرض مثل هذا الفيوض حوله . .

لقد بدت لى هذه الاجتماعات مضحكة ، خلال السنوات الثلاث أو الأربع التى دامت ، ولكنى عندما تدبرتها ، بدأت أعجب منها . وكان هذا الشعور بالمعجب كهيلا بأن ينتهى إلى عدم الارتياح ، لو اتنى عرفت — إذ ذاك — ما كانت هذه المرأة تتآمر عليه ضدى .

وعلى قدر ما كان جريم ينظر به من تحمس من أجلى — كان يظن به فى المجتمع ، وكان من العسير أن يتفق مع المسلك الذى راح يسلكه نحوى بالذات — فأتنى لم أكسب شيئا من هذا التحمس ، من أية ناحية . . بل إن الإشفاق الذى كان ينظر به نحوى ، أدى إلى الحط من قدرى أكثر مما أدى إلى نفى . بل إنه — بقدر ما كان يملك — قد جردنى من أرباح المهنة التى اخترتها لنفسى ، إذ راح يعلن اتنى لم أكن أقتن النسخ . وأقر أنه كائن صادقا فى قوله ، غير أنه لم يكن مما يليق به أن يقوله . وقد أبيت أنه لم يكن مازحسا ، إذ أنه استخدم ناسخا غبرى ، ولم يدع لى عميلا كان يستطيع إليه وصولا « حتى ليجوز أن يقال إن غايته كانت تتشبه فى أن يجملى عالة عليه وعلى اهتمامه بأن يكفلنى وذلك بأن يستند مواردى ، حتى انحدر إلى مثل هذه الحال !

أما وقد الممت بكل هذا ، فقد باهر عظمى إلى فرض الصمت على آرائى السابقة فى جريم ، وهى الآراء التى كنت قد ظلت أردها — لصالحه — حتى ذاك الجين . ورأيت أن أخلاقه كانت جد مشيرة للشبهات ، على الأقل . أما جريم ومصادقه ، فنفس قطعت بأنهما زائغان . وإذا عقدت للمهرم

أراه ثانية « فقد بادرت إلى إثبات السيدة ديبيناي بذلك ، وعززت قرارى بعدة مبررات لا سبيل إلى ردها ، وإن كنت قد نسيتها الآن !

ولقد عارضت السيدة ديبيناي هذا العزم بقسدة ، دون أن تدري تماما ما ترد به على الحجج التي أقرت رأيى . ولم تكن قد شاورته في الأمر بعد ، ولكنها بدلا من أن تنصح عن موقفها شفويا إلى ، أرسلت - في اليوم التالي - خطابا صيغ ببراعة اشتركا فيها معا ، وقد التمسيت لجريم فيه العذر - دون خوض في تفاصيل أى شيء - استنادا إلى طبعه المنطوية ، واعتبرته جرما أن اتهمه بخيانة صديقه « وحضنتى على أن أصلح ما بيننا . ولقد زعزع خطابها عزمى ! .. وفى حديث دار بيننا بعد ذلك - وجدتها خلالاه أحسن استعدادا منها في المرة الأولى - ارتضيت أن انهزم ، ولملت إلى الاعتقاد بأننى ربما كنت قد أسأت الحكم ، وأننى - في هذه الحال - قد أخطأت فعلا في حق صديق ، أشنع خطا ، مما كان يلزمنى بإصلاح ذات البين - وبالإيجاز ، فعلت في هذه المرة - ما فعلته عدة مرات من قبل إزاء ديدرو والبارون دولباخ .. وأقدمت طواعية - من ناحية - وبدافع من ضمى ، من ناحية أخرى - على كل هذه المساعي ، التي كان على أن انقلها : نذهبت - كجورج داندان آخر (١) - - لزيارة جريم ، كى أعقر له عن

(١) جورج داندان ، إحدى شخصيات مسرحية موليير المكية و الزواج الفخول ، وقد كان داندان غلاما تزوج من امرأة من بنات الأسرات العريقة ذات الجاه .

الإهانات التي ارتكبتها هو ضدى ، إذ كنت منساقا دائما للاعتقاد الخاطيء ، الذى عرضنى طيلة عمرى لألف صغار وضعة أمام اصحقائى المزعومين .. الاعتقاد بأنه ما من بقضاء تصل في قوتها إلى درجة يستعصى معها على اللطف وحسن التصرف أن يغلبها .. في حين أن الأمر على النقيض ، فإن كراهية الخبثاء إنما تقوى وتشتد بفضل استحالة العثور على ما يبررها ، كما أن شعورهم بظنوبهم لا يؤدي إلا إلى زيادة حقدهم على ضحيتهم !

وعندى - بدون خروج عن سياق قصتى - دليل جد قوى على هذه النظرية ، يتمثل في تصرف جريم وتروثنشان ، اللذين صارا الدعوتين لى ، من ميل ، وعن لذة ، وعن نزوة ، دون أن يملكا قط أن يفكرا واقعة واحدة - من أى نوع كانت - أكون قد آذيت بها أيا منهما .. وكان هياجهما - كهياج النمر - يزداد يوما بعد يوم ، نظرا للسهولة التي كانا يستمرئانه بها !

ولقد توقعت أن يستحق جريم من تفازلى ، ومن مسامى للصلح ، فينقلانى بذراعين مفتوحتين ، وبارق العواطف . ولكنه - في الواقع - استقبلنى وكأنه إمبراطور روماني .. في نزع لا مثيل له . ولم أكن ، على استعداد إطلاقا لهذا الاستقبال . وإذا ارتبكت لاضطرارى إلى أن أؤدى دورا كهذا لا يلائمنى ، أوضحت غرض زيارتى في بضع كلمات مترددة . وقبل أن يتقبلنى في جلسة رضاه ، راح يلقي - في كثير من التعاطف - حديثا طويلا ، كان قد أعده من قبل رضىته مقدما من مسجياه القادرة ، لا سيما في

فترة في ذكر أمر أثر في نفسي كثيرا في البداية : ذلك هو أن الناس كانت ترى فيه دائما حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه . وفيما كان يتكلم رحت أقول لنفسي إن من القسوة - من ناحيتي - أن أكون المسفئ الوحيد من هذه القاعدة . ولقد أكثر من العودة إلى هذا الأمر . في تكلف بالغ ، حتى أنه جعلني - في النهاية - أرى أنه إذا لم يكن منساقا في هذا لغير أحاسيس قلبه ، لكان أقل تأثرا بهذا الأمر الذي انطلق في شرحه مسهبا . وأنه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بواسطتها إلى الغاية التي يقصدها من آرائه هذه . . . ولقد كنت - حتى ذلك الحين - على مثل هذه الحال : فلقد اعتدت دائما أن احتفظ بأصدقائي ، وما فقدت - منذ طفولتي - واحدا منهم اللهم إلا بالموت ، ومع ذلك فأنني لم أجعل من هذا الاحتفاظ شاغلا لجيل التفكير فيه . . . ولا جعلت منه مبدأ اضمه لنفسي .

وإذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بها هو وحده ، اللهم إلا إذا كان قد فكر فعلا في أن يجردني منها ؟ . . . ولقد عيبت - بعد ذلك إلى الحط من قدرى ، بأن راح يبرهن على أن الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه على أنا . . . وكنت أكثر منه علما بهذا التفضيل ، ولكن المهم في الأمر ، هو : بأي شئ ظفر به . . . أمكان ذلك لأنه أوتى مواهب أو براعة تفوق مواهبي أو براعتي . . . أو لأنه كان يرقى بنفسه ، أو لأنه كان يسعى إلى الحط من قدرى . . . وأخيرا ، وبعبارة أخرى نفسه بأن أقام بيني وبينه من الفوارق ما يكفي لأن يجعل للعفو الذي كان يوشك أن يمنحه قبيحة ، منحني قبلة صلح ،

في عناق وأهن ، كذلك الذي يتكرم به الملك على من ينصيبهم ترسانا . . . وهويت من المسحب . . . ووجدتني مشدوها . لا أدرى ما ينبغي أن أقول ، بل إنني لم أعر على كلمة واحدة . . . لقد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجهه أستاذ إلى تلميذ ، وهو يعفيه من عقوبة الضرب . . . وما نسكرت في ذلك قط . إلا شعرت بمدى خداع الحكم الذي يقوم على المظاهر - والذي يضي عليه السوقة أهية وقبيحة - وبكثرة ما تكون الجراة والكبرياء من حظ المذهب . . . والحياء والارتباك من حظ البريء .

واصطلحنا . . . كان هذا عزاء - على الأقل - لقلبي الذي كان كل خلاف ينفخ به إلى اللواعج القاتلة . . . ومن الصواب أن يحدث المرء أن مثل هذا الصلح لم يبذل من أخلاق جريم وتصرفاته . . . وكل ما أدى إليه ، هو تجريدي من حق الشكوى من هذه التصرفات . . . ومن ثم ، فقد عولت على أن اتحمل كل شيء . . . دون أن أفضض بشيء ما !

* * *

هذه الهوم الكثيرة - التي تعاقبت ضرباتها ، واحدة بعد أخرى ، طوحت بي إلى حال من الضنى لم تدع في كياتي جهدا ليتمكن من أن استعيد السيطرة على نفسي . . . وإذا لم أكن قد نلت أي رد من « سان - لامير » ، وقد أصبحت موضع إهمال لدى السيدة دوبيتو ، ولم أعد أحرز على أن أبوح ما في قلبي لإنسان ما ، فقد بدأ الحزن يملأ قلبي . . . أكون قد ضيعت حياتي ضحية للأوهام ، إذ جعلتني الصداقة معبودا

لقلبي ! .. وكان الليل على هذا قائما ، إذ لم يكن قد بقي لى
 - من كل أصدقائي - سوى رجلين ، ظلّا محتفظين بتقديرى .
 وكان قلبي يركن إليهما وبأمنهما : « ديلكو » - الذى حرمت
 من رؤيته منذ امتكافى فى (ليرميثاج) - و « سان - لاميير » .
 ووقر فى نفسى اننى لن أستطيع أن أصلح من أخطائى نحو
 هذا الآخر ، إلا بأن أفتح له مقاليق قلبي دون تحفظ . .
 فمزمت على أن أمتدح له أعترافا كاملا ، بكل ما لا يحسرج
 عشيقته . ولم يخطر لى ببال ، أن هذا الاختيار ، كان أجبولة
 أخرى نصبها لى هوأى ، ليقربنى من السيدة . . ولكن من
 المحقق اننى كتبت على استعداد لأن ألقى بنفسى بين ذراعى
 عشيقها دون ما تحفظ ، وإن انصاع لإرشاده انصياعا تاما .
 وإن أمضى فى صراحتى إلى أبعد مدى أستطيع الوصول إليه :
 وكتبت على استعداد لأن أكتب إليه رسالة ثانية ، وأنا موقن
 من أنه سيجيب فيها ، عنديا علمت بالسبب المحزن الذى دعاه
 إلى الصمت إزاء الرسالة الأولى . . ذلك أنه لم يتحمل إرهاق
 الحملة . وقد أخبرتنى السيدة ديبيناى بأنه أصيب بغوية
 مالج ، كما أن السيدة دوديتو - التى انتهى بها النعم إلى أن
 مرضت هى الأخرى ، والتى لم تكن فى حال تمكنها من الكتابة
 إلى فى الحال - أرسلت إلى كلمة ، بعد يومين أو ثلاثة ، من
 باريس - حيث كانت فى ذلك الحين - وقالت إن « سان -
 لاميير » رغب فى أن ينقل إلى (أكس لاثابيل) ، ليستشفى
 بمياهها . وإن أقول إن هذا النيا المحزن استغنى كما استغما ،
 ولكنى أرتاب فى أن الأسى الذى بعثه فى نفسى كان أقل إيلاما
 من لوعتها ودموعها ! . . فإن الاغتمام الذى نشأ عن معرفة أنه

كان فى حال كهذه ، تضاعف من جراء الخوف من أن يكون
 التلق النفسى (١) قد ساهم فى ذلك ، مما كان له فى نفسى أثر
 فاق كل ما جرى لى شخصيا . وتولأتى شعور قاس بأننى -
 فى تقديرى الخاص لنفسى - كنت أفتقد القوة المنشودة لكى
 لكى أحتمل مثل هذا الأسى !

على أن هذا الصديق الكريم ، لم يدعنى طويلا ، فى مثل
 هذا الهم - لحسن الحظ - إذ أنه لم ينسنى ، بالرغم من
 مرضه . وما لبثت أن علمت منه شخصيا ، اننى كنت قد
 أسأت الحكم على مشاعره وحاله !

ولكن الوقت قد حان لكى أنتقل إلى الانقلاب الكبير -
 والماجىء - الذى طرأ على مصيرى . . إلى النكبة التى
 شطرت حياتى شطرين متباينين ، والتى أدت - من جراء
 سبب جد نافع - إلى عواقب عظيمة !

ذلك أن السيدة ديبيناى أرسلت - ذات يوم - تستدعيني ،
 على غير توقع البتة . فلما ولجت مخدعها « لحت فى
 عينيه ، وفى أساريرها كلها ، ما يوحي بأنها كانت مضطربة »
 الأمر الذى زاد من دهشنى . إذ أنه لم يكن مألوفاً ، لما كان
 فى الدنيا من يحذف السيطرة على أساريره وحركاته مثلاً ! . .
 وقالت لى : « إننى راحلة إلى جنيف يا صديقى ، فإن صدرى
 فى حالة سيئة ، وصحتى فى انهيار يجعلنى أهمل كل شيء ،

(١) التلق النفسى الذى نشأ عن
 « روسو » بمشيقته .

إذ لا بد لي من الذهب كي أزور ترونشمان واستشيريه . . .
ولقد أدى هذا القرار - الذي اتخذ بغتة ، وفي بداية الفصل
السبيء (١) - إلى مضاعفة دهشتي . . . فهي لم تشر بكلمة
واحدة إلى هذا الأمر ، عندما غارقتها قبل ذلك بست وثلاثين
ساعة ! . . . وسألتها عن معتزم اصطحابه ، فقالت إنها كانت
راغبة في أن تصطحب ابنها والسيد دى ليان ، ثم أضافت
في غير اكتراث : « وأنت يا دى . . . الا تأنى انت الآخر » . . .
ولما كنت موثقا من أنها لم تكن جادة في حديثها - إذ كانت
تعلم أنني في مثل تلك الآونة من السنة ، التي كنا مقبلين
عليها ، أكون في حال لا تكاد تسمح لي ببارجة مخدعي -
فقد رحلت تلكه ساخرا من رغبة معلول لمعلول آخر ! . . . وما
كانت هي نفسها تعنى ما عرضت ، ومن ثم فإن الأمر انتهى
عند هذا الحد . ولم تعد نتحدث إلا عن الاستعداد للرحلة ،
وهو الأمر الذي أنهكت فيه بكل همة . وعقدت العزم على
أن تسافر بعد خمسة عشر يوما .

ولم أكن بحاجة إلى كثير من بعد النظر ، لكي أدرك أن ثمة
دائما خفيا على هذه الرحلة ، كتم عني . وهذا السر - الذي
لم يكن سرا على أحد سواي في البيت كله - لم يلبث أن تكشف
في اليوم ذاته ، بواسطة « تيريز » . فقد ألبها به كبير الخدم
إذ سمعه من وصيفة السيدة ! . . . ومع أنني بعيد عن أي
الزام - نحو السيدة ديبيناي - يضطرني إلى كتمان هذا

(١) يقصد فصل الشتاء .

السر ، لأنني لم أعرفه منها . إلا أنه وثيق الارتباط بأولئك الذين
نسى إلى عن طويقتهم . ومن ثم فليس في ومسمي أن أبوح
به . على أن هذه الأسرار - التي لم تخرج ، ولن تخرج ، من
فمي ، أو على قلبي - لم تلبث أن غدت معروفة لدى كثير من
الفراس ، فلم يكن في الوسع أن تظل مجهولة لدى أحد من
المحيطين بالسيدة ديبيناي (١) .

ولقد كان خليقا بي - عندما ألمت بحقيقة الدافع على هذه
الرحلة - أن أتبين أن ثمة إيعازا خفيا من عدو لي حاول أن
يجعل مني مرافقا للسيدة ديبيناي . ولكنها لم تلح على
البقة كي أرافقتها ، ومن ثم فأنسى ظلت اعتبار المحاولة أمرا غير
جدي . . . ولم أفعل أكثر من أن ضحكت من الشكل الذي كنت

(١) كان الدافع السري للرحلة - كما غدا معروفا - هو أن السيدة ديبيناي
حملت ، بفيحة ملائكتها بالسيد حريم . ولقد كان من المريب حقا ، أن تصحب
معها - في رحلة كهذه - ابنها والمربي الذي كان يبنى به . بل الأني من هذا
أن زوجها نفسه رافقها حتى جنيف ! . . . وكان الأملج أنها أخفارت
جنيف بالذات لنضع حولها الآمن . ذلك لأنها ما كانت لتجد التستر المنشود
هناك ، إذ كثر مجرد وجودها يجذب الانتصار اليها . . . على أن هذه
التناقضات جميعا ، كانت في حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة !

بلى دور « روسو » في هذه الواقعة - تلك كانت الدعوة التي وجهت اليه
- دون اكتراث - حيلة أخرى ، قصد بها إرضاء ضرور السيدة ديبيناي :
مظهر فيلسوف مثله في ركبائها . . . كما أن « جرجر » مشقة « سيبا » في الظاهر
مظهر الجاهد بفضل السيدة التي منحها

أوشك أن أظهر فيه ، لو أنني كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة - وبجانب هذا ، فإنها كسبت برفض كثير ، إذ مكثنا هذا من أن تغرى زوجها بمصاحبتها !

وبعد أيام قلائل ، تسلمت الرسالة التالية من ديدرو . وكانت هذه الرسالة مطواة طيتين ، بحيث يستطيع أى امرئ أن يقرأ محتوياتها . وكان العنوان يحمل اسمى مرفقا بهذه العبارة : « عن طريق السيدة ديبيناي » . وعهد بها إلى السيد دى لينان ، أستاذ الإبن ومستودع الام !

رسالة من ديدرو (المظ ١ - رقم ٥٢)

« لقد خلقت لكى أحبك ولكى أولئك . لقد علمت أن السيدة ديبيناي راحلة إلى جنيف ، ولم اسمع بانك مراقق إياها . ماذا كنت راضيا عن السيدة ديبيناي ، يا صديقى ؟ فمن الواجب أن ترحل معها .. أما إذا كنت مستاء منها ، فمن الواجب أن تكون أسرع مبادرة إلى الرحيل . أفانت تروح - أكثر مما ينبغي - بأثقل التزامات أبهظك بها ؟ . إذن ، فهناك فرصة لكى تؤدي بعضا منها ، ولكى تتخفف من أعبائك . فهل ستجد فرصة أخرى فى حياتك لإظهار عرفانك بجميلها ؟ . انها ذاهبة إلى بلد ستكون فيها كمن هيملت من أطواء السحاب . وانها لمریضة ، وستكون بحاجة إلى تسرية وترويج .. اتقول الشئ ؟ . لا انظر يا صديقى ! . إن حجة صحتك قد تكون أقوى مما يخطر ببالي ، ولكن ، هل تراك اليوم أسوأ حالا مما كنت منذ شهر .. وما ستكون فى مطلع الربيع ؟ .

هل ستكون الرحلة مريحة لك - بعد ثلاثة أشهر - أكثر مما هى اليوم ؟ . إننى أصارحك - فيما يتعلق بى - بأننى إذا لم احتل العربة ، لاعتقدت على عصى ، وتبعتها !

ثم ، إلا نخشى أن يسيء الناس تاويل مسلكك ؟ . لسوف تنهم بالاحود ، أو بأن لديك حافظا خفيا . وإننى لأدرك تماما أنك ، ستجد قلبك يشهد دائما لمسيرك ، مهما يكن ما تفعل .. ولكن « هل تكفيك هذه الشهادة فى حد ذاتها ، وهل من المباح أن تهمل شهادة الغير ، إلى حد ما ؟

« وفيما عدا ذلك ، يا صديقى ، أكتب هذا الخطاب وفاء لواجب التزم به نحوك ونحو نفسى . فلماذا لم يرق لك « ملوح به إلى النار ، ولا تفكر فيه بعد ذلك ، وكأننى لم أكتبه قط . » وإننى لأحبيك ، وأحبك ، وأقبلك . »

وتولتني انتفاضة الغضب ، واستبد بى الذهول ، إذ قرأت هذه الرسالة ، التى وجدت عناء فى أن اتها . ولكن ذلك لم يلهى عن أن لاحظ اللهجة التى اصطنعها ديدرو ليبدو مسرنا فى اللطف ، وفى الترفق ، وفى الاخلاص ، مما اعتاد فى رسائله الأخرى ، دون أن يفسن على بلقب (المصدق) . وتبينت الطريق غير المباشرة التى جاعتى هذه الرسالة خلالها .. فقد كان العنوان ، والأسلوب ، والطريقة التى وصلت بها ، ثم عن مداورة بيئة الغرض . ذلك لا أنسى اعتدائى ان تكتب عادة عن طريق البريد ، أو عن طريق حامل الرسائل فى

(مورنورنسى) - وقد كانت هذه هى المرة الاولى ، والوحيدة ،
التي نهج فيها هذا النهج !

وعندما سمحت اولى نويات الغضب للكرامة بالكتابة ،
بادرت إلى تحرير الجواب القالى « الذى حملته لفورى ، من
(ليرميلاج) - حيث كنت إذ ذاك - إلى « لاشيفريت » ، لأطلع
عليه السيدة ديبيناي ، إذ رغبت - فى غضبي الاعمى - أن
اقراء عليها بنفسى ، كما أطلعها على رسالة ديدرو :

« يا صديقى العزيز » إنك لا تستطيع أن تعرف مدى
التراماتى نحو السيدة ديبيناي ، ولا المدى الذى تذهب إليه
هذه الالتزامات فى ربطى إليها ، ولا ما إذا كانت السيدة بحاجة
حقا إلى شىء - فى رحلتها - ولا ما إذا كانت راغبة فى أن
أراستها ، ولا ما إذا كان هذا فى إمكانى ، ولا الأسباب التى قد
تكون لدى « لامتنع عن مراقبتها » . ولست أبى أن أناقش هذه
النقاط معك . وإلى أن يتم ذلك ، أحب أن تقرمى أن لهلاك
على - بهذا الاعتداد - ما ينبغى على عمله ، دون أن تكون فى
وضع يبكك من الجرم ، لهو - يا فيلسوفى العزيز -
عين اللغو !

« واسوا ما فى الامر ، اننى أرى أن هذا ليس رأيك ، ولا هو
صادر عنك - هذا ، بغض النظر عن اننى غير مستعد لأن ادع
نفسى مناسقا لطرف ثالث أو رابع تحت اسمك . - وانى لأجد
فى هذه التصرفات غير المباشرة ، مداورة لا تتمشى مع مراقبك ،
ويحسن بك أن تتجنبها فى المستقبل ، لصالح كل منا !

« أراك تخشى أن يساء تأويل مسلكى ، ولكنى أتحدى قلبا
كثلك أن يجرؤ على إسائة الظن بى . أما الآخرون ، فلعلمهم
يتحفظون عنى بخير ، لو أننى شابهتهم . فلعل الله يصوتنى من
أن اكسب رضاهم ! - ودع اللئام يتجسسون على ، ويؤلون
مسلكى كما يحلو لهم . فان «روسو» ، ليس بالذى يخشاهم ،
كما أن « ديدرو » ليس بالذى ينصت إليهم !

« إنك تريدنى على أن أطوح برسالتك إلى النار ، إذا لم ترق
لى ، والا افكر فيها بعد الآن . افترض أن من السهل نسيان
ما يفد منك ؟ - إنك تسترخص ديموى « يا صديقى العزيز ،
بالآلام التى تسببها لى ، كما تسترخص حياتى وصحتى ،
بالهجوم التى تثيرها . فإذا استطعت أن تصحح هذا ، فستظل
صداقتك دائما من أعذب ما أنعم به ، ولسوف يقل ما أعانيه
من رسالتك ! » .

وإذ ولجت مخدع السيدة ديبيناي ، وجدت جريم معها ،
مما أطربنى . فقرأت عليهما - بصوت عال ، وأصبح -
الرسالتين ، فى هدوء نفس ما كنت لأؤمن بأننى قادر عليه .
حتى إذا فرغت ، أضفت بضع ملاحظات لم تنم عا وراء ذلك
الهدوء . ورأيت أن هذه الجراة غير المتوقعة ، من رجل كان
شديد الخور والتردد عادة ، قد ادهشتها وذهلتها مما .
فلم يجيبا بكلمة واحدة . ورأيت - فوق ذلك - أن الرجل
المتجرب قد غش بصره - ولم ينو على أن يحمى أمام شر
نظراتى . ولكنه فى اللحظة ذاتها ، بماهذ نفسه - فى أعماق

طلبه - على القضاء على - وإني لمؤمن من أنه والسيدة جيبيناي قد أجمعا على ذلك قبل ان يفترقا !

وحدث في حوالي تلك الآونة ، ان تلقيت - عن طريق السيدة دوديتو - رسالة من « سان - لامير » (المرفأ - رقم ٥٧) . وكان قد أرسلها من « ليفينوتيل » قبل مصابه بأيام قلائل . ردا على رسالتي ، ولكنها تأخرت طويلا في الطريق . وقد أتاح لي هذا الجواب شيئا من العزاء كنت في أشد الحاجة إليه في تلك الآونة ، لما زخر به من دلائل التقدير والصدقة ، مما بث في نفسي القوة والجرأة لكي أكون أهلا لذلك . ولقد رحلت - منذ تلك اللحظة - أودى واجبي - ولكن من المحقق أنني كنت موشكا على أن أفضل ، دون رجعة ، لو أن « سان - لامير » ظهر بظهر أقل حكمة وكريما وإخلاصا !

وأصبح الجو رديئا ، وشرع الناس في مغادرة الربيف . وانبأني السيدة دوديتو باليوم الذي اعتزمت فيه أن تأتى لتودع واديتا ، وضريت لي موعدا للمقاء في (أوبون) - وشاعت المصانفة أن يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي حدد لرحيل السيدة جيبيناي عن (لاشيفريت) إلى (باريس) ، لكي تستكمل استعدادها النهائي لرحلتها . ولقد سافرت في الصباح - لحسن الحظ - فأنفصح أمامي الوقت بعد رحيلها . كي أذهب فأتناول الغداء مع أخت زوجها . وكنت أحمل رسالة « سان - لامير » في جيبى ، فرحت أقرؤها مرارا أثناء سبرى ، وإذا بها بمثابة درع وقائي من ضعفى . وعاهدت نفسي -

وصنعت عهدي هذا - على ألا أرى في السيدة دوديتو سوى صديقة لي ، وعشيقة صديق لي !

وقضيت معها أربع ساعات أو خمسا ، في خلوة ناعمة ، وادعة ، مستحبة للغاية . . حتى بالنسبة لنوبات الحصى اللاهية التي كنت أكتوى بها في قربها حتى ذاك الحين ! . . ولما كنت تعلم عن يقين أن قلبى لم يتحول ، فقد أدركت الجهود التي رحت أبذلها لأمسيطر على نفسي ، فازدادت تقديرا لي ، وسرني أن رأيت أن صداقتها لي لم تخب أو تقتر . ولقد أنبأني بقرب عودة « سان - لامير » ، الذي لم يعد في صحة تمكنه من احتمال عناء الحرب ، برغم أنه كان قد شفى تقريبا من مرضه ، ومن ثم فقد رأى أن يترك الخدمة العسكرية ، لكي يعيش معها في سلام . ورحض نرسم خطة بديعة ، لصحبة وثيقة تضم ثلاثنا . وقد كان لنا أن نأمل أن يؤدي تنفيذ هذه الخطة إلى نتائج باقية ، إذ رأينا أنها كانت تقوم على أساس من جميع المشاعر التي تربط بين القلوب المستقبية ، الصالحة ، الحساسة . . وكنا نجعل في تقويمنا الثلاث من المواهب والمعرفة ، ما لا بدع لنا حاجة إلى أى غريب عنا . . فواحسرتنا ! . . لم أكن - وأنا استسلم للرجاء في حياة بمثل هذه العذوية - - لأتذكر قط فيها كان بخيئه لي المستقبل !

وما لبثنا أن تحدثنا في موقفى الراهن إزاء السيدة جيبيناي ، فاعلمتها على رسالة دبورو ، وعلى رأيي ، فبعد ذلك ما جرى في هذا الشأن ، فأفضيت إليها مؤثرا على أمارق اليرمباج ، - نعارضته بشدة ، ونهجهت ذلك الغريب على

قلبي . وأوضحت لي كم انها كانت تمنى لو أنني قمت بالرحلة إلى (جنيف) ، فقد تنبأت بانها لن تلبث أن تقم في هذا الرغض الذي صدر مني ، وأن رسالة « فيدرو » تكاد تعلن هذا مقدما . بيد انها لم تتشبت بهذه المسألة . إذ كانت تعلم قوة الدواعي والأسباب التي حلفتني على الرغض ، كما كنت أعلمها تماما . ولكنها استخلفتني أن اتفادي كل ضجة ، مهما يكن الثمن الذي يكبدنيه ذلك ، وأن ألطف من آثار رغضي بحجج مقبولة تبدي أي شك ظالم بأن لها يدا في الأمر - وقلت لها إن المهمة التي ترضها علي ، لم تكن بالبسيطة الهينة . غير أنني قد آليت على نفسي أن أكثر عن أخطائي . وأن أقدم سمعتها على سمعتي ، في كل ما يسمح لي الشرف باحتياله .

وإن يلبث أن يتجلى ما إذا كنت قد وفيت بهذا التعمد . وبوسعي أن أقسم بأن هواي التمس وإن لم يفقد شيئا من عفوانه ، إلا أنني لم أشغف يوما بصوفي الحبيبة كما كنت مشغوبا في ذلك اليوم بيد أن رسالة « سان - لامير » وشعوري بالواجب ، وفجوري من الخيانة ، تركت أثرا طاعيا على نفسي طيلة هذا اللقاء ، حتى أن شهواتي فارقتني وخلفتني معها في سلام ، بل حتى أنني لم أجد ما يفريني على أن أقبل يدها . . فلما حان الفراق ، قبلتني بمرآى من خدامها . وكانت هذه القبلة - التي خالفت ما كنت استرقة منها أحيانا : تحت الأشجار - برهانا أكد لي أنني قد غدت مسيطرا على نفسي . واكاد أوقن بأنه لو أتيت قلبي الوقت لكي يعزز نفسه في هدوء لكانت ثلاثة أشهر أكثر من الكفيلة لشغله تماما !

وهنا انتهت علاقتي الشخصية بالسيدة لوديتو . . العلاقات التي يسقط على أي امرئ أن يحكم عليها من المظاهر ، وفقا لطبيعة نواذه . وإن كان من المحتمل أن الوجد الذي اذنته في قلبي هذه المرأة الرقيقة ، هو أقوى وجد شعر به أي رجل على الإطلاق ، وسيبقى دائما مجدا مكرما لدى السماء ولدينا ، بفضل التضحيات الفذة ، والأليمة التي قدمنها - كلانا - في سبيل الواجب ، والشرف ، والحب ، والصداقة . . . لقد كان كل منا يكبر الآخر إكبارا أسى من أن يسمح لنا بأن نخزي نفسيهما أو نستذلها . . . وكان لابد لنا من أن نغدو غير جديرين بأي تقدير أو احترام البتة ، إذا شئنا أن ننزل من أي من هذه القيم العليا . . بل أن احقدام مشاعرنا - الذي كان كديلا بأن يجعلنا آثمين - كان هو الذي حال بيننا وبين أن نغدو كذلك !

وهكذا ودمت هاتين المراتين معا ، في يوم واحد ، بعد صداقة طويلة لإحداها ، وحب عميق للآخرى . . ودعتهما . وقد قدر لي ألا أرى واحدة منهما بعد ذلك قط ، بقية حياتي . . والا أرى الثانية إلا مرتين نحسب ، وفي مناسبتين سأوردها فيما بعد .

ووجدتني بعد رحيلهما في حيرة بالغة إزاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة ، الملحة ، المتنافسة ، التي ترتبت على حماقتي وعدم حكمتي . ولو أنني كنت في وضعي « هادي » بعد اقتراح تلك الرحلة إلى (جنيف) ورغضتي إليها . لما كان

على سوى أن أمكت قريبا مطمئنا ، ولما كان ثمة ما يقال ، بعد الذى قبل بهذا الصدد . ولكننى بغبائى جعلت منه مسألة لم يكن من الميسور أن تبقى على وضعها ، ولم أكن أملك أن اتفادى أى اضطراب إلى تفسير مسلكى بشأنها ، إلا بهارحة (البرميتاج) .. وهو الأمر الذى وعنت السيدة دوديتو بالأفعلة .. ولو لفترة من الزمن ، على الأقل . فضلا عن أنها كانت قد استحلقتنى أن أبرز رفضى لدى أصدقائى المزعومين ، بحيث لا تتحم هى فى هذا الرفض . ومع ذلك فأننى لم أكن أملك أن أعلن السبب الحقيقى دون مساس بالسيدة ديبيناي ، التى كنت مدينا لها ببعض العرفان — دون أدنى شك — بعد كل الذى فعلته من أجلى .

وإذ تدبرت كل هذا مليا ، وجدتنى أواجه اختيارا عسيراً ، ولكنه لازم ، لا مفر منه .. ذلك هو أن أغضى من قدر السيدة ديبيناي ، أو قدر السيدة دوديتو ، أو قدر نفسى . واخترت الوضع الأخير .. واخترته بشمم ، وعن طيب خاطر ، ودون تذمر ، بل وفى كرم كبير بأن يحسب الذنوب التى انحدرت بى إلى هذا الدرك . ولقد أدت هذه التضحية — التى يحتل أن يكون أعدائى قد توقعوها ، والتى عرفوا كيف يستغلونها — إلى القضاء على سمعتى ، وجردتنى — بفضل جهودهم — من تقدير الجمهور إياى ، ولكنها أدت إلى تقديرى نفسى ، وسرت عنى فى محنى وضائقتى ! وليست هذه هى المرة الأخيرة ، التى أقدم فيها على تضحيات مماثلة — كما سيتجلى فيما بعد — ولا هى آخر مرة يستغلون فيها التضحية للتيل منى !

وكان «جريم» هو الوحيد الذى بدا أنه لم يشترك فى هذه المسألة ، وقد رايت أن أتوجه إليه . مكنت إليه رسالة طويلة ، أوضحت فيها سخط الرغبة فى النظر إلى اشتراكى فى رحلة (جنيف) كواجب مفرض على ، وعدم جدواها ، وكيف أننى كنت خليفا بأن أكون مصدر متاعب للسيدة ديبيناي خلالها ، والمضايقات التى كان من المحتمل أن تترتب عليها . ولم استطع أن أقاوم الإغراء الذى راودنى نحو إطلاعه — فى هذه الرسالة — على أننى كنت على علم بسبب الرحلة ، وذكرت أنه كان من بواعث عجبى أن يزعم أحد أن الواجب كان بدعونى إلى القيام بهذه الرحلة ، فى الوقت الذى أعلى هو فيه منها ، بل ولم يذكر اسمه بصددها .

هذا الخطاب الذى عجزت فيه عن أن أذكر حججى بجلالة ، ومن ثم فقد اضطررت إلى الدأورة والمراوغة .. هذا الخطاب كان كتيلا بأن يظهرنى للرأى العام بمظهر الموفل فى الذنوب ، بيد أنه كان نموذجاً للرزانة والحكمة لأولئك الذين كانوا على شاككة «جريم» ملين بالحقائق التى لم أذكرها ، والتى كانت تبرر مسلكى الكهل تبرير . بل إننى لم أحجم عن أن أورد زعماء كان فى غير صالحى أكثر مما كان فى صالحى ، وذلك بأن نسبت رأى «ديفرو» إلى أصدقائى الآخرين ، لاوحى بأن السيدة دوديتو كانت تعتقد نفس الرأى — وهو الواقع فعلاً — وإن تحاشيت أن أفكر أنها قد عدلت عن رأبها هذا أمام حججى . وما كنت لأستطيع أن أضع عنها شبهة التواطؤ معى ، بأنضل من أن أبدو — فى تلك المناسبة — على استقواء منها . واختتمت هذا الخطاب بعرض

عواطف اى إنسان آخر .. فبينما ناشدت جريم ان يتألم حججى جيدا ، وأن يثبتنى - بعد ذلك - برأيه ، أوجيت إليه اننى سأخذ بهذا الراى ، سها يكن . وقد كان هذا عين ما انقويت - فى الواقع - حتى لو أنه أشار بوجوب سفرى . ذلك لأنه لما كان السيد ديبيناي قد اضطلع بسبب مرافقة زوجته « فان مرافقتى إياها كانت خليقة بأن تتخذ مظهرا مخالفا لما كانت ستأخذ من قبل .. إذ كنت إذ ذاك قد سئلت أن أقوم بهذا الواجب ، ولم يكن للسيد ديبيناي اى فكر ، إلا بعد أن رفضت !

وتأخر رد « جريم » بعض الوقت ، فلما جاء ، إذا به رد غريب ، انقلبه هنا (المجلد ١ - رقم ٥٩) :

« لقد أرجىء رحيل السيدة ديبيناي ، فان ابنها مريض ، وقد اضطرت إلى الانتظار إلى ان يعافى . سأفكر فى خطابك » فامكك هادئا فى (ليرميلاج) . وسأطلعك على رايى فى حينه . ولما كان من المحقق أنها لن ترحل قبل بضعة أيام ، فلبس ثمة دافع للعجلة . وفى هذه الأثناء ، فى وسعك ان تعرض عليها مرافقتك إياها ، إذا رايت ذلك مناسبا ، وإن كان يلوح لى ان هذا لن يخير من الأمر ، ذلك لأننى لا أرى اى شك - وأنا لا أقل عنك علما بوضعك - فى أنها ستقبل عرضك بما يفيى . ويبدو لى أن كل ما يمكن كسبه بذلك ، هو أنك ستستطيع ان تقول لأولئك الذين يهيمون بك أن ترحل ، أنك إذا لم ترحل ، فلن يكون ذلك راجعا إلى تقصير منك فى عرض خدمتك .

« وفيما عدا هذا ، لا أستطيع ان أنهم السر فى أنك ترى ان من الضرورة اللازمة ان يكون الفيلسوف هو البوق الذى ينقل إليك صوت الناس أجمعين ، ولا السر فى أنك تتصور ان كل اصدقائك يرون ضرورة سفرك ، لجرد أنه نصحك بالسفر ! .. ولو أنك كتبت إلى السيدة ديبيناي ، فان ردها قد ينفك فى الرد على هؤلاء الأصدقاء ، مادمت تقسيم كل هذا الوزن للإجابة عليهم !

« وداعا .. تحياتى للسيدة لوفاسير ولكرمينيل » (١) .

وبعت دهشة إذ قرأت هذا الخطاب ، ورحت أبحث فى قلق عما قد يكون وراء معنى الظاهرى ، ولكن بحثى ذهب سدى . فبما للعجب ! .. ابدلا من ان يرد على رسالتى ببساطة ، يستهملنى كى يفكر فيها ، وكأنها الوقت الذى استغرقه لم يكن كافيا ؟ .. بل إنه ليطلعنى على الموقف المعلق الذى يرفب فى أن يستيقنى فيه ، وكأنه يفكر فى مشكلة عويصة مستعصية الحل ، أو كأنه كان يرى أن يحرمنى كل وسيلة للوصول إلى معرفة إحساسه ، إلى ان تحين اللحظة التى يراها للكشف عن هذا الاحساس . فما الذى يعنيه هذا الاحتياط ، وهذا الإرجاء ، وهذا التكم ، إذن ؟ .. أمضى هذا المتوال يرد المرء على الثقة .. انيبدو هذا تصرفا مستقبيا ، شريفا .. عثا بحثت من تأويل موات يبرر هذا التصرف ، نلتنى لم أجد !

(١) أطلق « جريم » هذا اللقب على « جريم » وهو الذى كتب هذا الرجوع الى هامش صفحة ١٤٢ (٥٧٨)

ومهما تكن نيته ، فان مركزه كان يجعل تحقيقها سهلا عليه ،
إذا كانت وجهة ضدى . . في حين أنه كان من المستحيل على
أن أضع اية عقبة في طريقه . فلقد كان ذا حظوة في دار أمير
كبير ، وكان كثير الأصدقاء في المجتمع ، وكان بوسمه - كجهم
لامع ، مسوع الكلمة في الأوساط التي كنا معروفين نديها
معا - أن ينفذ غايته وفق هواه ، بدهائه المألوف . . في حين
أننى - وحيدا في (البرميثاج) ، بعيدا عن الجميع ، بدون ناصح ،
وبلا اتصال بالعالم الخارجى - لم أكن أملك أن أفعل شيئا .
اللهم إلا أن أنتظر « وامكث صامتا . وكان كل ما فعلته . عو
أن كتبت إلى السيدة ديبيناى - بصدد مرض ابنها - خطابا
مهذبا بقدر ما استطعت ، دون أن أنساق فيه إلى شرك عرض
استعدادى لإرافقتها في رحلتها .

وبعد انتظار طويل ، في القلق الشديد الوطاة الذى القاني
فيه هذا الرجل اللطيف ، سمعت - بعد ثمانية أيام أو عشرة -
أن السيدة ديبيناى قد سافرت ، وتلقيت منه خطابا ثانيا .
لم يشتمل على أكثر من سبعة أسطر أو ثمانية ، لم أتم قراءتها
حتى آخرها . . إذ أنها أعلنت تظيعة بيننا ، ولكن في عبارات
لا يعلها سوى أشد ألوان الحقد استعارا . . عبارات بدت
سخيفة حقاً ، لفرط تلهنه على أن يجعلها جارحة . فلقد
حرم على أن أظهر في محضره ، وكأنه يحرم على دخول
أقطاعاته . ولم يكن يفتص خطابه ، لكى يبدو مضحكا ، سوى
أن يقرأ في هدوء وبأعصاب باردة . وبدون أن أثقل صورة

منه (١) ، بل وبدون أن أقرأ حتى نهايته ، رددته إليه في
الحال ، مع التعقيب القالى :

« إننى أبى عادة أن أنساق لشكوكى الصائبة . ولهذا
تأخرت كثيرا في أن أعرفك على حقيقتك .

« هاك إذن الخطاب الذى استبحت الوقت للتفكير فيه ،
فاننى اردت إليك « لأنه ليس لى . وفى وسعك أن تعرض
خطابى على الملأ كله ، وأن تحقد على علانية وجهارا ، فهذا
يهتن في غير صالحك ! » .

وكان السماح له بعرض خطابى السابق ، تعقبا على فقرة
وردت في رسالته ، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذى
لجا إليه في هذه القضية بأمرها .

فلقد ذكرت أن خطابى كان كثيلا بأن يلقي على بعض التثريب ،

(١) ورد هذا الخطاب في مذكرات السيدة ديبيناى ، ولم يكن مؤلفا من سبعة
أسطر أو ثمانية ، بل أنه استغرق مسبعة ونصف صفحة من الكتاب .
وبلاحظ أن ذكر التظيعة لم يرد الا في آخره ، في حين أن « روسو » ذكر
أنه لم يقرأ حتى نهايته . على أنه ذكر للسيدة دودينو - في رسالة بتاريخ
٨ نوفمبر سنة ١٨٥٧ - أنه تلقى من « جريم » خطابا أثار استنرازه . حتى
أنه رده إليه « خشية قراءته مرة ثلثية » . . وهناك أحد أحمالين ، أما أن
يكرر « روسو » قد بالغ في وصفه للخطاب ، وأما أن ما نشر في مذكرات
السيدة ديبيناى كان خطابا أعد لنورير . . وليس . .
الاملى .

في انظار أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور .
وقد تبين « جريم » هذا باغتيال ، ولكن كيف كان بوسمه أن
يستغله دون أن يكشف موقفه . . . ذلك لأنه كان معرضا -
إذا ما عرض خطبى على أحد - لأن يتهم بفساد استقلال ثقة
صديقه .

ولكى يخرج من هذا الحرج ، خطر له أن يقطع الصلة معي ،
بأشد الطرق استشارة لشعورى ، وإيحاء لى بأنه قد أولانى
صنيعا ، إذ لم يطلع أحدا على خطبى . وكان من المؤكد أننى
- فى سورة الغضب - خليق بأن أرفض أمانته هذه ، فاسمع
أنه بأن يعرض خطبى على الدنيا بأسرها . . وهذا عين ما كان
يبتغيه ثامبا ، وقد سار كل شيء وفقا لما نبر . ولقد أذاع
الخطب فى باريس كلها ، مع تعليقات من عنده ، لم تكن - مع
ذلك - موفقة بالدرجة التى كان يرجوها . فقد رأى أن سماحى
له بأن يعرض خطبى - الذى عرف كيف ينتزعه منى - لم يكن
ليغنيه من اللوم ، لما أظهره من تسرع فى استقلال كلمتى للعمل
على إيدائى . وأخذ الناس يتساملون باستمرار عن أية ذنوب
ارتكبتها نحوه شخصيا ، تبرر كل هذا الحقد الأوج . ثم
انتهوا - أخيرا - إلى أنه إذا كانت لى أخطاء تضطره إلى
القطيعة ، فإن للصدقة - ولو نصت - حقوقا كان لزاما
عليه أن يحترمها !

على أن باريس متقلبة ، لسوء الحظ ، فلا تلبث هذه
الملاحظات - وليدة وقتها - أن تتوارى فى زوايا النسيان . .
إذ أن المنكوب يلقى إهمالا ما دام غائبا ، والمجدود يتقلب ما دام

حاضرا . . وتستمر لعبة الدس والتكيد الخبيث ، وتتجدد ،
ولا تلبث نتائجها أننى تبعث حية - كلما ماتت - أن تحو كل
ما سبقها !

على هذا النحو ، أباط هذا الرجل - الذى ظل يخدعنى
طويلا - ثامبا ، وقد أطمأن إلى أنه لم يعد بحاجة إليه « فى
الوضع الذى ساقى إليه الأمور . على أننى كفت عن التفكير
فى هذا التمس ، بعد أن تخلصت من الخوف من أن أكون ظالما
حواه ، وشركتة لضميره . وبعد ثمانية أيام من تسلم ذلك
الخطاب ، تلقت من السيدة ديبيناى ردها على خطبى السابق ،
محرا فى جيف (الملف - رقم ١٠) . وتبينت من اللهجة
التي لجأت إليها - للمرة الأولى فى حياتها - أن كلا منهما كان
يعمل على نجاح تدابيرها ، وأنهما كانتا يعملان متفقين
ومتعاونين ، وأنهما كانتا ينظران إلى كرجل ضائع ، لا معين له
ولا نصر . ومن ثم فقد آليا على نفسيهما ألا يشخرا جهدا فى
سبيل الاستمفاع بمحقى نهائيا !

والواقع أن ظروفى كانت فى أسوأ حال . فلقد رايت أصغائى
يهجرونى ، دون أن أعرف كيف ، ولا لماذا . . فهددرو ، الذى
كان يفخر بأنه باقى لى ، وباقى وحده ، والذى وعدنى منذ ثلاثة
أشهر بأن يزورنى ، لم يأت قط . وكان الشقاء قد بدأ يفرض
أثره محسوسا ، فبدأت معه على المأوفا . وكان كيانى - رغم
ملائمة تكوينه - قد ناء تحت نظارى كل هذه المواقف
المناقضة . كنت فى حالة إعياء لم تغير لى طبعه ولا جنبا على

الاحتمال - ولو أن معاملتي - بل لو أن تأييدات دييرو والسيدة دوديتو ، سمحت لي بمبارحة الميرميتاج ! قورا ، فأنني لم أكن أدري إلى أين أذهب ، ولا كيف أجز نفسي إلى هناك . ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن ، خامل الحراك ، دون أن أقوى على التفكير أو العمل . كان مجرد التفكير في أن اتخذ خطوة . أو أكتب رسالة . أو أفوه بكلمة ، كهيلا بأن يجعلني ارتجف !

ومع ذلك فأنني لم أقو على أن أدع رسالة السيدة ديبيناى بلا جواب ، وإلا كان ذلك اعترافا بأنني كنت أستحق المعاملة التي أثقلتني وصديقتها بها . وقررت أن أصارحها بمشاعري ونواياي ، دون أن أرتاب لحظة في أنها ستبادر إلى إقرارى على هذه المشاعر والنوايا ، بغضل المشعور الإنسانى ، والكرم ، والطيبة ، والاحاسيس الطيبة التي خيل إلى أنني أراها لديها .! . وهك خطبتي :

« الميرميتاج : ٢٣ نوفمبر سنة ١٧٥٧

« لو قدر للمرء أن يموت حزنا ، لما كنت أنا الآن على قيد الحياة . ولكنني عقدت عزمي أخيرا . لقد انفصلت عرى الصداقة بيننا ياسديتى ، ولكن لهذه التي لم يعد لها بقاء ، حقوقا أعرف كيف أحترمها . فأنني لم أنسى قط أفضالك على . وبوسعك أن تطمئني من ناحيتي إلى كل عرفان باستطيع أن بدين به أمرؤ إلى شخص لم يعد ملزما بأن يحبه وادى تفسير آخر ، لن يكون مجديسا ، وإنني لأركن إلى ضميري ، ولك أن ترجعني إلى ضميرك .

« لقد كنت أعززم مغادرة الميرميتاج ! ، وكان من الواجب أن

أفعل . ولكن رؤى أن أبقي حتى يحين الربيع ، وما دامت هذه هي رغبة أصدقائي « فسوف أبقي إلى الربيع ، لو أنك وافقت على ذلك » .

وبعد أن كتبت هذا الخطاب وأرسلته ، لم أعد أفكر إلا في البقاء هادئا في الميرميتاج ! . وفي العناية بصحتي ، ومحاولة استرداد عافيتي ، واتخاذ التدابير لمغادرة الدار في الربيع ، دون ما ضجة ، ودون ما إعلان للقطيعة . ولكن هذا لم يكن عين ما أمده السيد جريم . والسيدة ديبيناى ، كما سيظهر بعد لحظة .

وحظيت بعد أيام بالزيارة التي أسرف « دييرو » في وعوده بأن يؤديها لي ، بقدر ما أسرف في أن يبر بذك الوعود . وما كان أداؤها ليحد وقتا أكثر ملامة من تلك الآونة . فقد كان دييرو أقدم أصدقائي ، وكان الوحيد الذي بقي لي منهم ، ومن ثم فعنى الووسع إدراك مدى السرور الذي تولاني إذ رأيته في هذه الظروف . فالحق كان ظلمي متزعا ، غافرغته في قلبه . وأوضحته له كثيرا من الوقائع التي كتبت عنه ، أو التي موهت عليه ، أو ربيت له . وأثابته بما كان يحق لي أن أطلعه عليه ، من كل ما جرى . ولم أحاول أن أكتب عنه ما كان هو على علم وإاق به . . . لم أحاول أن أكتب عنه أن حبا ، غير موفق . - بقدر ما كان أرهن . - استغل كاداة للقضاء على ، ولكنني لم أبع قط جان السيدة . دوديتو « كانت كالسفنبا به يوما . على الأقل !

وحدثته عن المناورات غير الكريمة التي قامت بها السيدة ديبيناى للاستيلاء على الخطابات البريئة التي كانت اخت زوجها قد كتبتها لى . فلقد رغبت فى أن يمصرف كل هذه التفضيلات ، من شمسها المراتين اللتين حاولت السيدة أن تفريهما بذلك . وقد أدلت إليه تيريز بوصف دقيق لكل شيء . ولكن .. ما الذى أصابنى ، فعند ما حان دور الأم ، وسمعتها تعلن وتتشبث بأنها لم تكن على علم بشيء من هذا إطلاقا ؟! .. هكذا كان قولها الذى لم يتحول عنه البتة . ولم يكن قد انقضى بعد أربعة أيام ، بذكرددت على سمعى كل التفضيلات ، التي راحت تناقضها فى وجود صديقى !

ولاح لى مسلكتها حاسبا ، غشمرت إذ ذاك ، شعورا قويا . بمدى غفلتى إذ أبقيت امرأة كهذه على مقرية منى . ولم انطلق أكيل لها السبب بل إننى لم أكد أقوى على أن أقول لها بضع كلمات أعبر بها عن استهجانى . وأحسبت بمدى ما كنت أمين به للابنة التي كانت باستقامتها المنيعة ، ترسم صورة قوية ، تتناقض تماما مع ما أبدت الأم من خسة مهينة . على أن رأى استقرار - منذ تلك اللحظة - بشأن العجز . ولم انظر إلا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه .

ولقد جاءت هذه اللحظة بأسرع مما كنت اتوقع . ففى المآثر من ديسمبر ، تسلمت ردا من السيدة ديبيناى ، هذه محتوياته (المرف « ب » - رقم ١١) :

« جنيف : أول ديسمبر سنة ١٧٥٧

« لم أعد أم لك - بعد أن اتحت لك كل دليل ممكن على

الصدقة والعطف ، خلال عدة سنوات - سوى أن أرى لك ، إنك شقى ، وإنى لأرجو أن يكون ضبيرك فى طمانينة ضبرى ، فقد يكون هذا ضروريا لطمأنينة حياتك !

« وما كنت قد رغبت فى مبارحة (ليرميلاج) « وكان خليقا بك أن تعمل ، فأنى أعجب من أصدقائك إذ منعوك . أما أنا ، فلست أستشير أصدقائى فيما يتعلق بواجباتى . وليس لدى مزيد أقوله فيما يتعلق بواجباتك !

كان إنذارا - غير متوقع ، ولكنه واضح - بالطرد ، فلم يدع لى لحظة واحدة كي أفكر أو أوازن .. كان لابد لى من أن أبرح (ليرميلاج) غورا ، ومهما تكن حال الطقس ، أو حالى الصحة - حتى لو اضطررتى ذلك إلى أن أبیت فى الغابات ، وعلى الصقيع الذى كان يكسو الأرض - ومهما يكن فى وسع السيدة دوبيتو أن تقول أو تفعله إزاء ذلك - إذ أننى لم أكن على استعداد لأن أهين نفسى ، بالرغم من أننى كنت على استعداد لأن أرى هذه السيدة !

ووجدت فى أشد حيرة عرضت لى فى عمرى كله ، ولكنى كنت قد عقدت العزم ، وأقسمت على ألا أبیت فى (ليرميلاج) فى اليوم الثامن ، « بما يكن الأمر . وعكفت على نقل أمتعتى الخاصة ، وقد قضت أن أديعها فى المراء ، على ألا أريد المفاتيح فى اليوم القام . فقد كنت تواقا - قبل كل شيء - إلى أن أفرغ من الأمر ، قبل أن يستطيع أحد أن يكتب إلى (جنيف) . وأن يطلق ردا منها .. وأوتيت ردا ..

يوما ، فلذا كل قواى ارتدت إلى .. ردها إلى الشهم والإباء
 للذان لم تحسب لهما السيدة ديبيناي حسابا !
 وساعد الحظ هذه العزبة الجريئة ، فاذا السيد « متى »
 — المندوب انقضائى (١) للسيد الأمير « دى كوندية » — يسمع
 بورملنى « فيعرض على بيتا صغيرا كان يفتنيه في حديقة داره
 في (مون لوى) بونمورنسى . وقبلت العرض في تاجر وعرفان ..
 وثبت الصنفه ، فاسرعت الى شراء بعض اثاث اضمه إلى ما كان
 عندي « لوى إليه مع « تيريز » .. ونقلت متاعى على عربة .
 في كثير من العناء . وبنفقات باهظة وبرغم الجليد والصقيع ،
 فقد تم انتقالي في يومين .. حتى إذا كان الخامس عشر من
 ديسمبر ، رددت ملاتيخ (إرميتاج) ، بعد أن دفعت أجر
 البستاني . إذ لم استطع أن ادفع أجر المسكن !
 أما السيدة لوفاسير - فقد صارحتها بأن عليها أن تارقنا .
 وحاولت إينتها أن تقننى . ولكنى أببت أن الين . وعملت على
 سفرها إلى (باريس) ، في عربة البريد . مع كافة متاعها وما
 كانت تشترك مع إينتها في ممتلكه من اثاث . كما أفنى منحتها
 بعض المال . وتعهدت بأن ادفع لها نفقات إقامتها لدى ابنائها
 أو سواهم ، وأن أتكل بمطالب معيشتها بقدر ما يسعنى ،
 والا أدعها قط في عوز طالما كنت أجد قوتى !
 وأخيرا ، كتبت إلى السيدة ديبيناي الرسالة التالية . في
 اليوم الذى أعقب غداة رصولى إلى (مون لوى) :

(١) المحاسن الذى يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة أو الهيئات
 الإدارية .



ونفقات متاعى على عربة . في كثير من العناء

والصقيع فقد تضرعت لى

« مونمورنسي : ١٧ ديسمبر سنة ١٧٥٧

« ما كان ثمة ما هو أبسط ، ولا ما هو ألزم ، من أن اخلى منزلك ، يا سيدي ، ما دمت لا تقرين بقائى فيه . وبناء على رفضك الإذن لى بأن أمكث فى (ليرميلاج) بقية الشتاء ، بادرت إلى مباحثته فى الخامس عشر من ديسمبر . لقد كان مقدرا لى أن أدخله بالرغم منى ، وأن أخرج منه كذلك ! .. وإنى لأشكر لك الإقامة التى أتحنها لى هناك ، وقد كنت خليقا بأن أكون أكثر شكرا لك ، لو أن الثمن الذى دفعته كان أقل غداحة .

« هذا ، وإلك لعلى صواب إذ تويننى شقيا . فليس فى الدنيا من يعلم خيرا منك ، إلى أى مدى يجب أن أكون كذلك ! .. وإذا كان من سوء الحظ أن يفتر المرء فى اختيار أصدقائه . فليس أقل قسوة من ذلك ، أن يضار من جراء خطأ لطيف كهذا ! » (١)

هذه هى القصة الأمانة لإقامتى فى (ليرميلاج) ، وللأسباب التى اضطرننى إلى مفارقتها . وما كنت أملك أن اقتضب هذه القصة ، بل كان من المهم أن أعرضها بأعظم قدر من الدقة ، إذ أن حياتى فى هذه الفترة ، كانت ذات أثر — على ما بعدها — سيبقى إلى آخر يوم فى حياتى !

(١) ورد نص هذا الخطاب فى مذكرات السيدة ديبيتاى ، منضبا — فى نهايته — هذه العبارة : « لقد تخلص البسحق أجره حتى أول يناير » . ولم ترد هذه العبارة فى أية طبعة من « الاعترافات » ، والظاهر أن « روسو » أغفلها خطأ ، فى حين أن رد السيدة ديبيتاى لا ينهم بدونها .

الكراسة العاشرة

سنة ١٧٥٨

لم تلبث الطاقة غير المعادية — أنى أمدنى بها هياج عابر ، كى أبزح (ليرميلاج) — أن فارقتنى بمجرد أن صرت خسارج هذا البيت . فما أن استقر بى المقام فى المسكن الجديد ، حتى عاودتنى نوبات شديدة ، متتابعة ، من احتباس البول ، امتزجت بالمضايقات الجديدة التى ترتبت على هبوط فى القلب ، كان يعذبنى منذ أمد ، دون أن أعلم أنه كان هبوطا ! .. وسرعان ما غدت نريسة لنوبات أشد قسوة ، نجاء الطبيب « ثيبرى » — صديقى القديم — ليعودنى ، وبصرنى بحالى . وتجمعت حولى المسابر ، والمجسات ، والضمادات ، وكافة المعدات التى تستلزمها علل الشبخوخة ، ما جعلنى أشعر ، شعورا قاسيا ، بأن المرء لا يستطيع أن يحتفظ بشباب القلب — دون ما مءاء — إذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب ! ولم يردنى الفصل الجبل (الربيع) إلى عافيتى ، فقضيت عام ١٧٥٨ فى حال من الوهن ، أوحى إلى بانفى كنت مشرعا على نهاية حياتى العملية . بل إننى أبصرت النهاية تقترب فى شيء من التعجل . وإذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة ، واغترقت عن كل من كانوا يحبون الحياة إلى ، فأننى لم أعد أرى فى هذه الحياة ما يجعلها مستحبة ، ولم أعد أبصر فيها سوى شرور وفوائب كانت تحول بينى وبين كل المتع الذاتية . ولكم . كنت أتوق إلى اللحظة التى انطلقت فيها من جديد عن منال أعدائى !

ولكن . . لنعد إلى سياق الحوادث ثانية !

بدا أن مقامي في (مونمورنسي) قد ساء السيد ديبيناي ، ولعلها لم تكن تتوقعه . فان أساي ، وقسوة ذلك الفصل من السنة ، والوحدة المتبوذة التي ألفتني فيها . . كل هذه جعلتها وجريم يعتقدان أن بوسعهما - إذا واصلنا دفعي إلى أقصى حد - أن يضطراني إلى أن اصرخ طلبا لنجدة ، وأن يهوي بي إلى آخر درك في الهوان ، بقية أن أبقى في المساوي الذي كانت الكرامة تتطلب مني أن أفارقه . ولقد بدلت مسكني نجاة ، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفي لأن يتوقعا هذه الضربة ، ومن ثم فلم يبق لهما من خيار - سوى أن يضاعفا الاندفاع في المفارقة ، أو أن ينفضا أيديهما منها . . وبالتالي ، أن يقضيا ملي قضاء بمرما ، أو أن يسترداني !

واتخذ « جريم » الرأي الأول ، ولكنني اعتقد أن السيدة ديبيناي كانت تفعل الثاني ، أو أن هذا هو ما ملت إلى الأخذ به ، على ضوء ردها على خطابي الأخير ، إذ خففت كثيرا من اللهجة التي اتخذتها في رسائلها السابقة . ولاحث كانتا تتفتح الباب للصليح . ولقد كان تأخر هذا الخطاب - الذي اضطرت إلى انتظاره شهرا كاملا - دليلا كافيا على الحيرة التي ألقت نفسها فيها - وهي تحاول أن تسبغ عليه أسلوبا ملائما - وعلى الخواطر والهواجس التي سبقته . فما كان في وسعي أن تمنحني فيه إلى أبعد مما مضت ، دون أن تكشف نفسها . ولكن المرء لا يجد - بعد خطاباتها السابقة ، وبعد خروجي

المباغت من دارها - مدعاة للمعجب من العناية التي بذلتها في ذلك الخطاب ، ومن حرصها على ألا تدع كلمة جافية واحدة تنسلل إليه . وإني لأنتقله بأكمله ، ليقسنى الحكم على ضوئه (الملف ب - رقم ٢٣) !

« جنيف : ١٧ يناير سنة ١٧٥٨ »

« لم اتسلم خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر ، سوى بالأمس يا سيدي . فقد أرسل إلى في حقيبة ملاي بأشياء مختلفة ، ظلت طيلة هذه المسدة في الطريق . ولن أرد إلا عن العبارة الأخيرة ، أما الخطاب فلست أفهمه تماما . . وإذا كنا بصدد تبادل الإيضاح ، غاني أوثر أن أحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم !

« واماود إلى العبارة الأخيرة . . فلعلك تذكر يا سيدي أننا اتفقنا على أن يتلقى بستانى (ليرميثاج) أجره عن طريقك ، رغبة في إشعاره بأنه موكل إليك ، ولتصادى مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة ، الوقحة ، التي صدرت من سلفه . والدليل على ذلك أن أجره من الربيع الأول من السنة اسلم إليك » وإني اتفقت وإياك - قبيل رحيلي ببضعة أيام - على أن تتقاضى ما سبق أن دفعت له . وإني لأدرك أنك أثرت خلافا بشأن هذا - في البداية - ولكنني كنت قد رجوتك أن تؤدي تلك المدفوعات سلفا ، فكان من أبسط الأمور أن أردّها إليك ، وقد اتفقنا على ذلك . ولكن « كاهول » أتلفني بأنك قد قبول هذه النقود . ولا بد أن ثمة لبس في الأمر . ولقد أت

بان تؤدى إليك ، من جديد ، ولست ارى مبررا لرغبتك في ان تدفع اجر بستائى في خدمتى ، بالرغم من اتقاظس ، وبالرغم من ان هذا الاجر يرجع إلى فترة سبقت سكناك (الربيع) .

« لذلك فانى واثقة با سيدي ، من انك تتذكر كل هذا الذى تشرفت بقوله لك ، ان تاتى ان تسترد النقود التى تكرمت بدفعها عنى » .

ولم اشأ - بعد كل الذى جرى - ان اطمئن إلى السيدة ديبيناي أو أثق بها ، ولا رغبت البتة في ان اجدد صلاتى بها . ومن ثم فانى لم ارد على الخطاب إطلاقا ، فانتهت بكتابتها عند هذا الحد (١) . وإذ تبينت عزمى ، حدثت حدوى ، وانغمست في خطط جريم وعصية دولياخ . وضمت جهودها إلى جهودهم للقضاء على . وبينما كان هؤلاء يعملون في (باريس) ، راحت هى تعمل في (جنيف) . وقد انضم إليها جريم هناك ، بعد ذلك ، فاتم ما كانت قد بدأت . ولقد ساعدها « ترونشان » - الذى استطاع ان يكسبها في صنفها - بكل قواه ، وصار اعنف من راحوا يضطهدوننى ، دون ان يكون لديه - ولا لدى جريم - ما يؤاخذانى عليه ، وراح ثلاثتهم

(١) نكاتب مذكرات السيدة ديبيناي هذا القول ، فقد ورد فيها رد من « روسو » ، وصلته السيدة بأنه « اكثر فحة من جميع خطاباتة الأخرى » . ويبدو ان « روسو » نسي ذلك « او أنه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة .

يعملون معا ، ينفذوا في (جنيف) ما شوهد نباته ينزعزع في باريس . بعد ذلك بأربع سنوات .

وكان الامر اكثر مشقة عليهم في (باريس) ، حيث كنت محروما ، وحيث كانت القلوب اقل ميلا للبغضاء ، فهى لذلك لا تتلقى الإيجاءات بسهولة . ولكن بوجهوا ضرباتهم بيزيد من المهارة والحيلة ، شرعوا في ترويج زعمهم باننى كنت الاسبق إلى التحول عنهم . (انظر خطاب ديلير - الملك ب ، رقم ٣) . ومن هنا ، راحوا - وهم يظهرون بانهم لا يزالون اصدقاء لى - ينفذون بذور الاتهامات الخبيثة ، على شكل شكايات من الاخطاء والمظالم التى حاقت بهم على يدى صديقهم . ولقد أدى هذا إلى ان مستمعهم تخلوا عن حذرهم ، فاصبحوا اكثر ميلا إلى الإصغاء إلى لومهم . وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود في تكتم وحذر ، وقد كانت - لعين هذا السبب - اشد فعلا بالنفوس . وكنت اعلم انهم وصونى بابشع الفظائع ، دون ان يستطيعوا قط ان يعرفوا - نيمسا بينهم - مم كانت هذه الفظائع تتألف ! . كل الذى استطعت ان اخرج به من الشائعات العامة ، هو ان هذه الفظائع انحصرت في أربعة ذنوب جوهرية : (اولا) اعتكاف في الريف ، و (ثانيا) حبى لدام دوديتو ، و (ثالثا) رفض مرافقة السيدة ديبيناي إلى (جنيف) ، و (رابعا) تزوحى عن ليرميثاج . وإذا كانوا قد أضلوا سخافات أخرى ، فلا بد انهم اتفقوا على حقيقة ، حتى أنه قدما من المستحيل على تمام

وإلى هذه الفترة بالذات ، اعتقد ان بوسمى ان أرجع تاريخ تكوين حملة منظمة ، لم يلبث ان انصوى تحت لوائها أولئك الذين تخلوا عني ، بنجاح وتقدم سريعين ، إلى درجة انها كانت خليقة بان تبدو رائعة في نظر من لا يدري مدى السهولة التي يستطيع بها كل ما يساعد شرور البشر ان يحتل بالتأبيد ، ولا بد لي الآن من ان أشرح ، في أوجز ما يسعني ، ما هو واضح نظري من هذه الحملة الخفية الصيقة الأصول .

ذلك اننى احتفظت ببساطة ميولى الأصلية ، حتى بعد ان
طبق اسمى آفاق أوروبا ، وغدت مشهورا . ولقد أدى مقتى
القتال لكل ما يسمى حزبا ، وعسبة ، وشيعة ، إلى بقائى
حرا ، مستقلا ، دون ما يقود سوى ميول فؤادى . وكنت
وحيدا ، غريبا ، متطوئا ، بلا نصير ولا أسرة ، فلم اعتمد
إلا على مبادئى وواجباتى ، وسلكت فى جلد طرق الاستقامة ،
فما تملقت ولا تزلفت إنسانا على حساب العدالة والحقيقة .
وفضلا عن ذلك ، كُنتى لخت — منذ عامين — بالعزلة ، دون
ان اتسقط الالتباء ، وبدون أى اتصال بشئون العالم . مما
كنت احاط بأى شيء ، ولا كنت اهتم إلى أمباء شيء ما .
وكننت أعيش على أربعة فراسخ من (باريس) ، وكننتى —
بفضل عدم اكتراثى — أعيش فى جزيرة (تيفيان) ، تفصلنى
عن هذه العاصمة بحار !

لما جريم ، وفيدرو ، ودولبانغ غكثوا - على التقبض - في وسط الدوامة ، يعيشون في مجتمع أرقى الطبقات ، يتقاسمون نميا بينهم حميم آفاق الفكر تقريبا . فكان المظاء ، وذو

المقول النبيلة ، واهل الأدب ، والمحامون ، والنساء ينصتون جميعا إليهم ، إذا ما اجتمعوا على حديث . ومن السهل تبين النفع الذي يضيفه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع مثل وضعى ! .. ومن الصحيح ان ديدرو ودولباخ لم يكونا — أو اننى لا اعتقد ، على الأقل ، انهما كانا — ممن يجرون المناقشات البالغة الخبث والشر ، إذ ان واحدا منهما لم يكن ذا خبث وشر ، في حين ان الآخر لم يكن ذا دهاء ومكر (١) .. على ان هذا السبب بالذات ، هو الذى جعل القضية وثيقة الترابط . فكان جريم يرسم وحده الخطة فى رأسه ، فلا يطلع الاثنى الاخرين على أكثر مما يراه ضروريا لتكبتها من المساهمة فى تحقيق تلك الخطة . وكان استعلاؤه عليها يجعل تعاونهما ميسورا ، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة !



وبهذه المواهب الفائقة ، عميد جريم — وقد أدرك النفع الذي يستطيع أن يستفده من وضع كل منا — إلى وضع مشروع لقلب سمعتي رأسا على عقب ، وإضفاء سمعة مناقضة لها تماما على اسمي ، دون أن يقيم نفسه . . وذلك بأن يبدأ بإخطايتي بصرح من الغموض والإبهام ، تعذر على أن اخترق حجب لآلئ النور على مناوراته ، ولاكتشف أمره !

١٠) اضافت : روسو ، الى عهد الجور صفيا جاد بيه ٢ ، واضمحلت
الان ملكا لهم ، وفقا لاتفاق جديد . عقد
(١٩ - اعتراف جاد بيه ٢)

ولقد كان هذا المشروع شائعا ، إذ كان على جريم أن يهود ما فيه من ظلم ، في أنظار أولئك الذين كان عليه أن يستعين بهم . . . كان عليه أن يقرر بالأمناء ، وكان عليه أن يقضى على كل الناس ، فلا يدع لى صديقا واحدا ، صغيرا كان ذلك الصديق أو كبيرا . فماذا عساه يقول ؟ . . . كان لابد له من الابدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ إلى . . . ولو أن رجلا كريما واحدا جاعنى ، وقال لى : « لك تؤدى دور الرجل الفاضل ، ومع ذلك ، فانظر كيف تعامل ، وكيف يحكم القوم على أعمالك . . . فماذا لديك من قول ؟ » . . . كانت الحقيقة خليقة إذ ذاك بأن تنتصر ، فبيوه جريم بالخذلان ! . . . ولقد كان يدرك هذا ، ولكنه دنس قلبه ، ولم يقدر الناس حق قدرهم . . . إننى لحزين من أجل الكرامة الإنسانية ، التى تدهرها بمثل هذه الدقة !

وإذ سار فى هذه الدروب المتوارية تحت الأرض « كان لابد له من أن يبطيء ، كى يطمئن إلى مواقع قدميه . ومن ثم ظل إننى عشر عاما وهو يتابع خطته . ومع ذلك فمسا يزال لديه اشق ما يجب أن يفعله . . . ذلك هو أن يقرر بالرأى العام بأسره ! . . . إن هناك عيونا ظلت تراقبه عن كثب اقرب مما يظن . . . وإته لخائف من هذا ، فهو لا يجرؤ بعد على أن يكشف مؤامراته في وضع النهار (١) . ولكنه اعتدى إلى أقل الطرق

(١) وهنا أسأله « روسو » التعليق التالي : « ولقد اتخذ - منذ كتابة هذا - خطوته الكبرى ، بكل نجاح ، وبأكبر توفيق يجعل على الألبام . وإنى لأعتد أن ترونشان هو الذى أمدد بالتشجيع والوسيلة » .

صموية ، لكى يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة ، فيقضى هذا السلطان على . . . وإذا استند على هذه الدعامة ، راح يتقدم وهو أكثر طمأنينة . وانفساب السلطان لا يولون الاستقامة والعمل كثير تفكير ، فى العادة . . . وهم أقل اكترانا بالصراحة ، ومن ثم فانه لم يعمد يخشى فظنه وأسلانه بعض الخيرين إطلاقا ! . . . على انه كان من الضرورى له - بوجه خاص - أن أكون محاطا بظلمات دامسة ، وأن نظل مؤامراته متوارية عن بصرى على الدوام . وكانت حيلته الكبرى ، هى أن يبدو للأنظار انه كان يحابىنى ويمطف على . . . فى الوقت الذى كان يحط فيه من قدرى ، فى الواقع - وأن يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة !

ولقد شعرت بأولى نتائج هذه الحيلة . عن طريق الاتهامات المستترة التى راحت عصية دولباخ تشيعها ، دون أن يقضى لى أن أعلم - بل ولا أن أخذن - ما كانت تتألف منه هذه الاتهامات . ولقد فكر لى « ديلبير » فى رسائله بأننى رميت ببعض الشناعات . . . وفكر لى ديرو الشيء ذاته ، فى غموض وإيهام ، فلما حاولت استيضاح كل منهما ، إذا بكل شيء ينحصر فى الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر .

وشعرت بغتور يسرى تدريجا فى رسائل السيدة دوديتو ، فلم استطع أن أعزو هذا الغتور إلى « سان - لامير » الذى ظل يكتب لى بمين الود المجهود ، أو لى أخذ يزورنى ومسد عودته . كذلك لم استطع أن ألقى القوم على نفسي . أنا كنا

قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر ، ولم يحدث - منذ ذلك الحين - شيء من ناحيتي ، اللهم إلا رجلي عن (ليرميلاج) ، وهو أمر شعرت هي نفسها بضرورته . ومن ثم فأنني لم أعرف كيف أقول هذا الفتور - الذي لم تجبر به وإن أحسه قلبي - نشعرت بقلق شامل . وكنت أدرك أنني اعتادت أن تداهن زوجة أخيها وجريم ، نظرا لملاقتهم بسان - لامير ، فخشيت مناوراتهما والاعيبهما . ونكا هذا القلق المتنازع جراحى ، وأحال رسائلى عاصفة ، حتى أنها لم تلبث أن أصبحت تعاقبا ! . . كنت المبح الف شيء تأسى « دون أن أميز شيئا بوضوح . كنت في وضع هو أبعد الأوضاع من أن يطيقه رجل كان من اليسير أن يتقد خياله . . ولو أنني كنت في عزلة تامة » ولو إنني كنت لا أعرف شيئا على الإطلاق « لكنت خليقا بأن أكون أكثر هدوءا ، ولكن غواذى كان ما يزال يتشبها بالعواطف التى أتاحت لأعدائى الد ماخذ ضدى ، ولم تؤد الأشعة الواهنة التى كانت تنفذ إلى عزلتى إلا إلى أن أرى المعيبات التى كان القوم يخفونها عني ، أئيد حلكة وسوادا من ذى تبل ا

وكنت خليقا - دون ما شك - بأن اتداعى تحت هذا المذاب الذى كان أتمنى واثقل من أن تحتمله غطرتى الصريحة ، التى كانت تجعل من المستحيل تماما أن أخفى مشاعري ، وكأنت - في الوقت ذاته - تجعلنى خائفا كل الخوف ، من تلك الأشياء التى كانت تخفى عني . على أن أمورا أخرى ، لم تلبث - لحسن الحظ - أن عرضت ا ، وكانت مشوقة لقلبي بدرجة كافية

لكى تولد تحولا سليما ، تأى به عن تلك الأمور التى كانت تشغله ، على الرغم منه !

وكان « ديدرو » قد حدثنى - أثناء زيارته الأخيرة لليرميلاج - عن مقال كتبه « دالمير » عن (جنيف) في « الموسوعة » ، وقال لى إن هذا المقال - الذى أقره بعض قوى المكانة العليا من أهل جنيف - كان يرمى إلى إتشاء مسرح في (جنيف) ، وإن الخطوات اللازمة قد اتخذت ، وأن الأمد لن يطول حتى يكون هذا الإنشاء قد تم . ولما كان ديدرو قد حبذ المشروع ، ولم يداخله شك في نجاحه ، كما كانت لدى كثير من الأمور التى أردت أن أبحثها معه ، فإقنى لم أشأ أن أمضى في جدل حول هذا الموضوع ، ولم أقل شيئا . ولكننى شعرت باستكثار لكل هذه الدسائس التى كانت تحاك لإفساد موطنى ، فانتظرت بصبر نافذ ظهور الجزء الذى ضم المقال - من « الموسوعة » - لى أثبتن ما إذا كانت ثمة وسيلة للرد عليه بطريقة تعزل هذه الحيلة المشؤمة !

وتلقت الجزء عقب استقراى في (مون - لوى) بوقت قصير ، فوجدت أن المقال قد كتب بكثير من الدهاء والحق ، وأنه كان أهلا للقلم الذى سطره . على أن ذلك لم يصرفنى عن الاهتمام بالرد عليه ، وبالرغم من الخور الذى كان يعترينى ، وبالرغم من شجنى والآسى ، ومن قسوة الطقس ، وما أتمس به مسكنى الجديد - الذى لم يكن مقامى فيه قد استقر دائما -

من عدم توفر أسباب الراحة ، فقد عكفت على العمل بتحمس
ظهر كل شيء .

وفي شتاء قاس إلى درجة ليست بالبسيطة ، وفي شهر
نبرابر ، وفي الظروف التي وصفتها آنفا ، رحت أقضي ساعتين
من الصباح ، ومثلها من المساء ، في شرفة مكشوفة ، عند
طرف الحديقة التي كان يبني يقوم فيها . وكانت هذه الشرفة
- التي كانت تقع في نهاية درب محاط بسياج - تطل على وادي
مونورنسي وبركة الأسماك ، وتكشف لي على البعد ، بقدر
ما كان يسمح لي البصر ، قصر (سان جراسيان) الجليل
المنظر ، برغم بساطة بئسائه . . . القصر الذي اعتكف فيه
« كاتينا » الماضل . . وفي هذه البقعة - التي كانت في ذلك
الفترة قارسة البرد ، والتي كانت بلا وقاء من الريح
والصقيع ، وبلا أية نار سوى نار قلبي - نظمت ، في ثلاثة
أسابيع ، خطابي إلى « دالمير » حول المسارح !

وكان ذلك أول موضوع اكملته - إذ لم أكن قد أنهيت سوى
النصف من « جولي » - فوجدت فيه سحر العمل . كانت
الفرة على الفضيلة هي معبودي حتى ذلك الحين . ولكن
الحنان والرفقة حلا محلها في روحي . في هذه المناسبة !

كانت المظالم التي لم أكن - بالفلسفة لها - أكثر من متفرج ،
قد أهاجتني ، أما التي كتبت هدفها نقد أحزنتني ، ولم يكن
ذلك الحزن - المجرد من كل حزن ومرارة - سوى شجن قلب
مفرط الحب والحنان . . . قلب اغترم حين كان يؤمن بأنهم على

شاكلته ، فاضطر إلى أن ينطوي على نفسه . . . كان قلبي قد
انغمس بما حدث لي أخيراً ، وكان ما يزال يهتز بأنفعالات عديدة
عنفية ، فراح يمزج إحساسه بالآلم ، بالأفكار التي تولدت عن
تفكير في الموضوع ، فإذا أشار هذا المزج تنعكس على
ما كتبت - وإذا بي - دون أن أظن - أصف فيه حقيقة
موقفي الواقعي . . رسمت فيه جريم ، والسيدة ديبيناى ،
والسيدة دوديتو ، وسان - لاميير ، ونفسي . وكنت أذرف -
وأنا أكتب كل هذا - دموعاً عذبة . . . فواللهفاه ! . . أن المرء
ليلبس في المثل أن الحب - هذا الحب الجبار الذي كنت
أحاول أن اشفي منه - لم يكن قد فارق قلبي بعد . . . ولقد
كان يمتزج بكل هذا ، شهور بالاشفاق على نفسي « إذ شعرت
بأنني أموت ، وكنت أؤمن بأنني أودع الرأي العام للمرة
الآخرة . . . وبدلاً من أن أخلف الموت ، رحت أرقب اقترابه
بنبطة ، ولكنني كتبت أحس بالحسرة ، لأنني كنت أقارق أبناء
جلدتي دون أن يكونوا قد شعروا بقيمتي وقدرى . . . دون أن
يدروا كم كتبت جديراً بأن أحظى بالحب منهم ، لو أنهم كانوا
أكثر معرفة بي مما هم . . . وهذه هي الأسباب الدنيئة للهجة
الغريبة التي سادت هذا المثل ، والتي تبدو جسد مناقضة
لهجة مؤلفي الذي سبقه (١) .

ونقحت المثل وأعدت نسخته ، وأوشكت أن أدفعه إلى
الطباعة ، وإذا بي أتلقى رسالة من السيدة دوديتو - بعد طول

سميت — وإذا بهذه الرسالة تفرقت في هم جديد ، لعله أقسى ما كنت قد خبرت من هوم ، حتى ذلك الحين . فلقد أنبأني السيدة في هذه الرسالة (الملف ب — رقم ٣٤) بأن هيأى بها بات معروفا في باريس بأسرها « وأننى قد أفضيت به إلى قوم أذاعوه ، وأن هذه الضجة قد تراءت إلى أذن عشيقها ، وكادت تكلفه حياته ، وإنه — في النهاية — قد انصفها ، فعاد الونام بينهما .. ولكنها كانت مضطرة — من أجله ، ومن أجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك — إلى أن تقطع كل علاقة به ! .. واكتفى لي أن كلا منهما لن يكف — بعد ذلك — عن أن يهتم بامرئ ، وأن يدافع عنى أمام المسلا .. وأنهما ستبعث — بين الحين والحين — في طلب إخباري !



وهتلت في نفسي : « حتى أنت يا ديدرو .. ايها الصديق غير الجدير بالود ! » . ومع ذلك ففئتي لم أكن أمك بعد أن أبت في أمره . إذ كان ضعفى معروفا لدى أناس آخرين ، وكان من المحتمل أن يكونوا قد وشوا به . ولقد طلب لي أن أستسلم للشك .. ولكنني لم ألبث أن وجدته عاجزا عن ذلك . إذ أن « سان — لامير » أقدم — بعد ذلك بقليل — على تصرف يليق بكرم نفسه . فمقدر — وهو المعارف بحقيقة نفسى — الحال التى كنت فيها ، وقد غدر بى فريق من أصدقائى ، وهجرنى الباقون ، فاقبل يزورنى بنفسه ! .. ولم يكن لديه متسع من الوقت في المرة الأولى ، فاقبل مرة ثانية . ولكنني لم أكن — لسوء الحظ — في البيت ، إذ أننى لم أكن أتوقع مجيئه . ودار

بينه وبين تيريز — التى كنت في البيت — حديث استغرق نيفا وساعتين ، قال كل منهما للأخر — في سياقه — كثيرا من الأمور ، التى كان من الضروري لكل منا أن يعلم بها .. ولقد كنت دهشتى حين علمت أن أحدا لم يكن يورتاب في أننى عاشرت السيدة ديبيانى ، كما كان جريم يعاشرها في ذلك الحين ، تعادل دهشته حين عرف أن هذا النبأ كاذب ! .. فلقد كان « سان — لامير » يحظى من نقشة السيدة بمثل ما كنت أحظى ! .. وكانت جميع الأضواء التى انبثقت عن هذا الحديث كائىة لأن تخفق في نفسى كل أسى داخلها لفصم عرى السود مع هذه السيدة ، إلى غير رجعة !

ولقد أوضح « سان — لامير » لتيريز — فيما يتعلق بالسيدة دوديتو — كثيرا من الظروف التى لم تكن معروفة لدى تيريز ، بل ولا لدى السيدة دوديتو نفسها ! .. فما كان يعرفها سوى أنا وحدي ، وما أفضيت بها إلا إلى ديدرو وحده ، وتحت اسم الصداقة ، لماذا به يخاف « سان — لامير » بالذات ، ليهو له بها ! .. وكان هذا الأمر الآخر هو العامل الحاسم لدى ، فمقتت العزم على أن أقاطع ديدرو إلى الأبد ، ولم يعد يشغلنى بمسند ذلك ، سوى تخير الأسلوب الذى أحقق به القطيعة . فلقد تبين أن المقاطعة المكتومة ، كانت لا تليح أن تذابى ضدى ، إذ أنها كانت تترك قناع الصداقة مسدلا على وجوه افطع أعدائى !

إن قواعد السلوك الطيب التى تليت في الدنيا على هذا الأساس ، تبدو كما لو كانت من

نأن الظاهر بصداقة أبري. ما - عنينا تكون عسده الصداقة قد انتهت - لا يعنى سوى الاحتفاظ بوسائل إيذاء ذلك المرء ، بللتويه على ذوى النفوس الشريفة وخداعهم . . . واسترجعت في ذهني أن « مونتسكيو » الجليل ، بادر - حين قاطع الأب دى تورنمين - إلى إعلان القطيعة مدفوعة - إذ قال للناس اجتمعين : « لا تنصتوا إلى الأب تورنمين ، ولا لى ، إذا تكلم كل منا عن الآخر ، فإنا ام نعد صديقين ! » . ولقد قيل هذا المسلك بإعجاب بالغ . وأكبر الناس جيمعا صراحته وكرم نفسه . واعتزمت أن انتهج هذا المسلك مع « ديدرو » . ولكن ، كيف كان يتسنى لى أن أعلن من معزلى هذه القطيعة المشروعة ، لاسيما إذا شئت أن اتجنب الفضائح . . . وقررت أن أضمر ، مقالى فقرة من الكتاب المقدس من سفر ابن سيراخ تعبر عن هذه القطيعة - بل وعن موضوعها - بوضوح كاف « لكل من كان يعنيه الأمر ، دون أن تعنى شيئا لبقية الناس . وفوق ذلك » فإلنى عنيبت بالأشير - في المقال - إلى ذلك الصديق الذى نبذته ، إلا بالأسلوب الكريم الذى ينمى على المرء دائما نحو أية صداقة باقية . وفي الومع نيين ذلك في المقال ذاته .

ليس في هذه الدنيا سوى حظ « وسوء حظ ، ولا وسط بينهما . ويبدو أن كل عمل بنطوى على شجاعة وجراة ، لايد وأن ينقلب - عند الخصومة - إلى ذنب وجريمة . ذلك لأن المسلك الذى اجتلب لمونتسكيو الإعجاب ، لم يجلب على أنا سوى اللوم والتقريع . . . فما أن طبع مقالى وحصلت على

نسخ منه ، حتى أرسلت واحدة إلى « سان - لامير » ، الذى كان قد كتب إلى - في اليوم السابق بمباشرة - رسالة باسم السيدة دوديتو واسمه ، زحرت بارق آيات الود (الملف « ب » - رقم ٣٧) . وهاكم الخطاب الذى كتبه لى ، وهو يرد النسخة التى أرسلتها إليه (الملف « ب » - رقم ٣٨) :

« أوبون : - ١ أكتوبر سنة ١٧٥٨

« لم استطع حقا - يا سيدي - أن أقبل الهدية التى أرسلتها إلى . فعند ما بلغت من مقدمتك الفقرة التى ذكرت فيها ديدرو ، وأوردت فقرة من « سفر الجامعة » - وقد أخطأ هنا . فهى من سفر ابن سيراخ - وقع الكتاب من يدي . فلقد بدا لى - بعد الحديث الذى دار بيننا إبان هذا الصيف - أنك كنت مقتنعا ببراءة ديدرو من المخالفات المزعومة التى رميته بها .

« ومن الجائز أن يكون قد أخطأ في حقل . فليست أدري . . . ولكن الذى أدريه ، هو أن هذه الأخطاء لا تعطيك الحق في أن توجه إليه إهانة علنية . فإنت لا تجهل الاضطهادات التى يمانها ، وما انتذا تضم صوت صديق قديم إلى صرخات الحاسدين . . . ولست أتكلم يا سيدي ، مدى ما تثيرنى هذه القسوة الفظيعة . . . إننى لا أعاشر ديدرو ، ولكنى أجله وأكرمه ، وأشعر بحدة الألم الذى تسببه لرجل لم تأخذ عليه - فيما بيننا ، على الأقل - ما لا يحق اللوم ، القس الاقرار ضئيلا من الضعف .

« إننا لنتخلف كثيرا يا سيدي ، من ناحية المبدأ ، بحيث لن ينسئ لنا أن نكون على اتفاق يوما . فأنسى وجودي . ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك . فأنسى لم أفعل قط من الخير — أو الشر — لأرجال . ما يظل في الأذهان أمدا طويلا . وأعاهدك يا سيدي — من ناحيتي — على أن أنسى شخصك . والا أذكر في نفسي سوى « واهبك » .

ولم يكن شعوري بالألم ، أقل من شعوري بالثشم والغضب للكرامة ، من جراء هذا الخطاب . وفي فورة شقائي ، وقد استرددت عزة نفسي ، رددت عليه بالرسالة التالية :

« مونورنسي : ١١ أكتوبر سنة ١٧٥٨ »

« سيدي : ما إن قرأت خطابك ، حتى شرفتك بالدهشة منه . ولقد كنت من الحباقة بحيث تأثرت به ، ولكنى وجدته غير جدير بالرد !

« إننى غير راغب في مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيدة دوديتو ، وإذا لم يرق لها أن تحتفظ بها لديها بنها . فنى وسمعا أن ترددها إلى ، وساعيد لها نقودها . أما إذا استبقته ، فلها أن ترسل — في أى وقت شأعت — في طلب ما بقى من أوراقها ونقودها . وإنى لأرجوها — في الوقت ذاته — أن ترد إلى ما يكون لديها من أوراقى .

« ووداعا يا سيدي . . . »

والشجاعة في المحن ، تلقى الروح في القلوب الهيباء ، ولكنها تشرح القلوب الكريمة . ويبدو أن هذه الرسالة قد ردت « سان — لامبير » إلى حجاب نفهم على ما فعل . ولكنه كان

من الإصراف في الكبرياء . بحيث تعذر عليه أن يقر بذلك صراحة . فلذا بالصمت ، ولعله كان يعد المدة ليكمل الضربة — التى وجهها إلى — مينة . . . وإن هى إلا خمسة عشر يوما : حتى تلقيت من السيد سيبيناي الرسالة التالية (الملف « ب » الرسالة رقم ١٠) :

« هذا الخميس : ٢٦ »

« تلقيت يا سيدي ، الكتاب الذى تكرمت بإرساله . وإنى لأقرؤه ببغطة بالغة . وهذا هو الإحساس الذى اعتاد أن يداخلنى دائما ، وأنا أقرأ كل المؤلفات التى نفتها قلبي . فتقبل جزيل شكرى . ولقد كنت أود أن أقدم لك شخصيا « لو أن شئونى سمحت لى بأن أقيم وقتا على مقربة من مقامك . ولكننى قل أن نزلت بلاشيفريت في هذا العام .

« إن السيد والسيدة دوبان قادمان لقاول الغداء عندى : يوم الأحد القادم . كما أتوقع أن يكون بين الحضور السيدان دى سان — لامبير ، ودى فرانكويى ، والسيدة دوديتو . ولسوف يكون من دواعى غيظتى حقا ، أن تكون بيننا يا سيدي . إن كل الذين سيكونون في دارى ، يرغبون في وجودك . وسوف يقبضون بأن يشاطرونى متعة قضاء بعض اليوم معك . « وإنه ليشرغنى أن تكون ، مع أكمل التقدير . . . الخ » .

وأخذ قلبى يدق بعنف مروع ، من جراء هذا الخطاب . ذلك لأن فكرة الظهور أمام السيدة دوديتو — كما حديث باريس عاميا بأكمله — جعلتني أرتجف ذولا . فكل أحد الجرة

الكافية على أن أواجه هذا الاختبار . ومع ذلك ، فقد كان سان - لامير راغباً في ذلك ، وقد تكلم ديبيناي نيابة عن كل ضيوفه ، ولم يكن بينهم من لا اغتبط بقلائه .. ومن ثم فأننى انتهيت إلى أنى لن أكون - من كافة الاعتبارات - متطفلاً . إذا قبلت دعوة إلى الغداء . كنت مدعوا إليها من كافة الضيوف . ولهذا فأننى وعدت بالحضور . وكان يوم الأحد مبدئ الطقس فأرسل السيد ديبيناي عربته لتقبنى . فذهبت !



وأثار وصولي عاصفة من المشاعر الطيبة ، فما قدر لى يوماً أن أحظى باستقبال يفوق هذا مودة وحفاوة .. حتى لممكن القول بأن القوم كانوا يشعرون بمدى حاجتى إلى ما بشرح صدرى . ولا تدرى سوى القلوب الفرنسية مثل هذه الألوان من المواطف . على أننى وجدت أناساً أكثر مما كنت أتوقع ، بينهم الكونت دوديتو - الذى لم أكن قد تعرفت عليه قط - وأخته السيدة دى بلينفى ، التى كنت أرجو أن أعفى من مقابلتها . وكانت قد وفدت على (أوبون) مرات عديدة ، فى العام السابق ، وكانت زوجة أخيها تتركها تحرق الإرم غيظاً عندما كنا نطلق فى نزهاتنا الخلوية وحيدين . ومن ثم فقد نولاهما نحوى نفور راحت ترضيه - أثناء المأدبة - على هودة .. فمن الممكن حدسه ، إن وجود الكونت دوديتو وسان - لامير لم يكن مبعث طرب لى ، وإن الرجل الذى تتولاه الحيرة والخرج - فى مثل هذه المناسبات - لا يستطيع أن يتألق فيها بسهولة .. أبداً ما عاقبت مثل ما عاقبت إذ ذاك ، ولا اكهر محبائى كما

اكهر فى هذه المناسبة ، ولا تعرضت لحملات لم تكن متوقعة كذلك التى تعرضت إليها من هذه السيدة .

وعندما غادرنا المائدة أخيراً ، ابتعدت عن هذه المرأة السليطة وصرنى أن رأيت سان - لامير والسيدة دوديتو يسعيان نحوى نطلتنا شطراً من غرفة ما بعد الظهر ، نتجاذب الحديث فى مسائل لم تكن ذات بال ، فى الواقع ، ولكنها اتاحت لنا عين الألفة التى كانت بيننا قبل طيشى . ولم يغفل قلبى قط هذا الود ، ولو أن سان - لامير استطاع أن يطلع على دخيلتى - لأطمان إلى ذلك يقيناً . وبوسعى أن أقسم أنه بالرغم من أن مرأى السيدة دوديتو - عند وصولي - قد أثار ضربات قلبى فى غف بالغ . حتى أوشكت أن أفقد وعيى ، إلا أننى لم أكسد افكر فيها - عندما انصرفت - إذ شغلت عنها بسان - لامير !

وبالرغم من السخریات الخبيثة - التى صدرت عن السيدة دى بلينفى - إلا أن هذه المأدبة شرحت صدرى ، فرحت أهنى نفسى بحرارة على أننى لم أرفض الدعوة . فلقد تبينت هناك أن سائس جريم وعصبة دولباخ ، لم تثبتت أصدقائى القدامى عنى (١) . وليس هذا جل ما تبينت ، بل إن بشاعر السيدة دوديتو وسان - لامير لم تتحول كما كنت أتوقع .. واستطعت أن أفهم - أخيراً - أن البعاد الذى حجب السيدة دوديتو عنى ، كان مرده إلى الضرة ، أكثر مما

(١) عقب : روسو « على هذا بقوله

- بسذاجة تلبس - حتى كتابة الاعتراف

كان إلى نقص في تقديرها إياي . ولقد وجدت في هذا عزاء وتسمية ! .. ذلك لأن أطمئنت إلى أنني لم أكن موضع احتقار لدى أولئك الذين كنت اعتر بهم ، كان يمكنني من أن افرض سيطرتي على قلبي بكثير من القوة والتوفيق . وإذا كنت لم أوفق إلى أن أخضع تماماً - في هذا القلب - هوى آتينا ومنحوساً - فأنني استطعت ، أن أسيطر على هذا الهوى وأن أرمضه - على الأقل - فلم يدفعني - منذ ذلك الحين - على أن ارتكب خطأ واحداً . وما تزال أعمال النسخ - التي أفرقتني السيدة دوديتو باستثنائها لحسابها - ومؤلفاتي ، التي واصلت إرسالها إليها عند ظهورها .. ما تزال هذه وتلك ، ناتجة منها - بين الحين والحين - برسائل ومذكرات ، قد لا تكون ذات قيمة ، ولكنها باعثة على الرضى .. بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك - كما سيبين فيما بعد - وأن السلك المتبادل بين ثلاثتنا ، بعد أن انقطع اتصالنا ، ليقوم مثالا على الطريقة التي يفرق بها أهل الشرف ، عندما يصبح من المستحب ألا يلتقوا !

وهناك نفع آخر أتدته من هذه المادبة . ذلك هو أنها صارت حديث باريس ، واتخذت ككليل قاطع يحض الشائعة التي كان أعدائي قد روجوا لها في كل مكان ، عن أنني كنت على أشد الخصام مع أولئك الذين حضروها جميعاً ، لا سيما السيد ديبيناي بالذات ! .. وكنت قد كتبت له - عند مبارحة (ليرميتر) - رسالة شسكر جد مهنية ، أجاب عنها يادب مماثل ، ولم تنقطع بيننا المجلات المتبادلة ، سواء بيني وبينه . أو بيني وبين السيد « نى لانيف » - شقيقه - الذي كان يقد

إلى (مونورنسى) لزيارتي ، ويصمت إلى بصره . وفيما عدا زوجتي شقيقى السيدة دوديتو ، لم أكن يوماً على علاقة سينة بأحد من الأسرة .

ولقد حظى مقالى الموجه إلى « دالمبير » بنجاح عظيم . ولقد كان هذا شأن مؤلفاتي جميعاً ، ولكن هذا المقال بالذات ، كان أحبها إلى نفسي ، إذ أنه نبه الراى العام إلى عديم الثقة بتخرصات عصبة دولباخ . فعندما انتقلت إلى (ليرميتر) - تنبأوا - باعتدادهم الماثور - بأننى إن استطعت بقاء هناك ، لأكثر من ثلاثة أشهر . حتى إذا راوئى أمكث هناك عشرين شهراً ، ثم اظلم - بعد أن اضطررت إلى مبارحته - في الريف . راحوا يتشددون بأن هذا لم يكن سوى مجرد عناد محض ، وأننى قد ضقت - إلى حد الموت - بعزلى ، ولكن الشرور والكبراء كانوا يفرين قلبى ، وبجمالنى أوتر الموت هناك - ضحية العناد - على أن أرجع عن رأى وأعود إلى باريس . ولكن رسالتى إلى « دلبير » جاءت عيفة بأنفاس روح واعدة ، في غير اصطناع . ولو أننى كنت أعانى النكد في عزلى ، أبداً هذا ملموساً في لهجتي ، كما كان يبدو جلياً في جميع ما كنت قد كتبت إبان إقامتى في باريس .. ولكن هذه الروح اختفت في أول مؤلف وضعت في الريف . وقد كانت هذه الظاهرة برهانا قاطعاً لدى القادرين على الملاحظة . إذ راوا - في مقالى - أننى عدت إلى طبيعتى !

ومع ذلك ، فإن هذا المقال - المنع بالاطلاق - قد جلب لى

عدوا جديدا في عالم الأدب ، من جراء غفلى وسوء طالعى المهود ! . ذلك أننى كنت قد تعرفت - لدى السيد ديلا بوليتيير - على « مارمونتيل » ، ثم توفى هذا التعارف لدى البارون . وكان مارمونتيل يقول - إذ ذاك - تحرير صحيفة « ميركور دى فرانس » . ولما كنت أرى بنفسى أن أرسل مؤلفاتى إلى أولئك الذين يكتبون للصحف ، ومع ذلك فقد كنت راغبا في أن أرسل هذا المؤلف بالذات إلى مارمونتيل . دون أن أشعره بأنه موجه إليه ك محرر « أو لكى يتحدث عنه في صحيفته ، فقد كتبت على النسخة التى أرسلتها إليه ، أنها غير موجهة إلى « محرر الميركور » ، وإنما إلى « السيد مارمونتيل » . وظننت أننى بذلك كنت أقدم له مجاملة لطيفة ، ولكنه - كما بدا - رأى فيها إهانة بالغة : فاصبح عدوا لا تهذا لخصامه سورة . وكتب ضد مقالى مقالا مؤدبا ، ولكن أسلوبه لم يخل من غل ملوس . ومن ذلك الحين : لم بدع فرصة تمر دون أن يطعننى في المجتمع « أو أن يسئ إلى - في مؤلفاته - بساءة غير مباشرة . . إلى هذا الحد يتعذر ترويض أثنائية أهل الأدب ، وإلى هذا الحد يجب أن يكون المرء على حذر فيما يوجهه إليهم من مجاملات ، فلا بدع أى شئ يمكن أن يؤول على غير معناه !

سنة ١٧٥٩

أما وقد غدت مطمئنا ، من كل جانب . فقد رحت أستقل فراغى وحريقتى في استئناف أعمالى الأدبية بمزيد من الانتظام . فأنتمت - في ذلك الشتاء - « جولى » ، وأرسلتها

إلى « ريه » الذى أتم طباعتها في العام التالى . غير أن انصرافى إلى العمل ، لم يلبث أن اضطرب من جراء حادث تافه ، ولكنه مكرر . فخلد علمت أن الاستعداد كان يجسرى في « الأوبرا » لعرض « عراف القرية » من جديد ، وغاظنى أن وجدت أولئك القوم يتصرمون في إلتجائى ، دون اكتراث بى ، فعمدت إلى المذكرة التى كنت قد أرسلتها - يوما - إلى السيد دارجنسون ولم ألتق عنها جوابا ، فنقحتها « وأرسلتها عن طريق السيد « سيلون » ، مع خطاب تكرم بأن يعنى بتسليمه إلى السيد الكونت « دى سان - فلورنتان » الذى كان قد خلف السيد دارجنسون في إدارة دار « الأوبرا » . ولقد تحدث « ديكلو » - إذ أتباته بما فعلت - إلى « الكمانين الصغيرين » بهذا الشأن ، فعرضا عليه أن يعيدا إلى ، لا أوبراى ، وإنما التصريح بدخول الدار دون مقابل ، وهو ما لم يكن ذا نفع لى . وإذ رايت أنه لا أمل لى في أى إنصاف ، فقد تخلت عن المسألة كلها . وواصل المشرفون على إدارة « الأوبرا » استغلال « عراف القرية » وفق عوامهم - وكأنتها ملك خاص لهم - ويجنون منها الأرباح ، دون أن يعنوا بالرد على احتجاجاتى « أو ينصتوا إليها ، مع أن هذه « الأوبرا » ملك لى وحدى ، دون منازع (١) .

١ أضاف « روسو » إلى هذه المذكرة التعليق التالى : « اعترف بأن كل ما استطعت - منذ كتابة هذا المؤلف - أن أجعله على بصيرة الصحافة - التى تحيط بى ، يجعلنى أخشى ألا أكون مستحقا لثقتهم . »

ومذ نفذت عن نفسي ريقة الطفأة الذين أوسمونى جورا .
رحلت أعيش حياة سهلة ، مسترسلة ، وادعة . وقد حرمت
من متعة علاقتين من أقوى العلاقات العاطفية ، وتحرورت من
أغلالها الثقيلة . ولفرط متقى للأصدقاء « الحياة » ، الذين
كانوا يظهرن رعايتهم لى ، لمجرد الرغبة فى أن يوجهوا مصيرى
وفق هواهم ، وأن يجعلونى - على الرغم منى - أسير
أفعالهم المزعومة . عتدت العزم . على أن أقصر علاقائى
- فى المستقبل - على مجرد حسن النية والود الخالص .
الذى يضمنى على الحياة بهجة - دون أن يفرض لى قيود على
الحرية التامة - والذى يقوم على أساس المساواة الكاملة . .
ولقد كان لدى من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لأن يمكنى
من أن أتذوق متعة الجماعة والإنسان ، دون أن أكون مضطرا
إلى أن أعتد عليها اعتمادا يحد من استقلالى . وما أن جريت
هذا الأسلوب من أساليب الحياة ، حتى شعرت بأنه أنسبها
لبنى ، ولأنضى الأيام الباقية من عمرى فى سلام ، بعيدا عن
الأنواء ، والخلافات ، والمسايقات ، التى كنت أغرق فى
حياتها ، فى الفترة الأخيرة .



وكتبت خلال إقامتى فى (ليرميساج) ، ومنذ أن استقررت
المقام فى (مونورنسى) قد عقدت حفلات تعارف مستنحة ، فى
المنطقة لم تكن تفرض على أية التزامات . وعلى رأس هؤلاء
المعارف « لويزو دى موليون » الشاب ، الذى كان ما يزال فى
بداية عمله كمعلم ، وعلى جهل بالمركز الذى كان موشكا أن

بشغله . ولم تكن لدى من المواجهس مثل ما تولد ، فرحت
أبين له الحياة العملية الموفقة ، التى ينعم بها اليوم . وتثبت
له بأنه إذا حرص أشد الحرص على تخير قضاياه ، وإذا هو
تثبت دائما بالدفاع عن الحق والفضيلة ، فإن هذه المشاعر
السامية لن تثبت أن تصقل نبوغه ، وتجعله فى صف كبار
الحالمين والخطباء . ولقد تبع نصيحى « وإنه ليحظى اليوم
بالنتيجة . ولقد كان دفاعه عن السيد « دى بورت » ، خليقا
بأن يعادل ما كن يصدر عن الخطيب الإغريقى « ديموستين » . .
وكان يند لقضاء عطلة من كل عام ، فى « سان - بريس » -
على أربعة فراسخ من ليرميناك - فى ضيعة آل موليون التى
كانت تمتلكها أمه ، والتى عاش فيها من قبل (بوسيويه) العظيم .
وهى ضيعة أدى تعاقب أمثال هؤلاء الملأ عليها ، إلى تدهور
بقاء أسرة إقطاعية على أرضها !

وكان لى فى القرية ذاتها - « سان - بريس » - صديق
آخر ، هو الكتيبى جيران . . وكان رجلا موهوبا ، مطلعا ،
لطيفا ، وفى أرقى مصاف أبناء مهنه . ولقد تعرضت بفضلها إلى
« جان تياولم » ، وكان صديقا له من باعة الكتب ، على تراسل
مستمر معه . وهو الذى نشر كتابى « أميل » ، فبما بعد .
وعلى مسافة أثنى من « سان - بريس » ، تعرفت إلى راعى
كنيسة (جرومولى) - السيد مالفور - الذى كان يصلح لأن
يكون وزيراً ومن رجال الحكم ، منه لأن يكون خوريا لكنيسة
إحدى القرى . . أو كان جديرا - على الأقل - بأبرشة بدرها ،
إذا قدر للهواهب أن تتحد مراكز الرجال . . . ولقد كان يوما
سكرتيرا للكونت « دولوك » ، وهو غطه بصلان ، تافهست روسو

معرفة وثيقة . وكان خعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل - الذى قدر له أن يقضى عن موطنه - بقدر ما كان ملئ القلب بالملت لذلك الوغد (سوراني) الذى كان سببا فى القضاء على ذلك الشاعر . - وكان الخورى يعرف عددا من النواذر الطريفة عن كل منهما ، لم يفكرهما « سيجاي » فى سيرة الشاعر . التى لم تنشر بعد . ولقد أكد لى السيد مالتور أن الكونت دولوك لم يجد يوما سبيلا إلى الشكوى منه . بل إنه ظل يكن له صداقة حارة إلى آخر أيام حياته . ولقد مضى السيد دى فانتيل الخورى منصبه المريح - بعد وفاة مخدمه السابق - ليعيش فى عزلة هادئة . وقد روى لى أنه استخدم - قبل ذلك - فى كثير من الأعمال ، ظل - رغم تقدم سنه - يحتفظ بذكريات واضحة لها . وكان يحدثنى عنها بلهجة تتم عن حكمة وحصانة . وكان حديثه مفيدا بقدر ما كان مسليا ، لا يوحى إلى المرء تطبعه « خورى » القرية . وكان يجتمع بين دارية الرجل الخير بالدنيا ، وشوق الطالب الراغب فى التعليم . ولقد كانت صحبتى على أحب صحبة إلى بعض المقيمين فى المنطقة من جيرانى . ولقد فارقته وفى نفسى ابلىح الأسف لذلك .

وتعرفت فى مونبورنسى إلى أعضاء هيئة الوعظ ، ومنهم الأب « بيرنييه » الذى كان أستاذا فى العلوم الطبيعية ، والذي توفقت صلتى به - برغم نحة من الاختيال بعلمه فى خلقه - لما لمسته فيه من طيبة . على أننى وجدت غشاء فى محاولة التوفيق بين سذاجته المرسفة ، وبين تحليله على أن يزج بنفسه فى كل مكان . . فى دور العظماء ، وبين النساء ، ولدى

الإنقياء ، وفى أوساط الفلاسفة . كان يعرف كيف يرضى أهواء جميع الناس ! . . ولقد وجدت مئة بالفة فى صحبتى ، ورحلت اتحدث عنه إلى كل إنسان ، ومن الجلى أن كل ما كنت أقوله عنه ، قد نعى إليه . فقد شكرنى ذات يوم ، مبتسما ، لأننى كنت اعتبره رجلا طيبا . ولحقت فى ابتسامته لونا من اللؤم بدل مسخنة - فى نظرى - بتجديلا تاما ، ولا تزال هذه الابتسامة تتدلى فى ذاكرتى أحيانا . منذ ذاك الحين . ولمست أمك أن أصورها بأكثر من أنها ابتسامة « باتورج » وهو بيتاع أغنام « داندينو » . . ولقد بدأ تمارفنا عقب وصولى إلى (ليرميلاج) بوقت قصير ، ثم أخذ بككر من التردد على الدار لزيارتى بعد ذلك .

وكنت قد استقررت فى مقامى فى (مونبورنسى) ، عندما رحل الأب « بيرنييه » إلى باريس ، ليقيم فيها . وهناك أخذ يلتقى بالسيدة لوناسير فى كثير من الأحيان . وقد كتب لى ذات يوم - كان فيه أبعد الناس عن ذهنى - بطلعنى ، على لسان هذه المرأة ، على أن « جريم » عرض عليها أن يعولها ، ويستألفنى باسمها فى قبول هذا العرض . وعلمت أن جريم عرض عليها معاشا قدره ثلاثمائة لييرة ، على شريطة أن تذهب لتقيم فى (دوى) ، بين (لاشيفريت) و (مونبورنسى) . . ولست بحاجة إلى أن أذكر وقع هذا النبأ على نفسى . . لقد أثار دهشة تفوق ما لو علمت أن « جريم » أوتى دخلا قدره مائة ألف لييرة ، أو أنه أنشأ علاقة غير شرعية مع هذه المرأة ! . . وكأنه لم يعتبره إجراما منى أن أصطحب هذه المرأة إلى

ذات الريف الذى يميل الآن إلى إعادتها إليه . . أو كان السن رجعت بها القهقرى منذ اثار هذا الاتهام !

وأدركت أن العجوز المأكرة ما كتبت تسألنى الإذن - وهى التى لم تكن تتورع عن أن تفضى البصر عنه إذا ما رفضت - إلا لى تتفادى أن تقدم ما كتبت أمحها إياه من ناحيتى . ومع أن هذا التطوع للخير - من جانب جريم - بدأ غير عادى فى عيني إلا أنه لم يشغلنى إذا ذاك ، بقدر ما شغلنى فيما بعد . على أنه لو قدر لى حينذاك أن أعرف كل ما عرفت بعده ، لما أحجبت عن أن أعلنها بموافقتى - كما فعلت إذ ذاك - ما لم أكن على استعداد لأن أعرضها عما عرضه عليها « جريم » ! ومنذ ذلك الحين أبرأتى ، الأب « بيرتييه » من الاغترار بطبيعة الأمر الذى بدا له عجيبا ، حين صارحته به فى غياب !



كان هذا الأب « بيرتييه » بالذات ، على معرفة برجلين ، كانا بدوريهما ينشدان القمصان القمصان ، دون أن أدري لذلك داعيا ، إذ لم يكن ثمة تقارب يذكر - فى الواقع - بين ميولهما وميولى . ذاك هما أبنا « ميلشيسديك » اللذان لم يقدر لأحد أن يعرف وطنهما ، ولا أسرتهما « بل - وريا - لقبهما الحقيقى . وكانا من « الليانسيين » (١) وقد أخذهما القوم على أنهما راهبان مستخفيان ، ولعل ذلك كان راجعا إلى عاداتهما التى كانت

(١) « الليانسيون » أتباع مذهب دينى ، ورد شرحه فى الجزء الأول من الاعترافات .

تعرضهما للمسخرية . . عادة حمل سيقين طويلين ، كانا يتشبان بهما . وكانت السرية الضالفة التى راحا يسبغنها على كل تصرفاتهما ، تكسبهما مظهر زعماء الأحزاب أو الشيع ، ولم أشك قط فى أنها هما اللذان كانا يصدران « الجازيت » اكليسييا سنك » ، الصحيفة الدينية .

وكان أحدهما فارغ القامة ، بشوشا ، متبلقا « يدعى السيد « فيرو » . . أما الآخر « فكان قلة فى الجسم ، ربعة القوام « ساخرا ، كثير الجدل فيما لا طائل منه ، ويدعى السيد « بينار » . وكان كل منهما ينادى الآخر بيا « ابن العم » . وكانا يقيمان فى باريس مع « داليمير » ، فى بيت مربيتيه ، وقد اتخذا فى « مومورنسى » بيتا صغيرا « راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام ، وكانا يدبران شئون بيتهما بنفسيهما « دون خدم ولا حشم . وكانا يتناولان أسبوعيا الذهاب إلى السوق ، والطهو ، وكلمت البيت . وفيما عدا ذلك ، كانا يعيشان ناعمين ، وكنت أتناول الطعام على مائدتهما ، ويتناولانه على مائعتى ، فى بعض الأحيان . ولست أدري السر فى أنهما كانا يشغلان بى ، فى حين أننى لم أكن أحفل بهما إلا لأنهما كانا يهويسان الشطرنج . . ولكى أظفر ببشارة صغيرة ، متواضعة ، كنت احتل أربع ساعات مضجرة . ولما كانا يسعيان إلى أن يدسا أنفسيهما فى كل شيء ، فإن « تيريز » أطلقت عليهما اسم « الثرثارين » ، وقد لصق بهما هذا الاسم فى (مومورنسى) .

هؤلاء ، مع السيد متى - صاحب بيتى - المثلث كان رجلا وقورا - كانوا أهم معارفى فى

بعدد كاف في باريس « لكن أنسى إلى الحياة هناك — كلها طاب لى ذلك — خارج نطاق وسط الأدباء ، حيث لم أكن أعول على صديق سوى « فيكلو » وحده ! .. فقد كان « ديلير » ما يزال جد صغير السن بالنسبة لى . ومع أنه لم يلبث — إذ عرف عن كلب الدسائسين ضدى من العصية الفلسفية — أن نأى بنفسه تجاهها من هذا الوسط ، أو هكذا ظفنته — على الأقل .. ولم أكن قد استطعت بعد أن أنسى سهولة مبادرته إلى جعل نفسه بوقا لكل أولئك المتأمرين !

وكنيت ما أزال أحتفظ — فى المكانة الأولى — بصديقتى القديم المحترم السيد « روجان » . وهو من اصفاء الأيام الطبية . الذين لا أدين بمعرفتهم لكتاباتى ، وإنما لشخصى . ولهذا السبب استطعت أن أحتفظ به دواما . وكان من أصدقائى أيضا ، مواطنى الشيخ الطيب « لينيب » ، وابنته السيدة « لاميير » ، التى كانت إذ ذاك أرملة . وهناك — كذلك — شاب من « جنيف » يدعى « كوانديه » ، كان نثى طيبا — كما بدا لى — مجتهدا ، خديما ، ذا حية .. بيد أنه كان جاهلا ، متواكلا ، شرها ، فعميا . وقد جاء — منذ البداية — لزيارتى فى « اليرميتاج » ، وبدون دعوة — اللهم إلا من نفسه — استقر فى بيتى « بالرغم منى . وكان على ميل للرسم ، وعلى معرفة بأهل الفن . وقد أفدت منه فى رسوم « جولى » ، فألقى على نفسه أن يشرف على الرسوم واللوحات « الكليشيهات » ، وقد أدى هذه المهمة خير أداء .

وكان لدى — فوق ذلك — بيت السيد دويان ، الذى غدا

أقل بهاء ، مما كان فى أنصر أيام السيدة دويان (أيام شبابها) والذى ظل من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم . وبفضل الصفاة التى كانت تتردد عليه . ولما كنيت قد اعتقدت أن أفضلهم على من عداهم طسرا ، ولم أهجرهم إلا لى أعيش طليقا . فانهم لم يكتفوا قط عن أن يرددونى بعين الود ، وكنيت واثقا من خفاوة السيدة دويان بى فى جميع الاوقات . بل إننى أستطيع اعتبارها من جارأتى فى الريف — كذلك — منذ أتملوا دارا فى (كليشى) ، اعتدت أن ألقى فيها يوما أو يومين — فى بعض الأحيان — وكنيت خليقا بأن أكثر من التردد عليها ، لو أن السيدة دويان والسيدة شينونسو كانتا تعيشان على مزيد من الوثام . ولكن تعذر توزيع اهتمام المرء بين امرأتين لاتنسجبان معا ، جعلنى أضيق كثيرا بكليشى . ولما كنيت مرتبطا بالسيدة شينونسو بود أكثر يسرا وأشد انفة ، فاننى كنت أخطئ بتمعة رؤيتها — وأنا أكثر ارتباطا — فى (دوبي) . التى كانت جد قريبة من مسكنى ، حيث كانت قد استأجرت دارا صغيرة .. كما كنيت أسعد برؤيتها فى دارى ، حيث اعتادت أن تأتى لزيارتى فى كثير من الأحيان .

كذلك كان بين معارفى فى باريس السيدة دى كريكى ، التى أوغلت فى التمدد والتدين ، وكنيت عن لقاء داليمير ومار مونتيل ومن على شاكلتهما ، ومعظم أهل الأدب ، اللهم إلا الاب ترويليه — على ما أعتقد — الذى كان فى ذلك الحين شبه مرء متعلق ، حتى أنها لم تلبث أن ضاقت به . أما أنا فكانت شديد محببى ، ولم تنفد ودها نحوى ، بل ظلت دائما تنسى راسل معي . وقد

أرسلت لى بعض دجاج (لومان) السممين ، كهدية في رأس السنة . كما كانت معتزلة ان تغد لزيارتي في العام التالي ، عندما انسدت عليها خطتها رحلة قامت بها السيدة دي «لوكسبورج» في الوقت ذاته . وإني لأحتفظ لها في نفسي بمكانة خاصة .
ولسوف تظل ذات مقام ممتاز في ذاكرتي على الدوام .

وكان لدى صديق ، جدير بأن أجعله في مقدمة الجميع اللهم إلا روجان . ذلك هو زميلي وصديقي القديم « كاريو » ، الذي أصبح السكرتير الأسمى للسفارة الإسبانية في البندقية ، ثم في السويد ، حيث عينه بلاط بلاده قائما بالأعمال ، ثم عين سكرتير أصليا لسفارة بلاده في باريس . ففاجأني بزيارة (مونورنسي) ، في وقت كنت فيه أبعد ما أكون عن أن أتوقعه . وكان يتقصد وساما إسبانيا - نسيت اسمه - ذا صليب بديع مرصع بالأحجار الكريمة . وكان مضطرا إلى أن يضيف إلى اسمه - في وثائق النسب - حرفا آخر ، فأصبح يحمل اسم « اللينالييه دي كاريون » . ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائما : عين القلب الرائع ، والمقل الذي يزداد لطفا وسحرا يوما بعد يوم . . . وكنت خائفا بأن أعاود الفتى معه ، كما كنا من قبل ، لو لم يدخل « كوانديه » بيننا - كمهده - فبنتهز بعدى عن باريس ، لينسلل - باسمي - إلى مكاني متسه ، ويفقد موضع ثقته ، ويسلبني وده في تحمسه لخدمتي !

وتعيد ذكرى « كاريون » إلى ذهني ذكر أحد جيراني في الريف ، كنت خائفا بأن أغضب أشنع نذب لو اتنى أغفلت

الحديث عنه لا سيما وأتني مسوق إلى ان أعترف بخطا لا يفتقر نحوه ، ذلك هو السيد الكريم «لويولون» ، الذي أدى لى كثيرا من الخدمات في البندقية ، والذي جاء في رحلة إلى فرنسا - مع أسرته - فاستأجرا دارا ريفية في (لابريش) ، التي لم تكن تبعد كثيرا عن (مونورنسي) . وما أن عرفت أنه جاري ، حتى خفق قلبي طربا ، ورأيت أن أزوره بدافع من سرورى ، أكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب . وذهبت لذلك في اليوم التالي مباشرة ، وإذا بي ألقى بأناس كانوا قادمين لزيارتي . فاضطرت إلى العودة معهم . وبعد يومين ، سميت إليه مرة ثالثة ، فوجدته يتناول غداءه في باريس مع أسرته (١) ، وذهبت مرة ثانية ، فإذا به في داره ، وسمعت أصوات نساء ، ورأيت لدى الباب عربة أزعجتني . إذ كنت أود أن أقبله - دون دخيل ولو في المرة الأولى ، على الأقل - لأتكلم معه عن علاقتنا القديمة . وموجز القول ، أنني رحمت أرجى زيارتي يوما بعد آخر ، حتى تمنى حيلتي من التقصير - طيلة هذه المدة - في تحقيق هذا الواجب ، من أن أؤديه إطلاقا . فكان إقدامي على الانتظار طويلا ، سببا في أن لا أجرؤ - في النهاية - على أن أظهر نفسي . ولقد أدى هذا الإهمال - الذي لم يكن السيد لويولون يملك سوى أن يستنكره ، من حق - إلى أن جعل تخالفي يبدو جهودا . ومع ذلك فأتني لم أشعر ..

(١) أضاف روسو : إلى هذه العجالة ، التعقيب التالي : « كنت عند

كتابة هذا ، ممسحا بقلبي القديمة المبيدة ، أبعد ما أكون من أن أرتاب في السبب المصحى لهذه الرحلة إلى باريس ، وفي تعجبها »

في قرارة فؤادي — بأى ترتيب . . ذلك لأننى لسو كنت قادرا على أن أتيح للسيد لوبلون أى سرور حقيقى — وإن لم يكن على علم به — فإنه ما كان ليجدنى ، فى يقينى ، متكاسلا . ولكن الضبول ، والاهمال ، والفتهاون فى أداء الواجبات المفخمة ، كثيرا ما كانت أبلغ إساءة إلى ، بل من أعظم الرذائل . كانت أبشع أخطائى تتمثل فى التفاضى ، فنادرًا ما كنت أفعل ما لم يكن ينبغي أن أفعله ، وأندر من ذلك — لسوء الحظ — أننى لم أكن أفعل ما يجب فعله !



وما نمت قد عسخت إلى المصارف الذين ظفرت بهم فى البندقية « مخلوق بى الا انسى علاقة تتصل بهم ، وقد دامت أبدا أطول من بقية العلاقات . واتصد علاقتى بالسيد دى « جوفينى » ، الذى ظل — منذ عودته من اجنوا — يواصل إيداء كثير من الود نحوى . وكان شديد الشغف بقلبائى ، وبالتحديث عن المسائل والشئون الإيطالية ، وعن حماقات السيد دى مونتيجي ، التى عرف — من ناحيته — بعض نوادرها ، عن طريق وزارة الخارجية « التى كانت له بها كثير من الصلات . ولكم سررت إذ التقيت فى داره بزميلى القديم « دويون » ، الذى كان قد حصل على منصب فى إقليمه ، وكانت شئونه تحمله إلى باريس من آن إلى آخر .

ولقد أخذ السيد جوفينى يزاد الحظا فى لقلبي ، فسينا فشيئا ، حتى أصبح مصدر إزعاج لى . . .



ووايت لدى الباب عربة الأعرجى . إذ كنت أود أن أقبله

— دون دخيل ولم فى المرة الأولى .

متباعدين ، فقد بات يثر خجة بيننا ، إذا انقضى أسبوع كامل دون أن اذهب فالتناول الغداء لديه وكان إذا ذهب إلى ضيعة (جونتى) ، يسمى نوابا إلى اصطحابي ، ولكنني بعد أن قضيت هناك ثمانية أيام - ذات مرة - شعرت بأنها لا تكاد تنصدم ، لم أعد أجد رغبة في العودة إليها . ولقد كان السيد جونتى رجلا كريما ، شهبا - بكل تأكيد - كما كان لطيفا في نواح خاصة ، ولكنه كان محدود الذكاء .. وكان جببلا ، مزهوا بشكله إلى حد ما ، وباعثنا على الضجر .. وكانت لديه مجموعة مريدة في نوعها ، بل لعلها كانت وحيدة في العالم ، فكان جد مشغول بها ، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجيئونها - أحيانا - أقل تشويقا مما كان يجدها هو . تلك كانت مجموعة جد كاملة من أغاني البلاط الملكي ، والأغاني الباريسية - منذ أكثر من خمسين عاما - توجد بينها كثير من الطرائف ، التي كان من المستحيل على الباحث أن يعثر عليها في أي مكان آخر .. وإنما لفكريت في تاريخ فرنسا : نادرا ما تخطر بالبال لدى كاتبة الأمم الأخرى !

وفي ذات يوم - وقد كنا في أوج وثلقنا - استقبلني استقبالا باردا ، جليديا ، لا يماثل مسلكه العادي ، حتى أنني بعد أن اتحت له لمسة ليشرح هذا المسلك - بل وسأله أيضا - فلم يفعل ، خرجت من داره وقد قر عزمي على الأضع نفسي فيها مرة أخرى ، إذ أنني لا أشاهد ثانية - على الإطلاق - حيث أكون قد حظيت باستقبال سيئ مرة .. ولم يكن هنا فيدرو يشغل للسيد دي جونتى . ولقد أرهقت عقلي عينا .

كي اتبين أي ذنب يحفل أن أكون قد ارتكبه نحوه ، إذ أنني لم أستطع أن أتذكر شيئا . وكنت بوقتا من أنني لم أتحدث قط عنه أو عن يمت إليه ، إلا باحترام كبير ، إذ أنني كنت صادقا في ودي له . وبجانب أنني لم أكن أملك ما أقوله عنه سوى كل خير ، فقد كان من أكثر مبادئ صلابة . إلا أني أتحدث عن البيوت التي أزورها ، إلا في إجلال وامانة .

وأخيرا ، وبعد تخطيط ، انتهيت إلى الحدس التالي : ففي آخر مرة التقينا فيها ، دعاني إلى العشاء في مسكن فتيات من معارفه ، مع اثنين أو ثلاثة من موظفي وزارة الخارجية ، وكانوا رجالا متزنين ، لا يبدو عليهم قط أي فجور أو خلاعة .. وبوسعي أن أقسم على أنني - من ناحيتي - قضيت الأسبوع في خواطر حزينة من أجل النصيب القمعي الذي أوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات . ولم أساهم في نفقات العشاء ، لأن السيد دي جونتى كان صاحب الدعوة .. كما أنني لم اذهب الفتيات شيئا ، لأنني لم أتح لهم فرصة التكسب مني ، كما فعلت في واقعة « البادوانا » (١) . وبعد ثلاثة أيام أو أربعة - لم أزر فيها الفتيات مرة أخرى - ذهبت لتناول الغداء في دار السيد دي جونتى ، الذي لم أكن قد رأيته منذ تلك المناسبة ، فإذا به يستقبلني على النحو الذي ذكرته . ولما لم أستطع أن أتصور سببا سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لأمر ما يتصل بذلك العشاء ، وإذ تبين أنه غير راغب في أن يشح

بملكه « فقد انقطعت عن زيارته ، ولكنى ظلمت أرسل إليه مؤلفاتي ، فكان يبعث إلي - أحيانا - بتحياته .

وفي ذات مساء ، قابلته في غرفة الاستراحة بمسرح «الكوميدي» ، فإذا به يقب علي في لطف أنني لم أعد أزوره ، ولكن هذا لم يحملني على العودة إليه . وهكذا ، بدا الأمر - في هذه الحالة - مجرد إحجام أكثر منه قطيعة . . . علي أنني لم أره قط بعد ذلك ، ولا سمعت عنه مزيدا بعد ذلك الوقت . وقد تكون الفرصة جد متأخرة - بعد أن انقضت صلقتنا لمدة سنوات - لكي تجدد صداقتنا ، وهذا هو السبب في أنني لم أفكر هنا السيد دي جونفلي ، بين الاصحاء الذين ظلمت احتفظ بهم في باريس ، برغم أنني ترددت على داره فترة طويلة .



علي أنني لن أضخم هذه القائمة بأسماء معارف آخرين أقل الفة ، أو أسماء أولئك الذين قل توثق الفتي بهم تدريجا ، لتغيب عنهم ، ولو أنني ما أزال أراهم في الريف أحيانا ، سواء في داري أو في دور جيراني . ومنهم - على سبيل المثال - الراهبان دي كونديللاك ، ودي مابلي ، والسادة دي ميران ، ودي لاليف ، ودي بواجبلو ، وواتيليه ، واتسيليه ، وغيرهم ممن يطول سرد أسمائهم . كذلك أورد في ذكر عابر ، السيد دي مارجينسي ، الأمين الخاص للملك ، والعضو القديم في ندوة دولياخ ، والذي لم يلبث أن هجرها كما هجرتها أنا ، وقد كان صديقا حميما للسيدة ديبيناي ، ولم يلبث أن انفصل عنها كما انفصلت أنا . . ثم أذكر صديقه «ديباهي» ، مؤلف المسرحية

الفكهة : «السفيه» ، الذي اكتسب شهرة ، ولكنه لم يلبث أن غاب عن الأذهان والاسماع . ولقد كان الأول - دي مارجينسي - جارا لي في الريف ، إذ كانت ضيعة (دي مارجينسي) قريبة من «مونورنسي» . وكنا على تعارف قديم ، ولكن الجوار ، وبعض التشابه في تجاربنا في الحياة « قريبا بيننا ! . . أها الثاني ، فلم يلبث أن مات بعد تمرغنا بقليل . وكان ذا كفاءة وذكاء ، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكهة ، في بعض النواحي ، إذ كان ماجنا - بعض الشيء - مع النساء ، ولم يحظ بكثير من الأسف أو الحزن عند موته !

علي أنني لا أستطيع أن أغفل علاقة جديدة بالمراسلة - في تلك الآونة - كان لها من الأثر علي ما تبقى من حياتي ، ما لا يدعني أتجاوز ذكر منشئها . وأقصد بهذا السيد « دي لاموايون دي ماليزيرب » . أول رئيس لجلس الموعنة ، الذي كان - إذ ذاك - رقيقا على الكتب المطبوعة ، وقد أدى مهمته بكثير من الحصانة وسعة الأفق واللين ، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الأدب . ولم أكن قد زرته قط في باريس ، ولكنني كتبت التي منه كثيرا من التيسيرات الجديرة بالتقدير ، نميا يتعلق بالرقابة . . وقد علمت أنه في أكثر من مناسبة ، كان يؤنب - في تسوة - أولئك الذين اعتادوا أن يكتبوا ضدي . ولقد وقعت على أدلة جديدة على كرمه وانضاله ، بالنسبة لنشر « جولي » . فحين إرسال « بروفات » مؤلف ضخمة كذا من « أمستردام » - حيث كان يطبع - كنت بمحض ومن ثم فقه سمح بأن ترد باسمه هو ، إذ كانت أمستردام تشتهر به

إليه معصاة من رسوم الميريد . فكانت « البرونات » ترسل باسمه ، فيبعث بها إلي دون نفقات كذلك ، بفضل والده السيد حامل الاختام . وعندنا تم طبع الكتاب ، رفض بيعه في الملكة إلا بعد طبعة دبر أمرها ، بحيث يؤول ربحها إلى وحسدى ، بالرغم منى . . ولما كان هذا الربح يقتصر - من جانبي - سرقة وجورا على حقوق الناشر « ريه » ، الذي كنت قد بعته أصول كتابي ، فإني لم أرفض محسب قبول هذه الهدية - التي دبرت لي بدون إذنه ، وإن كان قد أقرها في كرم النفس - بل إنني رغبت في أن أقتسم معه المائة « بيستول » التي نجمت منها ، والتي أرى أن يقبل منها شيئا . ولقد ضابقتي هذه المائة « بيستول » ، إذ لم يكن السيد دي ماليزيرب قد شاورني في أمرها ، ولم يمهّد لدي حتى أكون على علم إذ أرى مؤلفي يستغل استقلاله بغضا . فيمنع بيع الطبعة الجديدة ، رئيسا نستفيد نسخ الطبعة الرديئة ! (١) .

ولقد امتدت ان انظر دائما إلى السيد دي ماليزيرب كرجل اجمعت الشواهد على استقامته . فما حيلني شيء مما حدث على أن أرتاب في أمانته لحظة واحدة ، ولكنه كان ضعيفا بقدر ما كان شريفا ، ومن ثم فإله كان يسبب المضايقات أحيانا ، لأولئك الذين كان يشغل بأورهم ، رغبة منه في حمايتهم ، وفي سبيل هذا لم يكف بأن أمر بحذف أكثر من مائة صفحة من

(١) الطبعة الجديدة هي التي طبعت في (امستردام) ، أما الرديئة فهي التي دبر « دي ماليزيرب » إدارتها في باريس لمصلحة « روسو » .

طبعة باريس ، بل إنه عدا على النسخة التي أرسلها إلى السيدة « دي بومبادور » - من الطبعة الجديدة - بطريفة جديدة بأن تسمى انتهاكا للأمانة . فلقد قيل في سياق ذلك الكتاب ، إن زوجة الفحام أجدر بالاحترام من عشيقه أمير . وإنني لأقسم على أن هذه العبارة قد عرضت لي في سياق التأليف ، دون أن يقصد بها أحد . وقد تبينت - عندما أعدت قراءة الكتاب - أن الخواطر قد تتجه إلى شخص بالذات . غير أنني لم أشأ أن احذف هذه العبارة ، جريا على مبدئي الصلب المتصنت ، من عدم حذف أي شيء مراعاة لى تأويل قد يحمل على محله ، ما دام ضميري شاهدا على أنني لم أكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبتنه . . . واكتفيت بأن أبدلت كلمة « ملك » - التي كنت قد كتبتها في بادئ الأمر - بكلمة « أمير » !

ولم يرض هذا التعديل السيد دي ماليزيرب - على ما بدا - فحذف العبارة تماما في طبعة جديدة للصفحة في ورقة مستقلة ، الصقها في عناية نامة على الصفحة الأصلية ، في النسخة الموجهة إلى السيدة دي بومبادور . على أنها لم تهمل هذه الحيلة من حيل التعمية ، فقد وجدت بعض نفوس « طيبة » ! أطلعتهما عليها . أما أنا - فلم أعلم بها إلا بعد زمن طويل ، عندما شرعت أحسن آثارها !
أو ليس هذا - بدوره - أصل كراهية مستترة ، ولكنها مريرة ، من سيدة أخرى كانت في وضع مشابه (١) ، وإن لم

LooLoe

(١) يقصد الكونتيسة دي بولير ، التي كانت

اعرف عنه شيئا - بل ولا كنت قد عرفتها هي عنهما ككتبت هذه الفقرة ٤٠ . ولقد تم تعارفي بها عنهما نشر الكتاب ، فسمعت بكثير من القلق وعدم الارتياح ، وأعربت عن ذلك للشيفالييه دى لورنزي ، الذى ضحك ساخرا ، واكد لى ان هذه السيدة لم تمس بما يجروح كرامتها فى شيء ، بل إنها لم تنتهى إلى الامر . ولقد صدقت قوله ، ولعلنى كنت مقلها بعض الشيء عليه . فاستمدت طمأنينتى فى وقت لم يكن من الملائم لى ان اطمن فيه !

وتلقيت مع مقدم الشتاء « دليلا جديدا على كرم السيد دى ماليزيرب » قدرته كل التقدير « وإن لم أر من الحكمة ان انتفع به . فلقد كان ثمة منصب خال فى صحيفة العلماء ، « جورنال ديه سافان » ، وقد كتب لى « مارجينسى » يمرض هذا المنصب على ، وكأنه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه ، بيد انه كان من اليسير على ان ارى من أسلوب خطابه (الملقب « ج » - رقم ٣٣) انه كان يعمل بأوامر من سسلطة فوقه . . بل إننى أوحى إلى بنفسه ، فى خطاب ثال (الملقب « ج » - رقم ٧) انه كان مكلفا بأن يعرض على المنصب . وكان الميل بسيطا ، بتألف من قطعتين تستغلان شهرين من كتب ترسل إلى ، ومن ثم فلن أكون بحاجة قط إلى ان اذهب إلى باريس - ولو فى زيارة للمسئول ، أقدم فيها شكرى . ولقد مهد لى هذا المنصب سبيل دخول مجتمع ادباء الطبقة الاولى . السادة : ميران ، وكليرو ، ودى جيينى ، والراهب بارثليمى . وقد كنت على تعارف سابق بالأولين ، فتطلعت فى غبطة إلى التعرف بالآخرين . .

ومع كل ذلك ، كان لى ان اتقاضى عن هذا العمل غير المرهق - الذى كان من السهل على اداؤه - مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك ، مخصصة لهذا المنصب . . وفكرت بضع ساعات ، قبل ان انتهى إلى قرار . وبومضى ان أقسم بان تردى ما كان راجعا إلا إلى الخوف من إغصاب مارجينسى ، وعدم إرضاء السيد دى ماليزيرب . على ان الضيق - الذى لم اقو على مقاومته - من عسقم تمكنى من العمل فى الوقت الذى يحلو لى ، واضطرارى إلى ان أكون مقيسدا بمواعيد معينة ، ثم تاكدى من عدم إجادتى للأعمال التى أكون مجبرا على اداؤها . . كل هذه تحالفت وتغلبت - فى النهاية - على كل اعتبار آخر ، وحملت لى ان أقرر رفض منصب لم أكن مهيا له . . فلقد كتبت أعرف ان نبوغى لم يكن يأتى إلا من نوع معين من الاهتمام المشبوب بالموضوعات التى أرى علاجها ، وأنه لم يكن ثمة ما هو أقوى - على إذكاء عبقريتى - من حب كل ما هو عظيم ، وكل ما هو صادق وحقيقى ، وكل ما هو جليل . . فما قيمة الموضوعات التى كان على ان استغلها من أغلب الكتب . . بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لدى . . كان عدم اكتراثى بكل هذا كفيلا بأن يجد قلبى ، وان يلبد ذهنى . . لقد ظنوا ان بومضى ان اكتب بحكم المهنة محسوب - ككل الادباء الآخرين - فى حين اننى لم أكن قط املك ان اكتب إلا عن إحياء وإلهام وبقينا ان هذا لم يكن بالمادة اللازمة لصحيفة العلماء . ومن ثم فأننى كتبت إلى مارجينسى رسالة شكرته فيها ، وشرحت له - فى أكثر ما سمحت من أدب - أسباب رفضى بالتصميل ، حتى لا يكون رفضى للالتزام دى

مالبيرب — ان يظن ان لسوء الطبع ، او للغرور اثرا في هذا الرفض . ولقد أقرنى كلاهما على ما ذهبت إليه ، دون ان يؤثر ذلك على ودهما لى . وظل الأمر سرا مصونا ، فلم يقع للرأى العام ان يعرف أنه شيء عنه !

والواقع ان هذا العرض لم ياتنى في لحظة مناسبة لى اوافق عليه . إذ اتنى كنت قد اعتزمت — منذ فترة — ان اهجّر الأدب هجرانا تاما . بل اهجّر مهنة التأليف . فان كل الذى جرى جعلنى اتميز بهما من اهل الأدب ، وقد كنت لى انه كان من المستحيل ان امضى في هذه المهنة بالذات ، دون ان اتصل بهم . ولم يكن الشنمزازى من اهل المجتمع باقل من ذلك . . بل إننى كنت قد برمت بالاختلاط الذى اقدمت عليه في الحياة عامة ، سواء من ناحيتى أو من ناحية المجتمع . فاننى لم أكن مهيا لذلك . وعلى سوء التجارب المتواملة ، شعرت أكثر من ذى قبل ، بان كل العلاقات القائمة على غير نكافؤ أو مساواة ، تكون مضرّة دائما بالجانب الضعيف فيها ، ولقد كانت معيشتى مع قوم ذوى ثراء ، يمتون إلى طبقة أخرى غير التى اخترتها . دون ان اميش على نمطهم ، ومع ذلك ناننى كنت مضطرا إلى ان اقدمهم في كثير من الأمور . وكانت النفقات الثرية — التى لا تعد شيئا مذكورا لىهم — عبءا مرهقا ، بقدر ما كانت ضرورة لازمة . . فاذا ما ذهب رجل لزيارة بيت في الريف ، اضطلع بخدمته — سواء على المائدة ، أو في مخدمه — خادمه الخاص . . فهو يرسله وراء حاجاته ،

دون ان يتصل اتصالا مباشرا بخدم البيت ، بل وربما دون ان يقع عليهم بصره ، فلا شيء بينه وبينهم اللهم إلا انه يمنحهم مية كلما طاب له ذلك . . أما أنا — فقد كنت وحيدا ، بلا خادم خاص ، ومن ثم عاننى كنت تحت رحمة خديم البيت الذى ازوره ، وكان من الضرورات الماسة لى ان اكسب ودهم ، إذا شئت الا اعانى كثيرا من المضايقات . . ولما كنت اعامل كسيدهم ، على قدم المساواة . فقد كان لزاما على ان اعامل الخدم كما يعاملهم السيد ، بل وان ابدى لىهم أكثر مما يبدى لى أمرى آخر ، لأننى كنت — في الواقع — أكثر من سواى حاجة إلى خدماتهم !

ولم تكن هذه بالمسألة الجسيمة ، في الدور التى لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من الخدم . . ولكن الدور التى كنت ازورها ، كانت تضم أعدادا كبيرة منهم ، كلهم آنذاك مسعورون ، شديدا البقطة . . لمصالحهم الخاصة ! . وكان الانتفال يعرفون كيف يدبرون خططهم . بحيث احتاج إلى خدمات كل واحد منهم بدوره !

وكل نساء باريس — اللاتى أوتين نكاح ناتقا — لا يصبن اطلافا في آرائهن بهذا الصدد ، ومن ثم فقد استنزلن مواردى في رغبتين في الإبقاء على هذه الموارد . فاذا كنت ذاهبا لتناول العشاء في دار لإحداهن — على مسافة قليلة من بيتى — أمرت السيدة باعداد جيادها لتقضى مركبتها في عودتى ، بدلا من ان تدعنى اطلب مركبة بالأجر . . وكانت نساء باريس على ذلك الأربعة والعشرين «سو» ، أجر العربة . دون ان يخطر

ببالحال شيء من « الايكو » الذى كتبت اهبه خدام العربية والحوذى . ولو ان سيدة كتبت إلى من باريس ، وشاعت أن تبعث برسالتها إلى (ليرميثاج) أو (مونمورنسى) ، فاتها إشفافا على من أن أدفع الأربعة « سو » - التى كان يكلفها خطابها (١) - كتبت ترسله مع واحد من خدماها ، فباتى به سيرا على قدميه ، وهو مبتل بمرقه . . . وكتبت اضطر إلى أن أمنحه غداء ، واهبه « ايكو » لاشك أنه كان أهلا لاكتسابه . . . اما إذا هى دعتنى لقضاء ثمانية أيام - أو خمسة عشر - معها ، فى الريف ، فاتها كانت تقول لنفسها : « لسوف يكون هذا توفيرا لبعض نفقات المسكين ، على أية حال . . . فهو لن يتكبد شيئا من نفقات قوته ، أثناء مقامه هنا » . . . وكانت تنسى أننى لم اكن اقوم بأى عمل - فى تلك الفترة - وإننى اضلل مسئولاً عن دفع إيجار مسكنى « ونفقات من فيه ، والفسيل ، والكساء . . . وإننى كتبت أدفع - فى سبيل تص شعرى وإزالة لحبى - ضعف ما اعتدت أن أدفع . . . وأن إقامتى فى دارها ، كانت تكبدنى فوق ما اعتدت أن أنفق فى دارى !

ومع أننى اقتضيت المنح البسيطة التى كتبت اهبها لخدم البيوت التى اعتدت أن أنزل عليها كثيرا ، إلا أنها ظلت ترهق مواردى . واعتقد أننى أنفقت ما يزيد على خمسة وعشرين « ايكو » ، فى دار السيدة نوديتو - فى (أوبون) - حيث لم أتم أكثر من أربع أو خمس مرات . . . وأكثر من مائة

(١) كان المرسل اليه هو المسئول عن نفقات البريد إذ ذاك .

« بيسقول » فى (ايبيناى) و (لاشيفريت) ، خلال السنوات الخمس أو الست التى اعتدت فيها أن أكون ضيفا متريدا على القصرين .



ذلك ان النفقات من الأمور التى لا مفر منها لرجل فى مثل حالى ، لا يعترف كيف يؤدى لنفسه شيئا ، ولا كيف يستعمل نكاهه فى إنجاز شيء « ولا يستطيع - كذلك - أن يطبق رؤية وصيف يزجر ويؤدى مهامه وهو ساخط . . . بل إننى فى دار السيدة دويان - حيث كتبت فى مكانة أى فرد من أفراد الأسرة ، وحيث أدبت ألف خدمة للخدم - لم أحظ منهم يوما بشيء « ما لم تكن نقودى واسطة بيننا . ومن ثم فأننى لم البت أن اضطررت إلى أن اتخلى نهائيا عن هذه المنح الضيئلة ، التى لم يمد مركزى يسمح لى بتفاتها . . . وإذ ذاك فقط ، شعرت - أكثر من ذى قبل - بمضار الاختلاط بمن ينتمون إلى غير طبقة المراء !

أضف إلى هذا ، أننى لو استبهرت هذه الحياة ، لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة ، إذ أنها تكون - إذ ذاك - تمنا لمسراتى . ولكن الإفلاس الذى لا يأتى بغير المضايقة ، لم يفوق كل احتمال . ولقد اشتد شعورى بوطاة هذا المسلك من ممالك الحياة ، حتى أننى انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرر ، التى كتبت أحظى بها - إذ ذاك - فعقدت العزم على أن أعملها دائمة ، بأن أتبدل - نبذا دائما - المجتمع الرأى . وتآليف المكتب ، وكل صلة بالأدب « واهيك » - جاك لى

من أيسام في الحياة - في ذلك النطاق الضيق ، الوداع ،
المهديء ، الذي كنت أشعر بأننى خلقت من أجله !

ولقدت أدت أرباح الكتاب الذى ضمنته مقالى « رسالة إلى
داليمير » ، وكتاب « هيلويز الجديدة » إلى زيادة لا بأس بها ،
في مواردى التى كانت قد اعتصرت في (الميريتاج) - فقد رايت
أملنى حوالى ألف « أيكو » - وكنت قد تقدمت كثيرا في تأليف
كتاب « أميل » - الذى قصرت عليه اهتمامى بعد أن غرقت
من « هيلويز » ، وكان دخله جديرا بأن يضاعف هذا المبلغ ،
على الأقل . ومن ثم فقد فكرت في مشروع لاستثمار هذا
الرصيد بطريقة تجلب على إيرادات صغيرة يكفى - إذا ضم إلى
ما تدره على أعمال النسخ - لأن يوفر معاشى دون ما حاجة
إلى المضى في الكتابة . كذلك كان لدى كتابان مؤجلان : أولهما
« المذاهب السياسية » .. ولقد درست حال هذا الكتاب .
وجدت أنه ما يزال يتطلب عدة سنوات من العمل . ولم تكن
لدى جراءة على المضى فيه . وإن انتظر إلى أن يتم - قبل أن
أنفذ ما اعتزمت - ومن ثم فأننى عدلت عنه . وقررت أن
أستخلص منه ما يسعنى استخلاصه ، ثم أحرق ما يريد ..
وإذا انهمكت في هذا العمل بكل قوة ، دون أن أقطع استمرسالى
في « أميل » ، قدر لى أن أضع - في أقل من عامين - العبارات
الآخيرة لكتاب « المقد الاجتماعي » ! (١) .

(١) تتم « كتابى » بلخصا لكتاب « أميل » في عدده الرابع : وبلخصا

وبقى « قابوس الموسيقى » - أو « الموسوعة الموسيقية »
- وكان العمل فيها مجرد جهد آلى ، يمكن القيام به في أى
وقت ، ولم أقدم عليه إلا طلبا للنقد فحسب . وقد احتفظت
لنفسى بحق نبذه ، أو إتمامه متى شئت ، وفقا لما إذا كانت
مواردى الأخرى توحى بأن دخله ضرورى « أو أنه فائض عن
الحاجة . أما كتاب « الأخلاق في الشؤون الحسية » - الذى
كنت قد وضعت خطوطه الأولى - فقد نبذته نهائيا !

وكنت أعول على مشروع أخيرا ، إذا ما قدر لى أن أستغنى
عن أعمال النسخ . ذلك هو أن أوغل في الابتعاد عن (باريس) ،
حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتى قادمة ،
ويحرمنى من الوقت لزيارتها .. ولكى ادفع عنى في عزلتى
سعود المال - الذى يقال إنه يعدو على المؤلف - إذا هو الذى
قلبه جانباً - احتفظت لنفسى بعمل كئيل بأن يملأ الفراغ في
وحدتى ، دون أن يستدجرتنى إلى الإنسياق لإغراء نشر أى
جديد ، خلال ما تبقى من عمرى . مما كنت أدري أية نزوة
تهلك « ريه » ، فراح - منذ زمن طويل - يستحثنى على
كتابة ذكريات حياتى . ومع أن هذه الذكريات لم تكن - حتى
ذاك الحين - مشوقة ، من حيث الأحداث ، إلا أننى شعرت
بأن من الممكن أن أجعلها مشوقة ، بفضل الروح التى أتناول
بها الموضوع . ومن ثم صممت على أن أجعلها عملا مقربا في
نوعه ، بأن أكتبها بصق لا مثيل له ، حتى يتسنى - ولو مرة
وأحدة - أن يرى الناس رجلا إنسانى حقيقيا . كما يرى هو
نخيلة نفسه !

ولقد اعتدت دائما أن أسخر من سذاجة « مونتاني » التي غررت به ، فجعلته يعنى عناية فائقة بالأ ينسب إلى نفسه إلا كل مستحب ، في حين أنه كان يتظاهر بالاعتراف بعبويته . . أما أنا - الذي اعتدت أن أعتقد دائما أنني ، من كافة الاعتبارات ، خير الرجال - فقد شعرت بأنه ما من قلب بشري - مهما يكن نقيا ، إلا ويطوى بين جوانحه عينا نهيما . ولقد كنت أدرك أنني صورت للناس في صورة تخالف تماما صورتي الحقيقية . بل وتبدو في بعض الأحيان مشوهة ، حتى أنني - برغم سوء الذي لا أبشئ إخفاءه قط - لن أبوء إلا بالكسب ، إذا اطلعت الناس على حقيقة نفسي . . وإلى جانب هذا ، فما كان من الميسور أن أكتشف نفسي ، دون أن أكتشف الآخرين على حقيقتهم . ومن ثم فانه لم يكن في الوسع نشر هذا المؤلف ، إلا بعد وفاتي ، ووفاء كثيرين غيري . ولقد زلّني هذا قوة على اقدام على تسجيل اعترافاتي « التي لن يقدر لي أن أخجل منها أمام إنسان . ولهذا فقد عولت على أن أخصص أوقات فراغي للمضى في تنفيذ هذا المشروع ، وبدأت أجمع الرسائل والأوراق التي قد ترشد ذاكرتي أو تعينها ، والأسف يسلا نفسي حسرة على كل ما كتبت قد مزقته ، أو أحرقتة » أو أضعته حتى ذلك الوقت !

ولقد كان لمشروع الاعترافات اللام - وهو من أحكم المشروعات التي خطرت لي - أثر قوي على ذهني ، وكنيت قد شرعت في تنفيذه ، عندما ألقت بي السماء - التي كانت تعد لي مصيرا آخر - في حوامة جديدة !

ذلك أن إقليم (مونتورنسي) ، الميراث العريق انقم - الذي كانت تتوارثه الأسرة ، صاحبة هذا الاسم - لم يعد ملكا لهذه الأسرة ، مذ صودر . وكان قد آل - بزواج أخت الدوق هنري - إلى أسرة « كونييه » ، التي أبدلت اسم (مونتورنسي) باسم (انجيان) . - ولم يكن لهذه الدوقية من قصر سوى حصن تقديم ، تحفظ فيه الوثائق ، ويقلقى فيه السادة أمارات الولاء . - على أن ثمة بيتا معينا يرى في (مونتورنسي) - أو (انجيان) - شيد « كروازيه » - الملقب بالفقر - وبضاروع في غخلته أعظم القصور ، حتى ليستحق أن يسمى قصرا . . ان المنظر المهيّب لهذا المبنى أتبديع ، والمرفع الذي يقوم عليه ، والمنظر الذي يشرف عليه ، والذي قد يكون له شبيهه في العالم « وقاعة الاستقبال الرحبة فيه ، التي ازدانت برسوم يد حافقة ، وحدائقه التي قرسها « لونوستر » الذائع الصيت . - كل هذه تؤلف وحدة شاملة ، ذات جلال باهر ، يمثل - في الوقت ذاته - بساطة لا أدرى بمثلها ، ولكنها توحى بإعجاب باق !

ولقد اعتاد السيد المارشال دوق دي لوكسبورج - الذي كان يشغل هذا البيت ، في ذلك الحين - أن يفد في كل عام مرتين إلى هذا الإقليم الذي كان آباؤه وأجداده سادة له فيها مضى « يقضي خمسة أسابيع أو ستة ، كأي ساكن عادي ، ولكن في ابهة لا تقل رواء عما للبيت من روعة عريقة . . وفي أول رحلة جساء غيبا ، بعد أن تم التمام في (مونتورنسي) ، أوفد إلى وصيفا - السيد المارشال

والسيدة زوجته ، ودعوة إلى تناول العشاء معها ، غسما يروق لى ذلك !

وما من مرة جاء فيها وأهلا إرسال التحيات ذاتها ، والدموة عيها . وقد ذكرنى هذا بالسيدة دى بوزينفال حين همت أن ترسلنى لتناول الغداء مع الخدم (١) . ولقد تضر الزمن ، ولكنى بقيت على حالى . ولم أكن راغبا البتة فى أن أرسل لتناول الغداء فى قاعة الخدم ، كما أئنى لم أكن أحفل كثيرا بموائد العشاء . وقد كنت أوتر لو أنهم تركونى فى حالى . دون أن يكرونى ، ودون أن يحقرونى . ومن ثم فقد رددت فى أدب واحترام على مجاملات السيد والسيدة « دى لوكسمبورج » ، غير أننى لم أقبل قط دعوتهما . فان صحتى المعتلة - فضلا عن خجلى وتهيبى الطبيعيين - كانت تجعلنى أقشعر لمجرد التفكير فى أن أظهر فى جمع من أعضاء البلاط الملكى . بل أئنى لم أذهب إلى القصر فى زيارة للشكر والتحية . برغم أننى أدركت كل الإدراك ، أن هذا ما كان يبتغى منى ، وأن كل هذا الإصلاح لم يكن صادرا عن كرم وتلطف . بقدر ما كان صادرا عن فضول !

على أنها وأهلا مجاملاتها ، بل وراحا يضاعتها . وكانت السيدة كوفنة دى بولير - التى كانت وثيقة الصلة بالسيدة المارشالة - قد جاءت إلى (مونمورنسى) ، فأرسلت تسأل عنى ، وعما إذا كان لها أن تزورنى ، واجبت كما كان

(١) روى « روسو » هذا الحادث فى الجزء الثالث .

ينبغى أن أجيب ، ولكنى لم أحرك ساكنا . وفى خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية - ١٧٥٩ - زارنى مرارا الشيفالييه دى لورنزي ، الذى كان ينتمى إلى حاشية السيد الأمير دى كونتى . وإلى ندوة السيدة دى لوكسمبورج . ولقد توثقت المعرفة بيننا . فراح يلح على بالذهاب إلى القصر . ولكنى أبيت !

وأخيرا ، وفى أصيل ذات يوم ، رايت السيد المارشال دى لوكسمبورج ، وكان آخر من توقعت رؤيته . . وكان يقترب وفى معبته خمسة أشخاص أو ستة . ولم يبق لى من وسيلة للتهرب ، وما كنت أملك أن أتأشاه . كما أئنى لم أكن أملك أن أتفادى رد زيارته ، وتقديم آيات احترامى للسيدة المارشالة - التى أغرقتنى بها حملة إلى من مظاهر تفضلها - وإلا اعتبرمت متفطرما سىء التربية .

وهكذا بدأت - تحت انحبس الطوالع - علاقة لم يكن بوسعى أن أتهرب منها أطول مما فعلت . . وإن كان شعورا عبق الجذور ، قد أوحى إلى بالتوجس مما أتحمت عليه !



كنت فى خوف بالغ من السيدة دى لوكسمبورج ، فلقد كنت أعلم أنها لطيفة مليحة ، وقد رايتها مرارا فى المسرح ، وفى دار السيدة دوبان ، قبل عشر أو اثنتى عشرة سنة ، حين كانت تلقب بحققة دى بولير ، وهى بعد تتللا فى طلائع أضواء جمالها . ولكنها عرفت بالخبت وسوء السيرة . كانت السبعة لسيدة فى مثل مكانتها العظيمة ،

وما ان رأيتها ، حتى وقعت أسيرها . فقد ألقيتها ساحرة .. أوتيت ذلك السحر الذي لا يعمد عليه الزمن ، والذي خلق لكى يفتك بفؤادى !.. وكنت اتوقع ان اجد حديثها ساخرا ، ملئيا بالتوريات . ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان افضل من ذلك بكثير . ذلك لان حديث السيدة دى لوكسمبورج لا يتسالى بالذكاء ، ولا يكشف عن سمو الروح ، كما أنه لا ينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة . ولكنه منعم بالفكاهة التى لا تؤذى إطلاقا ، ولكنها تبهج السامع دائما .. وكانت مجملاتها عباراتها المقلقة نعتت بالنفوس ، بقدر ما هى بسيطة ، توحى بانها إنما كانت تتساقط من بين شفيتها دون تفكير منها ، وكأنها فوراء قلب مترع !.. وخيل إلى اننى لمحت - خلال زيارتى الأولى - انها استطاعت مجلسى ، برغم انطوائى ، وثقل عباراتى . ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذرن إحداث هذا الأثر - سواء كن فى ذلك صانعات ، أو مصطنعات - عندما يحلو لهن ولكنهن جميعا لم يكن يحذرن إحداثه بالطريقة الفائنة التى كانت تجيدها السيدة دى لوكسمبورج ، فلا يقوى المرء على ان يرتاب فى صدقه !

ولقد كان من المحتمل ان تصل فقتى بها إلى الكمال . منذ اليوم الأول - كما صارت بعد ذلك بوقت قصير - لولا ان السيدة العوقة دى مونبورسى ، زوجة ابنها ، كانت على شيء من الحقد ، وكانت - فيما اعتقد - شابة رعاء ، مثاسكة ، عقدت عزمها على ان تهاجبنى ، حتى جعلتنى - وسط مجاملات حياتها ومغازلاتها - اعتقد انهما إنما كانتا تسخران منى !

ولعلنى كنت خليقا بأن اجد ارتياحها ، نظرا لهذا التوجس الذى داخلنى نحو السيقتين ، لولا ان الكرم البالغ الدافق من السيد المارشال ، اقتضى بان ودعها كان صادقا . ولم يكن ثمة ما هو ادعى للعجب - إذا ما نظرنا إلى طبيعتى الخجول - من مجادلتى إلى اخذ السيد المارشال بكلمته ، من حيث المساواة التى أرادت على ان اكون عليها معه .. ليس اعجب من هذا ، سوى مجادته إلى احضارام رغبتى فى الاستقلال الفام الذى أرادت ان أعيش فيه . ومن ثم فانه والسيدة دى لوكسمبورج لم يبدئا أى قلق - ولو للحظة واحدة - بصدد مواردى وأسباب عيشى ، اقتناعا منهما بأننى كنت على صواب فى ان اكون قائما بمركرى ، غير راغب فى أى تغيير !.. فمع اننى لم اكن أملك ان ارتاب فى الاهتمام المطوف الذى كانا يبدئانه نحوى ، إلا انهما لم يعرضا قط ان يسعيا لإيجاد منصب لى ، أو ان يساعدانى بنفوذهما ، اللهم إلا مرة واحدة ، عندما أبدت السيدة دى لوكسمبورج رغبة فى ان ادخل المحفل الفرنسى ، « الاكاديمية فرانسيز » .. ولقد اشرت إلى ان عقيدتى الدينية تقوم دون ذلك ، فقامت إن هذه لم تكن عقبة تفكر ، وإلا فانها تتكفل بإزاحتها ، إذا كانت كذلك !.. واجبت بأنه برغم الشرف الذى يضيفه على انتمائى إلى مثل هذه الهيئة الموقرة ، فقلتى - بعد رفضى دعوة السيدة دى تريستان ، وملك بولندا ، بطريقة ما ، ان انضم إلى محفل نانسى - لا استطيع ان أقبل عضوية أى محفل آخر ، وأنا مرتاح الضمير . ولم تحاول السيدة دى لوكسمبورج ان تهتفى فى الأحاح ، ولا دار أى حديث فى هذا الصدد ، بعد ذلك !

هذه البساطة في الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظام . الذين كان في وسعهم أن يصفوا على الأكثر - إذ كان السيد دى لوكسمبورج صديقا شخصيا للملك ، عن جدارة - تتناقص تماما ، وبشكل عجيب ، مع الاهتمام المستور - الذى لم يكن أقل مضايقة مما هو اصطناعيا ورياء - الذى كان يديه أولئك الأصدقاء الذين هجرتهم ، والذين كانوا يتظاهرون برعايتي ، ويسعون إلى استذلاكي - أكثر مما كانوا يسعون إلى خدمتي !

وعندما زارنى السيد المارشال في (بون - لوى) ، استقبلته وحاشيته في غرفتي الوحيدة . وأنا محرج . . لا لأنني كنت مضطرا إلى أن ادعوه إلى الجلوس وسط صحافي القذرة وأواني المهشمة ، وإنما لأن أرض الحجرة كانت متداعية ، متساقطة . وقد خشيت أن يؤدي نقل مرافقي إلى انهيارها . وما خشيت على نفسي من الخطر ، وإنما خشيت على هذا السيد الجليل مما كان تواضعه يعرضه له ، فعملت على التعجيل بإبعاده عن الحجرة ، إذ اقتنته - برغم الجو الذى كان شديد البرد - إلى شرفتي التى كانت في مهب الريح ، ولم تكن بها مدفاة ما ! . . وما أن صرنا هناك ، حتى اطلعتني على السبب الذى اقتنته من أجله إلى المكان ، ففواه بدوره إلى السيدة المارشالة ، والحفا معا في حلى على الإقامة في القصر - ريثما يتم إصلاح أرض الحجرة - أو في مبنى . لحق بالقصر ، وسط المنزه ، يطلق عليه اسم « القصر الصغير » . إن شئت .

وهذا الممكن الغائب جدير بالحديث . . ذلك أن منزهه ، أو حديقة (مونورنسى) لم تكن في مستوى واحد ، كحديقة (لاشيفريت) ، فهي تل غير مستو . تتناثر فيه المرتفعات والمنخفضات ، التى استغلها الفنان الماهر ، ليقطع سلسلة من المتنوعات : من أحراش ، ومياه ، وزخارف ، ومناظر متباينة ، وليضعف - كما ينبغي أن يقال - المساحة المحدودة ، في نظر الرائي . ويتوج هذا المنزه - شجرة يعاوها القصر . . أما في طرفه الأدنى - فإنه يؤلف مضيقا لا يلبث أن ينفتح ويتسع ، في اتجاه الوادى ، وتمتد في زاويته صفحة شاسعة من الماء . وبين بساتين البرتقال - التى ملا المساحة التى يتسع عندها المضيق - والماء ، وفي وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار ، يقوم « القصر الصغير » الذى اشرت إليه !

ولقد كان هذا المبنى ، والأراضي المحيطة به ، ملك للوبرون الشهر (١١) . من قبل ، وقد جعل من إنشاء هذا المبنى وتربيته بلهاة له ، وأقبل على ذلك بأنضم فنون العمارة والزخرفة ، اللذين برز هذا الرسام العظيم فيهما . ولقد أعيد بناء هذا القصر فيها بعد ، ولكن التصميمات التى وضعها صاحبه الأول ، روعيت عند التجديد . وهو قصر صغير ، وبسيط ، ولكنه أنيق . ولما كان يقوم بين خزان رى بستان البرتقال ، وبين المساحة المائية الشاسعة ، فقد كان معرضا للرطوبة ، ومن ثم فقد كان يخترقه في وسط ، رواق مكشوفه (منور) ، بين طيقتين

من الأعمدة ، فكان الهواء الجارى فى المبنى كله ، يتخفف من رطوبته فى ذلك الرواق . وعندما ينظر المرء إلى المبنى من عل — من زاوية الجانب المقسابل — يراه محوطا تماما بالماء . فكانه جزيرة مسحورة ، أو كانه أبداع جزر (بوروميه) الفلات — جزيرة (ايسولابيل) — فى بحيرة (ماججورى) .

فى هذا المبنى المنزل ، ترك لى حق اختيار احد الأجنحة الأربعة الكاملة ، التى كان يضمها ، فضلا عن الطابق الأرضى ، الذى كان يقالف من قاعة للرقص ، وأخرى لللياردو ، ومطبخ . وقد اخترت أصغر الأجنحة وأبسطها ، وهو الذى كان يملو المطبخ ، الذى سمح لى باستخدامه . وكان الجناح بديعا ، نظيفا ذا اثاث يشبع فيه اللونان الأزرق والأبيض . وفى هذه العزلة العبيقة ، البهجة — ومط الفايات والمياه — وعلى شتشفة الطيور من كل نوع ، محوطا بصير زهور البرتقال — وضمت الجزء الخامس من « أمبل » ، وأنا شبه ثمل . . . ومن ثم مان اللون الجديد الذى يبدو فيه الشطر الأكبر منه ، يرجع فى الواقع إلى الأثر الفعال الذى عكسه الوسط الذى كنت أكتبه فيه !

لكن كنت أهرع ملهوما — عند بزوغ الشمس ، فى الصباح — كى اتنسم الهواء العبق فى الرواق . . . وما ألقى القهوة الممزوجة باللبن ، التى كنت أتناولها مع « تيريز » هناك ! . وكانت قطتى وكلبى يؤنسنا . وكانت هذه الصبحة وحدها ، كاشفة لإيناسى طيلة حياتى « فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل ! . . . كنت فى جنة أرضية ، وقد عشت هناك فى حال من السذاجة والبراءة ، ورجحت انعم بالسعادة !

ولقد أبدى لى السيد والسيدة دي لوكسمبورج ، خلال الزيارة التى قاما بها فى شهر يوليو ، كثيرا من الوان الرعاية ، وعاملاتى فى كرم بالغ . حتى إبنى — وقد كنت أعيش فى رجليهما « منعمورا بجمالتهما — لم أكن أملك ما أجازيهما به « سوى أن أكثر من ترددى عليهما . فاصبحت لا أكاد أفارقهما إطلاقا : إذ كنت أذهب فى الصباح . لأقدم تحياتى إلى السيدة المارشالة . . وبعد أن أتناول غدائى هناك ، كنت أتشى ، إيان الأصل . مع السيد المارشال . . ولكنى لم أكن أمكث للعشاء ، إذ كانا يدعوان إلى مأدنتهما دائما عددا من عليه القوم ، فضلا عن أنهما كانا يتناولان العشاء فى ساعة متأخرة بالنسبة لى . . وإلى ذلك الوقت ، كان كل شئ يضى مواتيا ، وما كان ليقع شئ من الضر ، وإبنى عرفت كيف ادع الأمور تجرى فى أعنتها . ولكنى لم أكن يوما بقادر على أن أنهج منهجا وسطا فى علاقائى الودية ، ولا استطعت يوما أن أكتفى بأن أؤدى واجباتى نحو المجتمع ، وإنما كنت دائما أفتقد أحدا أمرين : إما كل شئ ، أو لا شئ . . . وما أن أظفر بكل شئ ، وأرى نفسى مكرما ، دلا لدى قوم من ذوى الجاه ، حتى أتجاوز الحدود « فتتلمكنى نحوهم صداقة لا تباع عادة إلا بين الأنداد المتعادلين . وكنت أكتشف نها بالآلفة المقهورة من الكلفة ، فى حين أنهم لم يكونوا — من ناحيتهم — يفلحون عن آداب اللياقة التى نشأوا عليها وتعودوها . ومع ذلك ، فمقضى لم أشعر يوما بأننى متحرر على سجيئى « مع السيدة المارشالة ! ومع أننى لم أكن مملئنا كل الإطنان إلى شخصيتهما ، إلا أننى لم أكن أختصهما بدر ما كنت أخشى عقلا . . وهذا وحده ما كنت أكرهه حقا .

فلقد كنت أعترف أن إرضاءها في الحديث صعب . وكان من حقها أن تكون كذلك . إذ كنت أدرك أن النساء - وسيدات الطبقة الرفيعة منهن، بوجه خاص - كن لا يشتھين من الحديث سوى التسلية والترويح ، وأنهن يؤثرن التجريح على الإملال ! . . وقد حدثت - من ملاحظات السيدة دي لوكسمبورج على أحاديث الذين كانوا ينصرفون من لدنها - ما كان قد خابرها ولا بد بصدد أحاديثي السخيفة . ومن ثم فأنني فكرت في حيلة لأعفي نفسي من حرج الحديث إليهما . - تلك هي أن أقرأ عليهما ! . وكانت قد سمعت عن « جولي » وعرفت أنها طبعتم « فابدت شوقا إلى رؤية هذا الكتاب . وإذا ذلك عرضت عليهما أن أقرأ لهما ، فوافقت .

وأصبحت أذهب إليهما في الساعة العاشرة من كل صباح ، ولا يلبث أن يأتي السيد دي لوكسمبورج ، ويفلق الباب . وأروح أقرأ إلى جوار نرائثها . وقد سميت جلسات القراءة تقسيما دقيقا ، بحيث تدوم طيلة بقائنا ، لو أنها لم تقطع حبل إقامتها ، إذ أدى خسران «مركبة كبرى» إلى استياء الملك فاضطر السيد دي لوكسمبورج إلى المسامرة بالعودة إلى البلاط . ولقد ناق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت، إذ استولى على السيدة دي لوكسمبورج شغف طباغ «جولي» وبؤلتها . فأصبحت لا تتكلم إلا عني ، ولا تصبر إلا في طيلة اليوم . وتعاينني عشر مرات في النهار . وأصرت على أن اجلس باستمرار إلى مائتيها ، وكانت - إذا حاول أي واحد من كبار السادة أن يحتل مكاني - تخبرهم أن ذلك مقعدي . وتحملهم على الجلوس في أماكن أخرى !



وأروح أقرأ إلى جوار نرائثها . وقد سميت جلسات القراءة

ومن السهل تصور الأثر الذي خلفته هذه التصرفات الساحرة ، في نفسي ، أنا الذي كانت تستعبدني أبسط مظاهر العاطفة . ماذا بي أغدو شديد التعلق بها ، بقدر ما كانت هي تبدي لى من ميل . وكان المصدر الأوحى للخوف - حين نطلت إلى هذا الهيام - هو شعورى بأننى لم أكن مستلحا إلى الدرجة التى تستقيبه حيا ، ومن ثم لمانه قد ينقلب إلى كراهية . . . ولقد كان هذا الخوف - لسوء حظى - قائما على أسس سليمة جدا !

ولابد أن ثمة تعارضا كان قائما بين اتجاه عقلها واتجاه عقلى . . . فبغض النظر عن كثير من الهذيان الاحمق الذى كان بغلت منى في كل لحظة من لحظات أحاديثنا ، بل وبغض النظر عن خطاباتى . . . كانت ثمة أشياء تكثرها ، حتى في خير أوقات صفائى معها ، دون أن يقدر لى أن أحس سببها . ولن أذكر هنا سوى مثال واحد ، وإن كنت أستطيع أن أفكر عشرين ! . . . فلقد عرفت أننى كنت أعد للسيدة دوديتو نسخة من « هيلوبز » تكلفت كل صفحة منها مبلغا كبيرا « فرغبت في أن أعد لها نسخة على الأسس ذاتها . ووعدتها بأن أفعل . ومن ثم وضعتها في قائمة عملائى ، وكُتبت لها بضعة سطور رقيقة وصريحة ، أو هكذا كانت نيتى « على الأقل » وإذا بي ألتقى الرد التالي ، الذى أدهشنى كل الدهشة (الملف « ج » رقم ٤٣) :

« فرساي : هذا الثلاثاء .

« إنى لمقبطة ، وإنى لراضية . . . ولقد أدخل خطابك على نفسى سرورا لا حد له ، وإنى لأبادر إلى أن أعلنك بذلك ، وإلى أن أشرك من أجله .

« هك نص تبريك في خطابك : « بالرغم من أنك عيلة جد طيبة حقا ، فأننى أجد بعض صعوبة في قبول نقودك . والآخرى أن يكون على أن أدفع ثمن المتعة التى ساحظى بها إذ أعمل من أجلك » . ولن أذكر هذا الموضوع مرة أخرى !

« بؤسنى ويقلبنى أنك لا تحدثنى قط عن مسجك ، فليس ثمة ما يهمنى أكثر منها . إننى أحبك من كل قلبى . . . وأنه - كماؤكد لك - لأم محزن حقا أن أظلمك على هذا ، إذ إننى كنت أوثر أن أحظى ببغطة قوله لك بلسانى !

« إن السيد دى لوكسمبورج يحبك ، ويطلبك من كل مؤاده ! » .

وما أن امتلئت هذا الخطاب ، حتى سارعت إلى الإجابة عنه - قبل أن أمحصه تحصا مليا - لأحتج ضد التأويل غير اللائق . وبعد أن عكفت عدة أيام على هذا المحصل ، في قلق يسهل تصور مداه ، ودون أن أتفه شيئا من الأمر ، وجددتى في النهاية أكتب ردى النهائى بهذا الصدد :

« مونتورنسى : ٨ ديسمبر ١٧٥٩

« نصحت الفقرة التى ترجمت إليها خطائى ، وأنتجتها مرة ومرة .

منذ رسالتي الأخيرة . ولقد تأملتها من حيث معناها الطبيعي الصحيح ، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن أن تحمله . وإنى لأعترف ، يا سيدي المارشالة ، بأننى لم أعد أدري ما إذا كنت أنا الذى يدين لك بالاعتذارات . أو أنه يجدر بك أن تكونى أنت المدينة بها لى .

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل . وكمن مرة فكرت فيها ، منذ ذلك الحين . وما أزال — حتى في يومى هذا — في غياب من هذا الموضوع ، حتى إننى لم استطع أن أفهم ما الذى يحتمل أن تكون قد وجدته في تلك الفقرة . . . ولن أقول إنها وجدت شيئا مائسا ، ولكن من المحتمل أن يكون مكذرا .

أما عن النسخة المخطوطة من « هيلويس » ، التي رغبت السيدة دى لوكسمبورج في أن تقتنيها ، فخلّيق بى أن أذكر هنا ما كنت قد عزمت على أن أفعله . لكى أضنى عليها امتيازاً خاصاً ، دون بقية النسخ جميعاً . ذلك أننى كنت قد كتبت مغامرات اللورد ادوارد مستقلة ، وكنت قد ظلمت طويلاً بتردد ، لا أقطع بها إذا كنت أضنها — سواء كاملة ، أو بعض فقرات منها — إلى هذا الكتاب الذي كانت تلوح أنها غير متشبهة معها . ولقد ترددت في النهاية ، أن أحذفها كلها ، لأن عدم اتساقها مع أسلوب بقية الكتاب ، كان كفيلاً بأن يفسد بساطته المؤثرة . ثم وجدت سبباً أقوى ، عندما تعرفت إلى السيدة دى لوكسمبورج . فلقد كانت في تلك المغامرات مركزة رومانسية ذات شخصية بالغة التفتك . وكان من الممكن أن

يحاول بعض من كانوا لا يميرون السيدة المارشالة إلا بسمعتها ، أن يربطوا بين صفاتها وبعض صفات تلك المركزة ، بالرغم من أنه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنين . . . لذلك غبطت نفسى على القدر الذى اتخذته ، وأثبت أن أتشبه به . ولكنى في رغبتى العارمة في أن أزيد من قبة نسخة السيدة دى لوكسمبورج بشيء لم تتضمنه النسخ الأخرى . . . ألم يكن يحسن بى أن أتذكر هذه المغامرات المشنومة ، وأن أرسم خطة لكى استخلص شيئاً منها أضيفه إلى النسخة ؟ . . . كان مشروعاً آخرق ، لا يمكن للمرء أن يعزو الانتفاع إليه ، إلا إلى القدر الأعلى الذى كان يجزئى إلى هلاكى .

(١) Quos Volt Perdere Jupiter, Lementat

ولقد كنت من الحياة بحيث أعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية ، وبكثير من الجهد ، وأرسلتها إليها وكأنها أجل شيء في الدنيا . وأخبرتها — في الوقت ذاته بأننى قد أحرقت النسخة الأصلية . وهو ما كنت قد فعلته حقاً ، ومن ثم فاتها الوحيدة التي كانت تمتلك هذه القطعة ولن يقدر لإنسان سواها أن يراها ، إلا إذا اطلعت هي عليها . ولكن هذا العمل كان أبعد من أن يثبت لها حكمتى وحصانتى — كما كنت أتوقع — إذ أنه لم يوح إليها بالفكرة التي كانت قد خطرت لى ، من الشبه

(١) بيت من الشعر القديم ، أعتمد كتاب القرن السادس عشر — في فرنسا — أن يسموه في مقالياتهم « ومغناه أن » . روسو ، منشور — ٥٠ .
سحو — مثل أولئك الذين يقضى عليهم بالهلاك

بين بطلمة المؤلف وبينها ، وهو ما لا بد قد أذى شعورها .
على أن غبائي كان من الأفرط بحيث أنى لم استشعر أى شك
في أنها خليقة بأن تبهر بما فعلت . . ولم تهتدح لى على
بالنمى الذى كنت أتوهمه ، بل إنها - لدهشتى البالغة -
لم تتحدث إلى قط عن المخطوط الذى أرسلته إليها . وما حدثت
الامر - لفرط ما كنت مفتحا بتصرفى - إلا بعد امد طويل ،
وبسبب ظواهر أخرى « كانت مرتبة على ذلك !

أما نسخة المخطوطة من الكتاب الأولى - « هيلوز » -
فقد واتقنى فكرة أخرى بصدها ، كانت أكثر حكمة من
سابقها ، ولكنها كانت - في أثرها البعيد - تكاد تعادلها
إسداء إلى . فلكم بمساهم كل شيء في مساعدة القدر ، عندما
يدفع بؤسان إلى الشقاء ! . . فلقد كانت فكرتى هي أن أزين
هذه النسخة المخطوطة بصور من لوحات « جولى » ، التى
تصادف أن كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط .
طلبت هذه الرسوم من « كوانديه » إذ أنها كانت ملكا لى بكل
حق مشروع فضلا عن أننى كنت قد تركت له ما دونه هذه
الرسوم من ربح ، إذ أنها كانت قد لحقت رواجاً عظيماً . على أن
« كوانديه » كان أكثر خبثاً ، مما كنت أنا عكس الخبث ! . .
وقد أدى إلحاحى في طلب هذه الرسوم ، إلى أن يحدس
الفرس الذى كنت أريدها من أجله . ثم أغرائى بأن ادعها

بمع ، زاعماً أنه سينقحها وما لبث - في النهاية - أن قدّمها
إلى السيدة بنفسه ! .

(١) Eg. Versiculos Feci. Tulit Alter Honores

ولقد أدى هذا إلى دخوله قصر دى لوكسبورج ، وحظوته
بمكانة معينة . وكان - منذ استقرارى في القصر الصغير -
يكثر من زيارتى ، ويفتخر الصباح دائماً موعداً لهذه الزيارة ،
لا سيما عندما كان يتصاف وجود السيد والسيدة دى
لوكسبورج في مونورنسى ! . وكان هذا يؤدي إلى ألا
أذهب إلى القصر إطلاقاً ، لكنى أقضى معه ساعات الصباح .
وكانت الأم على هذا ضيق ، فأذكر السبب « فاقابل بالاحاح
في دعوة السيد « كوانديه » إلى القصر . . وقد فعلت ، وكان
هذا عين ما ابتغاه الوغد ! . . وهكذا كان للانضال الكريمة
العامة ، التى كانت تغدق على ، أثرها الكبير في أن الكاتب
الأجير لدى السيد « ثيلوسون » والذي كان يدعى أحياناً إلى
مائدة مخصوه - عندما لا يكون مئة ضيف آخر يؤنس السيد -
وجد نفسه نجاة على مائدة أحد قادة فرسان العظام « مع
الأمراء ، والسيدات اللواتي ، وكل أصحاب المكانة العليا
في البلاط الملكي !

ولن أنسى البتة أنه كان مضطراً إلى العودة إلى باريس مبكراً
- ذات يوم - فقال السيد المارشال للحضور ، عقب الفداء ،
« تعالوا نسر على الطريق المفضية إلى (سسان - نيبس) ،

(١) من شعر « ميرجيل » : « أنا أنظم الشعر بغيري »

لرفائق السيد «كوانديه» . ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال نذار رأسه لهذا اللكرم . اما أنا ، فقد اهتز قلبي ، حتى اننى لم اتقو على ان انبس بكلمة واحدة . وسرت وراء القوم ، وانا ابكى كالطفل ، واموت لهنة على ان اقبل مواقع قدمى هذا المارشال الطيب . . على ان استئناف قصة ذلك الكتاب المنسوخ ، جعلنى اسبق الزمن إلى هذه الواقعة . فلنعد إلى الاحداث وفقا لنظام ورودها . بقدر ما تسمح لى ذاكرتى .

لم يكد العمل في البيت الصغير في (مون - لوى) يفرغ ، حتى يرشقه بانك مناسب وبسيط ، وعدت إلى الإقامة فيه . غير قادر على ان انبذ ذلك القاتون الذى وضعته لنفسى إذ غادرت (ليريتاج) ، واعنى به ان يكون مقامى دائما في مسكن املكه . على اننى - مع ذلك - لم استطع ان اقطع بالتخلى عن مسكنى في « القصر الصغير » ، ومن ثم فقد ظللت محتظا . بمفتاحه ، وكنت كثيرا ما انام هناك - لفرط ولهمى بالظهور البديع في الرواق - كما كنت اقضى فيه يومين او ثلاثة ، في بعض الاحيان ، وكأنه بيت خلوى للترويح عن النفس . ولعلنى كنت احظى - في تلك الفترة - بمسكن اكثر اراحة واياسة مما كان يحظى به أى فرد عادى في اوربا . ذلك لأن صاحب الدار التى كنت استبتها - السيد ملى ، الذى كان خير رجل في الدنيا - ترك لى الإشراف الكلى على عمليات الإصلاح في (مون - لوى) ، وأصر على أن استخدم عماله وفق ما كنت أهوى دون أى تدخل فيه . وقد وجدت ما مكنتى من ان اجعل من غرفة واحدة في الطابق ، الأول جناحا كاملا مؤلفا من حجرة

للنوم ، وحجرة أخرى ملحقة بها ، وخزانة كبيرة للثياب . وفي الطابق الأرضى - كان ثمة المطبخ وحجرة تيريز . أما الشرفة فقد تحولت إلى حجرة للمكتب ، بعد إقامة حاجز زجاجى . وإدخال مدفأة عليها . ولقد رحت أنسلى - كلما كنت هناك - بزخرفة الشرفة الخارجية ، التى كانت تقبع تحت ظلال صفيين من اشجار اليزفون الصغير . فغرسيت صنين آخرين . لاقيم ايكه دائمة ، وعملت على إقامة بضع ارائك حجرية هناك ، واحطتها بالشجيرات ذات الزهر الأبيض ، وبالبلايا ، وزهر الجبل . واقتت سياجا بديما من الزهور ، موازيا لصنى الاشجار . . ولما كانت هذه الايكة اكثر ارتفاعا من شرفة القصر - وكان المنظر الذى تشرف عليه لا يقل عن ذاك الذى تشرف عايه الأخرى ، وقد عمرها عدد من الطيور التى استالفتها واستأنستها - فلأنى جعلت منها حجرة استقبال إذا ما وفد على ضيوف ، كالسيد والسيدة دى لوكسمبورج ، والسيد الدوق دى نيلروى ، والسيد الأمير دى تينجورى . والسيد المركز دارمنتير ، والسيدة الدوقة دى . ونورسى . والسيدة الدوقة دى بوفلر ، والسيدة الكونتة دى فايينتبوا . والسيدة الكونتة بوفلر . وغيرهم ممن كانوا في مكائهم ، والذين كانوا يفضلون بتجشم عناء صعود طريق متعبة ، من القصر إلى (مون - لوى) . وقد كنت مدينا بالخطوة بكل هذه الزيارات ، إلى السيد والسيدة دى لوكسمبورج . وقد كنت المسر هذا ، فكان قلبى يطفر بالعرفان بأفضالها . ولقد حدث في إحدى ثويات التأثير العاطفى ، ان قلت للسيد دى لوكسمبورج : « آه ، يا سيدى البارون ، كنت أكره

العظماء قبل أن أعرفك ، وأنا الآن أكثر كراهية لهم ، منذ جعلتني أشعر كم يسهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع حب وإعجاب ! » .

وفيما عدا ذلك ، فاقنني أسائل كل أولئك الذين عرفوني أثناء هذه المدة « عما إذا كانوا قد لاحظوا أن هذه اللبحة من الفكاك قد بهرتني لحظة ، وما إذا كان دخان هذا البخور قد صعد في رأسي ، وعما إذا كانوا قد راووني أقل تمسبا مع طباعي » وأقل بساطة في مسلكي ، وأقل تطفلا مع الناس ، وأقل ألفة مع جيراني . وأقل استعدادا لمعونة كل امرئ عندها يكون ذلك في مكتبي ، دون أن أتعرض للضرر الذي يترتب على السفاهات والسفاهات التي لا حصر لها ، والتي كثيرا ما تنطلق في غير حكمة ، فتورثني الحرج دون انتفاع ؟ .

وإذا كان قلبي قد اعتاد أن يجتذبن نحو قصر مونبورنسي ، نظرا لمصادق تعلق بصاحبيه ، فإنه كان لا يلبث أن يرذني بنفس الطريقة إلى جيرتي ، لأتذوق حساوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة ، التي لم يكن لي من سبيل إلى السعادة خارج نطاقها . ولقد اتصلت روابط الصداقة بين تيريز وابنة واحد من جيراني ، كان يعمل في البناء - ويدعى بيلو - فحذوت حذوها مع الأب . . . وكنت أتناول الغداء في القصر ، في الظهيرة - وأنا كاره بعض الشيء - رغبة في إرضاء السيدة المارشالة . . . وكنت أعود في المساء ، لأتناول العشاء مع بيلو الطويل وأسرته ، في بيته أحيانا ، وفي بيتي أحيانا أخرى .

وإلى جانب هذين البيتين ، سرعان ما وجدت ثالثا في قصر

دي لوكسمبورج ، بباريس . إذ راح صاحبها يلحسان على في إخلاص كي أزورها في بعض الأحيان ، حتى إنني استجبت لهما ، برغم نفوري من باريس ، التي لم أذهب إليها - عقب اعتكافي في ليرميناج - إلا في المناسبتين اللتين فكرتهما من قبل . . . وحتى إذ ذاك . ما كنت أذهب إلا في أيام محدودة من قبل . . . لمجرد تناول العشاء ، ثم أعود في الصباح التالي ، وكنت أدخل القصر وأغادره خلال الحقيقة المفصلة بالطريق المؤدية من الريف . بشكل أستطيع معه أن أقول - بكل صدق - إنني لم أضع قدما على أرض باريس المروعة !

وفي غمرة هذا الرخاء العابر ، راحت النكبة - التي حددت نهايته - تتجمع على البعد . فلتقد عقدت - عقب عودتي للإقامة في (مون - لوى) تمارنا جديدا ، بالرغم مني ، كالمهود . . . تمارنا يعتبر بداية مرحلة في تاريخي . ولسوف يبدو - فيما يلي - ما إذا كان هذا التعارف طيبا أو سيئا .

أما الطرف الآخر فيه . فكانت السيدة المركيزة دي فيرديلان . جارتي التي كان زوجها قد ابتاع منزلا ريفيا في (سوامي) ، على مقربة من (مونبورنسي) . ولقد كانت الأنسة « دارسي » ، ابنة للكونت دارسي ، الذي كان رجلا ذا مكانة . ولكنه كان فقيرا . . . ثم تزوجت من السيد دي فيرديلان ، وكان كهلا ، قبيح الشكل ، أصم ، جاف الخلق ، قاسي الطبع ، غيورا ، مشوه الخلقة بالنوب ، أعور . . . ولكنه كان - فيما عدا ذلك - رجلا طيبا . إذا ما عرف المرء كيف يفهمه . . . وكان هناك ما بين

عشر ألفا وعشرين ألفا من الليبريات دخلا سنويا ، من أجله زفت الفتاة إليه ! - وكان هذا الرجل المعجيب يتوعد ، ويصرخ ، ويؤمجر ، ويفرى ، ويكي أمراته طيلة النهار ، ولكنه ينتهي دائما بأن ينفذ ما ابتدئت هي ، بعد أن يكون قد أحققها . - فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد أنه هو - وليس هي - الذى كان يبتغى ذلك الشيء المنشود !

ولقد كان السيد دى مارجينسى - الذى تحدثت عنه من قبل - صديقا للسيدة ، وأصبح صديقا لزوجها كذلك . وقد أسكنها - منذ بضع سنوات - بالأجر ، فى قصره القائم فى مارجينسى ، على مقربة من (أويون) و (أريسي) وهناك ، كانوا يقيمون فى غرفة هيامى بالسيدة دوديتو . ولقد تعرفت كل من السيدة دى فيرديلان وهذه الأخيرة ، عن طريق صديقتيهما المشتركة ، السيدة دوبيتر . ولما كانت حديقة قصر مارجينسى تقع على الطريق التى اعتادت السيدة دوديتو أن تسلكها - فى رياضتها المحببة إليها - إلى (مونت أوليب) - فإن السيدة دى فيرديلان أسلمتها بفتحها ، لاستطيع أن تمر خلال الحديقة . ويفضل هذا المنتاح ، كنت أسمى إليها فى كثير من الأحيان ، ولكننى لم أكن مولعا باللقاءات غير المرتقبة ، وكنت إذا قابلت السيدة دى فيرديلان بمصادفة ، أتركها دون أن أنبس بكلمة ، وأضى فى سبرى . وما كان هذا المسلك غير اللبق ، ليعطيها فكرة طيبة عني . ومع ذلك ، فإني سعت إلى صحبتى عندما كانت فى (سوامي) !

ولقد وندت على (مون - لوى) عدة مرات لتقابلنى ، دون أن تجتنى فى البيت . فلما لم أورد زياراتها هذه ، رأت أن ترسل إلى بعض أصغر الزعمور لأزين بها أيكى ، لكى تضطرننى إلى أن أزورها . ووجدتنى مسوقا إلى الذهاب إليها وشكرها . وكان فى هذا ما يكفى لأن يتم التعارف !

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة فى بدايتها ، شأن كل علاقة كنت أعدها بالرغم منى . - بل إنها لم تكن يوما هادئة ، فى الواقع . فان اتجاه عقل السيدة دى فيرديلان ، كان مخالفا أكثر مما ينبغي لاتجاه عقلى . وكانت تطلق الفاظ السوء ، والسخرية المتوارية بكثير من البساطة ، حتى إنها كانت تتطلب من المرء افتباها مستترا - ومرهقا بالنسبة لى - لكى يدرك منى كان يحلو لها أن تهزأ به ! . . . وتحضرنى إحدى نوادر عبثها ومساقتها ، التى تكفى للحكم عليها ، فلقد حدث أن عين أخوها قائدا لمدينة حربية (فرقاطة) ، كانت فى طريقها ضد الإنجليز ، وقدر لى أن اتحدث عن طريقة تسليح هذه الفرقاطة ، دون أن أسمى سرعتها بنقد ، وإذا بها تقول ، بدون أن تغير لهجتها : « أجل . . . إن المرء لا يأخذ من المدافع إلا القدر اللازم لهزيمته ! » . . . ونادرا ما سمعتها تقول خيرا عن أى من أصدقائها الغائبين ، اللهم إلا إذا دسست خلاله شيئا ضدهم . وكانت تسخر من لا تجد فيه سوءا ، ولم تستغن من ذلك صديقتها مارجينسى !

ومن الأمور التى وجدت أنها لا تطاق منها : ذلك الأزعاج المستمر الذى كان يمثل فى رسائلها . . . وهذات البسطة ، وقصاصاتها التى كنت أضيق بها . . .

لكي اجيب عنها ، والتي كانت تسبب لي حرجا متجددا . سواء
لكي اشكر ، او لكي ارفض !.. ومع ذلك فانتى لم البث ان
تعاقت بها ، بحكم رؤيتي لياها باسمرار . فقد كانت - مثلى -
لها شجونها ، وكان تبادلنا الفضة ، يتيح لنا خلوات طريفة .
فليس اقوى على ربط القلوب من لذة المشاركة في إراقة
الدموع !.. فكان كل منا ينشد الآخر ، لكي يتبادل التسمية
والتعزية ، وهذه الحاجة بالذات ، كثيرا ما جعلتني اغفل عن
امور كثيرة . وكنت قد خشنت كثيرا في صراحتي معها « فكان
لزاما علي - بعد ان ابدت افعال الاحترام لشخصيتها - في
بعض الاحيان - ان اخشى عن حق ، الا يكون بوسعها ان
تصنع عني . وهاكم مثلا للخطابات التي كنت اكتبها احيانا
اليها ، والتي يجدر - ونحن بمصدها - ان اذكر انها لم تكن
تبدى في ردودها عنها ، اية بادرة من بوادر الغضب :

« مونفورتي : ٥ نوفمبر سنة ١٧٦٠ »

« قوليني لي ، يا سيدتي ، انك لم تحصني الإفصاح عن
نفسك ، حتى تجعليني ألس أنتى أسات الإفصاح عن نفسي .
وتحدثيني عن غباكت المزعوم ، لتنبهيني إلى غباي . وتتشددين
بانك طيبة ، وكانك تخشين ان تؤخذى بكلمتك ، كما انك تبدين
الاعذار ، لتشعريني باننى ، دين بشئ منها إليك .

« اجل ، يا سيدتى ، انى لأدرك هذا تماما ، فانا الذى كنت
غدا ، ساذجا ، واسوأ من هذا ، إن امكن !.. انا الذى أسأت
اختيار عباراتي ، دون ان ارعى رضاء سيدة فرنسية « تبدى
كثيرا من الاهتمام إلى الاستوال ، وتحسن الحديث ، مثلك .
ولكن .. لاحظى اننى اخذت هذه العبارات على محملها المادى

في اللغة ، دون ان اعرف او احس شيئا من التاويلات التى
تعلق بها احيانا ، في الأوساط الباريسية الفاضلة . فاذا كانت
تمة تعبيرات تحتمل تاويلات - في بعض الاحيان - فاننى احاول
بمسلكى ان احدد معناها .. الخ » .

وكانت بقية الرسالة بالاسلوب ذاته . فقابل ردها ، الملف
« د - رقم ٤١ » ، واحكم على مدى الهدوء ، الذى يكاد يفوق
التصور ، والذى اوثقه قلب امرأة ، لم تجد ما يستثير سخطا
من خطاب كهذا ، سوى ما اورفته في ردها ، وما ابدته
بمملكتها !.. ولم يعطى « كوانديه » - بما عرف عنه من
انتهاز للفرص ، وجراة تذهب إلى درجة القحة ، وتربص
باصدقائى - في ان يتقدم إلى السيدة دى فيرديلان باسمى ،
وسرعان ما اصبح اوتق صلة منى بها ، دون ان ادرى .. لقد
كان هذا « الكوانديه » مخلوقا عجيبا ، لا مثيل له !.. كان
يتقدم باسمى إلى جميع معارفى ، فيومئذ مكانه في دورهم «
ويأكل على موائدهم دون كلغة ! وكان في وفائه المتحسس لى ،
لا يتحدث عني إليهم إلا والدوموع في عينيه ، ولكنه إذا ما زارنى ،
نمك باشد ألوان التكمم عن هذه العلاقات ، وعن كل شئ
كان يشعرنى انه بشر اهتمامى .. وبدلا من ان يفكر لى
ما سمعه ، او قاله ، او رآه - مما بهينى - كان يلزم الإصغاء
إلى ، بل ويوجه إلى الأسئلة ! وما عرف يوما شيئا عن باريس
إلا ما كنت انبئه به .. وقصارى القول ، إنه لم يكن ليحدثنى
عن أى امرئ ، في حين كان كل امرئ يحدثنى .. وما كان
مقلقا ، غامضا ، إلا مع صديقه ..

ولكن ، لنضع « كوانديه » والسيدة دى « غريديلان » في الوقت الحاضر ، فلن نلثب أن نعود إليهما فيما بعد !

* * *

حدث بعد عودتى إلى سسكنى (مون - لوى) بوقت قصير ، أن أقبل الرسام « لانور » لزيارنى ، وحمل إلى صورة رسمها لى بالطباشير « الباستيل » ، وكان قد عرضها بضع سنوات - قبل ذلك - في صالة العرض . وكان يرغب في أن يقدمها هدية لى ، ولكنى أببت أن أقبلها . غير أن السيدة ديبيناي - التى أهدتنى صورتها - وودت أن تأخذ هذا الرسم - كانت قد حملتنى على أن أعدها بأن أطليه . فإذا « لانور » يستغرق بعض الوقت في تنقيحه . وفي تلك الأثناء ، حدثت المعلمة بينى وبين السيدة ديبيناي ، فرددت إليها صورتها ، ولم أعد أفكر في أن أهديتها صورتنى : ومن ثم فأننى علقت هذه في غرفتى في « القصر الصغير » . ولقد رأها السيد دى لوكسمبورج هناك ، فاعجب بها ، ومن ثم فأننى عرضتها عليه ، فقبلها . . وأرسلتها إليه !

ولقد أدرك والسيدة دى لوكسمبورج أننى خليق بأن أسر إذا ما حصلت على صورتيهما ، فعمدا إلى غسان ماهر بأن يرسمهما في صورتين دقيقتين ، زين بهما صندوقا للحلوى صنع من اللؤلؤ الصخرى : على قاعدة من الذهب . وقدماه إلى بطريركة لبعة ، طربت لها . وما رضيت السيدة دى لوكسمبورج قط عن حرصى على أن أجعل صورتها في الجانب الأعلى من الصندوق . . وكانت كثيرا ما تعتب على ، أننى كنت أكثر حبا للسيد دى لوكسمبورج منى لها . وما دفعت هذا عن نفسى

يوما لأنه كان حقيقة . ومن ثم فقد شاعت أن تورينى في لباقة - ولكن في وضوح كاف - بإصرارها على مكان صورتها . إنما لم تنس هذا الإيثار منى لزوجها !

ولقد ارتكبت - حوالى هذه الآونة بالذات - حماقة لم تساعد على احتفاظى بودها وبمجايلاتها . فمع أننى لم أكن على تعارف بالسيد دى سيلويت - المراقب العام للمالية - وكنت غير ميل إليه « إلا أننى كنت أعشق فكرة جد طيبة عن كفايته الإدارية . فلما بدأت قبضته تشد على رجال المال - رايت أنه لم يشرع في هذه الخطوة : في لحظة ، واثية . ومع ذلك ، فأننى رجوت له كل توفيق . . لذلك فقد بادرت دون نرو - حين بلغتنى أنه أقبل من منصبه - إلى كتابة الرسالة التالية إليه . . وهى رسالة لا أحاول - في الواقع - أن أبررها :

« مونمورسى : ٢ ديسمبر سنة ١٧٥٩

تكرم يا سيدى ، فقبل احترام رجل معتزل ، غير معروف لىك ، ولكنه بقدر نيك مواهبك ، ويجتره لكفايتك الإدارية ، وقد كرمك بأن أيقن بأن هذه الإدارة لن تبقى في يدك طويلا . إنك جرؤت على أن تواجه صيحات جامعى المال ، إذ رأبت أن نبس في وسعك إنقاذ الدولة إلا على حساب رأس المال الذى أودى بها إلى الدمار ، ولقد غيبتك على منمبك ، إذ رأيتك تسحق هؤلاء الأتذال . . وإني اليوم لأكبرك ، إذ أراك تغادره دون أن تكذب نفسك ! . . فاهنأ بنفسك يا سيدى ، فقد أجداك موقتك شرفا ستظل تنعم به ، دون منال . . فاهنأ فاهنأ . . إن ترهات الأوغاد لجد للرجل المستقيم

سنة ١٧٦٠

ولقد حدثتني السيدة دى لوكسمبورج عن هذا الخطاب - وكانت تعلم أنني كتيهه عندما أقبلت في عطلة عيد الفصح - ناطلمتها عليه . . ورغبت في الحصول على نسخة منه ، فأعطيتها بيديها ، ولكني كنت أجهل - إذ قديتها إليها - أنها كتبت من « جامعي المال » الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج « البورصة » . والذين عملوا على إغالة « سبلوبت » . ومن الجدير أن يقال ، أنني بدوت وكأنني كنت استقيض عامدا بغضاء سيدة لطيفة وذات نفوذ ، كنت - في الواقع - أزداد تعلقا بها يوما بعد يوم ، وكنت بعيدا كل البعد عن أن أرغب في أن أجر على نفسي سخطها « بالرغم من أنني كنت - بتصرفاتي الرعناء المخكرة - أعمل كل ما يتطلبه ذلك . واعتقدت أن لا حاجة بي إلى أن أذكر أن هذه السيدة بالذات ، تمرى قصة الدواء الملين للمعدة الذي وصفه السيد تروثنان . والذي تحدثت عنه في الجزء الأول من اعترافاتي (١) . أما السيدة الأخرى ، التي كانت معها ، فهي السيدة دى ميربوا . وما ذكرت لي أي منها هذا الموضوع مرة أخرى ، ولا أبدت أية بادرة توحى بأنها تذكره ، ولكن افترض أن تكون السيدة دى لوكسمبورج قد نسيت حقا ، أمر عسير ، وإن لم يقدر للمرء أن يعرف الحوادث التي أعقبته . أما أنا ، فقد كنت أحاول أن أطعن نفسي من أمر حماقتي متوسلا لذلك بأنني لم أكن أصدر في أي من هذه الحماقات عن قصد الإيذاء ، وكأنا

(١) ذكرت القصة في الكراسة الثالثة - الجزء الأول .

كان من المحتمل أن تغفر امرأة أمورا من هذا القبيل ، ولو كانت على أتم يقين من أنها لم تكن متعبدة !

ومع ذلك ، فبالرغم مما كان يلوح عليها من أنها لم تكن ترى شيئا ، أو تحس بشيء ، وبالرغم من أنني لم أستشعر أي تضاؤل في شعورها ، ولا تغير في تصرفاتها إلا أن هاجسا خفيا - لم يكن ينبعث إلا عن أساس مكين - راح يوحى إلي دون انقطاع « بأن النفور لن يلبث أن يعقب هذا الهيام . أفكان لي أن أتوقع من سيدة عظيمة القدر - إلى هذا الحد - ثباتا ووفاء يكون بهما من غيبياتي وضعف حيلتي ؟ . . . أنني لم أكن أعرف أن أخفي عنها شيئا ، حتى هذا الهاجس الذي راح يقض راحة بالي ، ولم يزدني إلا جفاء وانطواء . وهذا ما يمكن رؤيته في الخطاب التالي ، الذي انطوى على نبوءة عجيبة .

تنبيه : هذا الخطاب الذي لم تحمل مسودته تاريخا ، كتب في شهر أكتوبر سنة ١٧٦٠ ، على أكثر تقدير .

« ما أقسى انصالك . . لماذا تعكرين طهائنة شخص وحيد معزول ، نبد ملاذ الحياة لكي يستشعر مزيدا من الملل منها ؟ . . لقد قضيت أيامي أبحث عينا عن علاقات ودية ثابتة . ولقد عجزت عن أن أوطد شيئا منها ، في الأوساط التي كنت أملك إليها وصولا . . أفكان على أن أبحث عنها في أوساطك أنت ؟

« ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية (إغراء لدى) ، فانا مغرور ببعض الشيء ، فإني أحب بعض الشيء ، فإني أحب كل شيء ، في العواطف . . فلماذا تهافتت في نفسك ؟

أن تغلب عليه . ما دام نخفق القلوب الحساسة لن يقوى على أن يقربني منك ، نظرا للبون الذي بفعل بيننا »
 « أميكون المرفان كافيا لقلب لا يعسرف رياء ، ولا يشمر بانه قاصر إلا على الصداقة . . . الصداقة يا سيدتي المارشال ! . . » هنا مصدر تعاسيتي . . . من الجيل منك ، ومن السيد المارشال ، أن تستخدمنا هذه الكلمة « ولكني أحق إذ أصدق أنكما تعينانها . . . إنكما تلوان لتسريا عن نفسيكما . أما أنا فمتعلق بوفاء ، فاذا نهاية اللهو تعدني لحسرات جديدة . . . لكم اكبره كل القلبكما . ولكم أرني لكما إذ تحملانها . . . إنكما لتبذوان - في نظري - حديدين بأن تتذوقا كل مغان الحياة الخاصة ، الغمورة . . . لم لا تقيماني في (كلاران) . . . إني لأتوق إلى أن أنشد هناك هناك حياتي . أما قصر مونتفونسي ، وأما قصر لوكسمبورج ؟ . . . أمهناك تنبئ رؤية جان جاك . . . أمهناك ينبئ لواحد من اصداق المساواة أن يروى عواطف قلب حساس ، بخشي - إذ يضع بهذا الشكل ثمن التقدير الذي أبدى إليه - أن يعطى أكثر مما يتسلم ؟ »

« إنكما طيبان وحكيان كذلك ، وإني لأدري ذلك . وقد رايت . وإني لأسف على أنني لم أستطع أن أصحقه قبل الآن . على أنني إذ أقدر العليقة التي تقيماني إليها ، والأسلوب الذي تعيشان عليه ، أرى أن لا شيء يستطيع أن يترك طابعنا باقيا في نفسيكما . ومن ثم فإن أشياء كثيرة تتعاقب لديكما ، فبحسب كل منها الآخر ، ولا يتقد لأحد أن يبقى دائما ! »
 « لسوف نسيني يا سيدتي ، بعد أن جعلتني أعجز ما أكون

عن أن أحذر حذوك فتأسي أنا الآخر . لقد خلقت لكي تجعلين مني إقسفا شقيا ، دون أن يكون لك العذر ! » .

وما قرنت اسم السيد دي لوكسمبورج باسمها ، إلا لأخف من جفوة الرسالة ، وبمها عدا ذلك ، فقد كنت واثقا منه ، فلم أشعر بالقلق لحظة إزاء دوام صداقته ، وما قدسر شيء من الهواجس التي راودتني بشأن زوجته ، أن يمتد إليه . . . أبدا ما شعرت بأقل تزعزع في ثقتي بشخصيته ، التي كنت أعرف أنها ضعيفة ، ولكنها أهل للثقة . فما كنت أخشى نورا من ناحيته ، إلا بقدر ما كنت أترقب منه إقداما بطوليا . . . كانت بساطة والفة علاقتنا تبين كيف كان كل منا يركن إلى الآخر . وقد كنا معا على صفاء ، ولسوف أظل ما حييت أجد فكري هذا السيد الأفضل وأعتر بها . . . بمها تكن المحاولات التي بذلت كي تباعد بينه وبينني . فسأبقى مطمئنا إلى أنه مات وهو صديق لي . . . كما لو كنت قد تلقيت آخر أنفاسه !

ولقد انتهت مطالعات « جولي » في زيارتهما الثانية لليونورنسي ، في سنة ١٧٦٠ . وكان على أن انتقل إلى « أميل » لكي أبقى مع السيدة دي لوكسمبورج ، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقا ، إما لأن الموضوع لم يرق لها ، وإما لأنها كانت قد ملت كل هذه المطالعات . ومع ذلك ، فإنها رغبت - وهي تلومني على أن تركت نفسي لفتنة « أميل » - في أن أترك لها طبع الكتاب ونشره ، « حتى تستطيع أن تقرأه صديقة

افضل . ووافقت على اقتراحها ، مشترطاً الا يطبع الكتاب في فرنسا .

وهذا ما قام بيننا خلاف طويل حوله . فقد كنت أرى أن من المستحيل الحصول على إذن بطبعه في المملكة ، وأن ليس من الحكمة طلب هذا الإذن . . وما كنت - في الوقت ذاته - لأقبل أن يطبع في فرنسا بغير ذلك . أما هي ، فكانت ترى أن هذا ليس بالأمر العسير - من ناحية الرقابة - تحت النظام الذي انتهجته الحكومة . وقد وجدت الوسيلة التي جمعت بها السيد دي ماليزيبر يقرها على آرائها ، فكتب إلى رسالة طويلة ، لكي أقر بأن كتاب « عودة أسقف سافوا إلى الإيمان » هو عين ما يجب أن يقابل بالتحجيز من كل الجنس البشري في كافة الأرجاء ، بل وفي البلاط الملكي ، في تلك الظروف . . . وعجبت إذ وجدت هذا الموظف المسئول ، الذي كان بطبيعته رعديداً ، قد تساهل في هذه المسألة إلى هذا الحد !

ولما كانت مجرد الموافقة منه كافية لإجازة طبع الكتاب قانوناً ، فإنني لم أعد أمك أي اعتراض . على أنني - بسبب نذر خفي غريب هجس في نفسي - ظلت أصّر على أن يطبع الكتاب في (هولندا) ، وبوساطة المكتبي « نياولم » . الذي لم اكتف بأن أرشدت إليه ، بل إنني كتبت إليه استشيرته . ووافقت على أن تكون الطبعة لحساب ناشر فرنسي : أي أن يتم إعدادها في (هولندا) ، وتباع في باريس ، أو في أي مكان آخر . فما كان البيع ليعني في شيء . وهذه هي عين النقاط التي اتفقت عليها مع السيدة دي لوكسمبورج ، والتي سلمتها المخطوط بعد إتمامها .

وكانت قد أحضرت معها - في هذه الرحلة - ابنة أختها ، الأنيسة دي بوفليير ، وهي الآن السيدة دوقة دي لوزون . وكان اسمها « أميلي » . ولقد كانت فتاة فتاة ، وكان وجهها . ورقتها ، وخفرتها ، تجهل براءة العذارة الحقيقية . فما كان ثمة ما هو اللطف ولا ادعى للاهتمام من وجهها ، ولا كان هناك ما هو أكثر طهراً من المشاعر التي كانت تنثرها في النفس . . . ولا غرو ، فقد كانت طفلة . لم تتجاوز العام الحادي عشر من عمرها . وإذا وجدت السيدة المارشالة بالفة الحياء راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل . فسمحت لي مراراً بأن أقبلها ، الأمر الذي أقدمت عليه بحبائي المعبود . وبدلاً من المداعبات اللطيفة التي كان أي أمرى آخر خليفاً بأن يقولها - إذا ما كان في موضعي - ظلت صامتة ، عينا . . فلم أدر من كان أكثرنا حياء : الصغيرة المسكينة ، أم أنا ؟ .

وفي ذات يوم ، صادفتها وحيدة على سلم « القصر الصغير » ، وكانت قد أقبلت لتزور تيريز ، حيث كانت مريبتها في زيارتها . وإذا لم أدر ما ينبغي أن أقوله لها ، سألتها أن تمنحني قبلة . فلم تأبها على ، بكل ما في قلبها من براءة وطهر ، لا سيما وأنها كانت قد منحني قبلة أخرى في صباح اليوم ذاته ، بأمر من خالة أمها ، وفي حضورها .

وفي اليوم التالي ، صادفت - وأنا أقرأ « أميل » على السيدة المارشالة - مقرة حرمت فيها ، بحجة قوية ، عين الشيء الذي كنت قد فعلته - أنا نفسي - في اليوم السابق . ووجدت السيدة أن ما ذهبت إليه - في تلك المقرة - كان حساباً ،

وأبدت بعض ملاحظات مقنونة . جعلتني أتضرع خجلا .
لكم المن غبلى الذى يفوق التصور ، والذى كثيرا ما جعلني
أبدو خبيثا . آتيا ، فى حين اننى لم أكن أكثر من أحمق ، سريع
الارتباك . . . ولقد كانت حماقتى من ذلك النوع الذى يؤخذ
على أنه عذر زائف . من رجل عرّف عنه أنه ذكى . . . إن
بوسعى أن أقسم على أن تلك القبلة كانت خالية من كل
ما يستحق اللوم . وأن قلب الأنسة « أميلى » وعواطفها « لم
تكن — فى هذه الناحية — أطهر من قلبى وعواطفى أنا . . .
بل إن بوسعى كذلك أن أقسم إننى لو كنت قد استطعت
— فى تلك اللحظة — أن أتخاضى لقاء الصبية لمعلت . إذ اننى
— بالرغم من سرورى لرأها — كنت فى حيرة بالغة ، لا أكاد
أجد شيئا مناسباً أقوله لها وأنا أمر بها .

نرى كيف يتسنى لطفلة أن تبعث الارتباك لدى رجل لم
يستطع سلطان الملوك أن يرهيبه . . . أى قرار يتخذ . . .
وكيف يتصرف . إذا هو مجرد فجأة من حضور ذهنه . . . إننى
إذا فصيت نفسى على الحديث إلى من أقابلهم من الناس ،
فلمست أقول سوى هذيان لا يفهم . . . وإذا أنا لم أقل شيئا ،
اتهمت بأننى أنفر من البشر ، وبأننى حيوان وحشى ، وبأننى
دب . . . لقد كان الفناء الكامل أحب إلى من هذه الحال ، ولكن
المواهب التى كانت تموزنى فى صحبة الناس ، هى التى جعلت
تلك التى أملك ، أداة لدمارى !

وفى نهاية مقام السيدة دي لوكسمبورج — فى هذه الزيارة —
قامت بعمل طيب « كان لى فيه نصيب . فقد حثت على أن
« ديدرو » — فى ظهور بالغ — السيدة الأبهة التى رافقت . وكانت



وفى ذات يوم ، صدفت وحيدة على سلم « القصر الصغير »

من بنات السيد دي لوكسمبورج . ولقد انتقم لها الاديب الذي يتمتع برعايتها ، « باليسو » ، بمسرحيته العزلية « الفلاسفة » ، التي تعرضت انا فيها للسخرية ، كما عومل فيها « ديدرو » بتسوة عنيفة . وما كان المؤلف اكثر إشفافا على - منه على « ديدرو » ، براعاة للأزمات كانت تفرض عليه ذلك نحوى . بقدر ما كان ذلك لخوفه من أن يغضب والد السيدة التي كانت ترعاه ، فقد كان يعرف أن السيد دي لوكسمبورج كان حفيبا بى ، ودودا نحوى ! .

ولقد أرسل إلى « دوشين » الكتيب - الذى لم اكن قد تعرفت إليه - إذ ذاك - نسخة من المسرحية . عندها طبعت فحدست أنه ما فعل ذلك إلا بإيماء من « باليسو » ، الذى ربما خال أننى قد ابتهج لرأى رجل - نصبت عرى الصلات معه - مرغ في التراب . ولكنه أخطأ في هذا خطأ مغرطا ، فمع أنني كنت قد قطعت ما بينى وبين « ديدرو » - الذى كنت أؤمن بأنه ضعيف ، وغير أمين على الأمرار - أكثر منه خبيث - إلا أننى احتفظت له في قلبي بشعور من الولاء ، بل ومن الإكبار والاحترام ، نظرا لصادقنا القديمة ، التي أومن من أنها كانت - لزمن طويل - خالصة صادقة ، من ناحيته ، كما كانت من ناحيتى .

على أن الأمر يختلف بالنسبة إلى جريم ، الذى كان غشاشا خادعا ، والذى لم يحببني إطلاقا ، بل وما كان بقادر على الحب ، والذى تحول في الخفاء فأصبح اتذع الشائتين لى ، دون أى مؤبر ، اللهم إلا الرغبة في إرضاء غيرته الحاقدة . . . وما كان هذا بالشخص ذى القيمة لدى ، أما الآخر ، فسيظل دائما

مدينى القديم . ومن ثم فقد تحركت في فؤادى أرق المشاعر ، عندها رأيت تلك المسرحية البغيضة ، ولم اقو على المضى في قراءتها . بل إننى رددتها إلى « دوشين » ولما أتتها ، وأرقت بها الرسالة التالية :

« مونورنسى : ٢١ مايو سنة ١٧٦٠

■ ما أن تصفحت المسرحية التي أرسلتها إلى - يا سيدي - حتى اشمازرت إذ وجدتنى موضع إطراء . وإنى لأرفض هذه الهدية البشعة . وإنى لأعتقد أنك يلزمها إلى ، لم تكن تبغى الإساءة . ولكنك تجهل أو أنك قد نسيت اننى قد تشرقت بأن أكون صديق رجل جدير بكل احترام ، ولم يكن يستحق أن يغم وأن يفترى عليه ، في هذه المسية المطبوعة » .

ولقد اطلع « دوشين » ديدرو على هذه الرسالة ، فبدلا من أن يتأثر بها ، إذا هو يستاء منها . مما كان لأنانيته أن تفتر لى التصرف الكريم الذى يكسبني تفوقا عليه . وقد سمعت أن زوجته راحت تحمل على في كل مكان ، في حقد لم يحزننى إلا قليلا ، إذ كنت أعرف أن الناس جميعا كانوا يعرفون أنها سليطة !

ولقد وجد « ديدرو » بدوره ، منتقما له في شخص الرابع « مورييه » ، الذى وضع كتيباً ضد « باليسو » ، ولقد قلده « النبي الصغير » ، وأسماء « الرؤيا » . ولقد أقدم في تهور ، على إهانة السيدة دي روبك في كتيبه هذا ، فعمل استغفارا على إلقائه في سجن « الباستيل » بل كان بطبيعته شديدة الحقد ، كما أنها كانت

ومن ثم قلت اعتقد انها كانت ذات يد في هذا الانتقام .

ولقد كتب إلى « دالبيير » - الذي كان وثيق الصلة بالراهب موريليه - وسألني أن أرجو السيدة دي لوكمسبورج بأن تشفع له كي يسترد حريته ، وأعيدا بأن بطريركيا في « الموسوعة » ، كرمز لامتنانه . وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات ، في قصر دي لوكمسبورج ، عندما كانت أوراقي مودعة هناك . وها هو ذا ردي :

« لم أكن أرتقب خطابك يا سبدي ، حتى أشهد السيدة . المارشالة دي لوكمسبورج على الألم الذي يكبنيه سجن الراهب موريليه . نهى تعرف الاهتمام الذي لدى نحو هذه المسألة ، ولسوف تعرف كذلك الاهتمام الذي تبديه نحوها . وسيكفيها ذلك لكي تهتم بالأمر بنفسها ، وتعرف انه رجل كفء .

« ولحق ذلك ، فبالرغم من أنها والسيد المارشال بشرافني بكرم هو عزاء حياتي ، وبالرغم من أن اسم صديقك (١) يعتبر - لديها - توصية في صالح الراهب موريليه - إلا أنني أجعل إلى أي مدى يلائمها أن يستغلا ، في هذه المناسبة - بما لمكانتهما من نفوذ . وما لشخصيهما من أعضار . ولست أميل إلى الاعتقاد ، بأن العمل الانتقامي - في هذا الموضوع - ذو علاقة بالسيدة الأميرة دي روبيك ، بالمقدر الذي يلوح في ظنك . بل لو أن الأمر كان كذلك حقا ، فخليق ألا نفترض أن لذة الانتقام للنفس . وقف على الفلاسفة وحدهم ، وأنهم إذا اختاروا أن يكونوا نساء ، كان على النساء أن يصبحن فلاسفة !

(١) بقصد « روسو » - بهذا التفسير - نفسه .

« ولسوف أوفيك بما ستقوله لي السيدة دي لوكمسبورج ، عندما أطلعها على رسالتك . وفي الانتظار ، أعتقد أنني من المعرفة بها بالدرجة التي تمكنني من أن أطمئنك مقدما بأنها إذا استطاعت أن تساهم في إطلاق سراح الراهب موريليه ، فلنأخذها - يقينا - تأبى أن تقبل رمز الامتنان الذي تعد بأن تؤثرها به في « الموسوعة » . بالرغم من أنها قد تشعر بأن في هذا العمل تكريما لها . . لأنها لا تبذل الضر طبعها في الثناء ، وإنما لترضى قلبها الطيب فحسب . »

ولم أأخر شيئا في استثارة حماسة السيدة دي لوكمسبورج وعطفها في سبيل المسجين البائس ، واستطعت أن أوفق في ذلك فقد قلمت برحلة إلى (مرساي) ، خصيصا لتقابل السيد الكونت دي سان - فلورنتان ، وقد أدت هذه الرحلة إلى تقصير أمد إقامتها في (مونتورنسي) ، التي اضطر السيد المارشال إلى مزارعتها - في الوقت ذاته - ليذهب إلى (روان) ، حيث أوقده الملك كحاكم لنورماندي ، من جراء بعض حركات البرلمان أريد إحباطها . وها هو ذا الخطاب الذي كتبته لي السيدة دي لوكمسبورج ، غداة اليوم التالي لرحيلها :

(الملق « د » - رقم ٢٢) .

مرساي - يوم الأربعاء

« سافر السيد دي لوكمسبورج في الساعة السادسة من صباح أمس ، ولست أدري ما إذا كنت سألحق به . إبتنى في انتظار أنبئته ، لأنه هو نفسه لا يدري كم من الوقت سيغيبه هناك .

« لقد قابلت السيد دي سان - فلورنتان الذي وجدت

عنده أشد الميل إلى مساعدة الراهب موريليه ، بيد أنه يلقي — في ذلك — عقبات ، يرجو أن يخلطها وينتصر عليها في أول مرة يحظى فيها بلقاء الملك ، وسيكون ذلك في الأسبوع المقبل . ولقد سألته صنيعا آخر : ذلك هو الابن الراهب . إذ أن هذا كان موضع دراسة ، وكان من المراد إقصاؤه إلى نائبي . « هذا هو ، يا سيدي ، ما استطعت أن أصل إليه ، ولكنني أعدك بالا ادع للسيد دي سسان — فلورنتان . سييلا إلى الراحة ، إلا بعد أن تنتهي المسألة وفق ما تشتهي . »
« الآن ، نعال أقل لك أي حزن أعانيه لفراقك بهذه العجلة ، ولكنني أعلم نفسي بأنك لا ترتاب في ذلك ! »

« إنني أحبك من كل قلبي ، وطيلة حياتي . »
وبعد بضعة أيام ، وتلقيت هذه الرسالة القصيرة من « داليمير » ، فبعثت في نفسي فرحة صادقة :
« غادر الراهب « الباسقيل » بفضل عنايتك ، يا فيلسوف العزيز ، ولن تكون لسجنه معقبات بعد ذلك . ولقد سافر إلى الريف ، وهو يبعث — كما أبعث أنا أيضا — إليك ألف شكر وتعبية . ولك تقديري وودي . »

كذلك كتب لي الراهب — بعد بضعة أيام — رسالة شكر (الملف « د » — رقم ٢٩) ، لم يبد لي فيها أثر من شعور قلبي ، بل لقد لاح فيها أنه كان يهون — إلى حد ما — من قيمة الخدمة التي أدتها له . ويمد زمن قصير تبينت أنه و « داليمير » قد جفائي — ولن أقول قد اقتلعاني ليحلا محلي — في الخطوة لدى السيدة دي لوكسمبورج ، وأنتي فقدت من تقديرها ، بقدر ما كسبها . على أنني جد بعيد عن أن أرتاب في أن الراهب

٢٤٧ اعترافات جان جاك روسو — الجزء الرابع
موريليه قد ساهم في الخط من قدرتي ، فأنى أجله عن ذلك . أما السيد « داليمير » ، فليس لدى ما أقوله عنه هنا ، وسأتكلم عنه فيما بعد .

وكانت لدى — في ذلك الوقت بالذات — مسألة أخرى . أتت إلى آخر خطاب كتبه إلى السيد « فولتير » . . . وكان خطبا أطلق من جرائه الصرخات مدوية ، معلنا أنه إهانة له منكرا ، ولكنه لم يطلع مخلوقا عليه قط . ولمسوف أوردته هنا . ذلك أن الراهب « ترويليه » — الذي كنت على معرفة بسيطة به ، والذي لم أراه إلا نادرا — كتب إلي ، في ١٢ يونيو سنة ١٧٦٠ . (الملف « د » — رقم ١١) ، لينبئني بأن السيد فورمي — صديقه وراسله — قد طبع في يومياته رسالتي إلى السيد دي فولتير ، عن نكبة لشبونة . وقد أراد الراهب « ترويليه » أن يعرف كيف تسنى هذا النشر ، وسألني — بدهائه الجيزوتي — رأيي في إعادة نشر هذه الرسالة ، دون أن يريد مصارحتي برأيه هو !

ولما كنت أكره أصحاب المكر كراهية تامة . فأننى شكرته — بقدر ما كان يستحق — ولكن في شيء من الجفاء . ولقد لاحظت ذلك ، ولكنه لم يردعه عن أن يحاول استدراجي من جديد ، في رسالتين أو ثلاث ، حتى تبين كل ما كان يريد أن يعصرمه . ولقد انزعت تماما — مهما يكن ما يقوله ترويليه — أن فورمي لم يكن قد وجد رسالتي إلى السيد دي فولتير منشورة . وأنه إنما نشرها بنفسه لأول مرة . ولم يفت أنه كان لا يحفل . اعتاد — بصراحة — أن يكسب دخلا من وراءه مولعاته بغيره .

وإن لم يكن قد جرؤ بعد على الوثاقة المذمومة ، واعنى بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره ، لوضع هو اسمه عليه ، وببيعه لمنفعته الخاصة (١) .

ولكن ، كيف تسنى لذلك الخطاب ان يصل إلى يديه ؟ . هذه هي المسألة ، التي لم تكن مستعصية الحل ، وإن كنت من السذاجة بحيث حرت في أمرها . فبالرغم من أن توليت كان قد نال تكريما ضافيا في هذا الخطاب « إلا أنه كان على حق في أن يشكو — بالرغم من مملكته النابي — لو أنني كنت قد نشرت لخطاب بدون موافقته . ومن ثم فقد رأيت ان اكتب إليه بهذا الشأن . وهاكم هذا الخطاب الثاني ، الذي لم يرد عليه إطلاقا ، والذي تظاهر بالهياج — حتى الجنون — من جرائه . كي ينطلق في نفاعته بكثير من التحرر .

« مونتورنسي : ١٧ يونيو سنة ١٧٦٠

« ما ظننت قط يا سيدي ، أنني ساجد نفسي على تكاتب معك ثانية . ولكي — إذ علمت ان الخطاب الذي كتبتك إليه في سنة ١٧٥٦ — قد طبع في برلين ، وجئت من الواجب ان اطلعك على تصرف في هذا المسدد ، واني لاؤدى هذا الواجب بصدق وبساطة .

« إن هذا الخطاب ، إذ وجه إليك حقا ، لم يكن مقدرا له ان يطبع ، وما أنضيت بمحتوياته — بقيود اشترطتها — إلا لثلاثة أشخاص ، لم يكن حقوق الصداقة لتبيح لى أو أبى عليهم شيئا من هذا القبيل ، كما أن حقوق الصداقة هذه بالذات ، لا تسمح لهم بأن يسبقوا استغلال الأمانة ، بأن ينتهكوا

(١) أشك روسو : « وبهذا الطريقة سطا على « أميل » فيما بعد » .

عهودهم . . هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم : السيدة دى شينونسو — زوجة ابن السيدة دويان — والسيدة الكونتيسة توديتو ، والمائى يدعى جريم . ولقد كانت السيدة دى شينونسو فتاة إلى أن يطبع هذا الخطاب ، وسالفتنى ان اوافق على ذلك . وقد قلت لها إن هذا يتوقف على ، وافقتك انت . وقد سألتك ذلك بنفسها ، فاجبت انت بالرخص . ولم تتر المسألة بعد ذلك .

« على ان السيد الراهب ترويليه ، الذى لا تربطنى به صلة ما ، كتب إلى أخرا « بدافع من عناية مفعمة بالكرم ، مذكر أنه تلقى صفحات من يوميات السيد فورى وإذا نه يقرأ فيها ذلك الخطاب بالذات . مع كلمة قال فيها المحرر — تحت تاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٥٩ — إنه وجد الخطاب قبل بضعة اسابيع ، في مكتبات برلين ، وأنه لما كان من الفشرات أتت سرعان ما تخفى دون أى رجاء في عودتها ، فقد رأى ان من واجبه ان يفرد له مكانا من يومياته !

« هذا يا سيدي ، كل ما عرفته عن الأمر . ومن المحقق جدا ، أن هذا الخطاب لم يتسلل إلى سمع أحد — في باريس — أو لسانه حتى الآن . ومن المؤكد كذلك ، ان النسخة التي وقعت في يدى السيد فورى — سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة — لا يمكن ان تصل إليه إلا من طريقك انت ، وهو الأمر غير المحتمل . . أو من طريق واحد من الأشخاص الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم . . وأخيرا ، من المؤكد جدا ، ان أيا من السيدتين لا يمكن ان تقدم على مثل هذه الهبة للأمانة . وليس بوسعى — من معزلى — أن أصل إلى طرق من المعرفة

في هذا الصدد ولكك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك - من طريقتهم وبمعونتهم - أن تتعقب المسألة حتى مصدرها الأصلي ، إذا رايت أنها تستحق العناء ، وأن تعرف حقيقة الواقعة .

« ولقد ذكر لي السيد الراهب ترويليه - في رسالته هذه - أنه يحتفظ بلك الورقة من اليوميات ، وأنه لن يبرها لأحد بدون رضائي قط ، وهذا ما لن يصدر مني قط . . . غير أن هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة في باريس . ورجائي هو ألا يطبع هذا الخطاب هناك ، وسأبذل تصاري وسمي من أجل ذلك . على أنني إذا عجزت عن الحلولة دون طبعه ، ونمي إلى النبا - في الوقت المناسب - فقد أستطيع أن اتمسك بحق الاستيقية ، وإذ ذاك ، فلن أتردد في نشره بنفسى . وهذا - كما يبدو لي - مجرد تصرف طبيعي عادل .

« أما ردك عن الخطاب ذاته ، فأننى لم أبع به مخلوق ، ولك أن تطمنن إلى أنه لن ينشر إطلاقاً دون إذنك ، وهو ما إن أكون من الاستهانة بالمسرح بحيث أسالك إياه ، لأننى أعلم تمام العلم ، أن ما يكتبه إنسان لإنسان آخر ، ليس مما ينشر على الملأ . أما إذا شئت أن تكتب رداً موجهاً إلى : بفرض النشر ، فأنى أمك بأن الحق بأمانة برسالتى ، دون أن أعقب عليه بكلمة واحدة .

« إننى لا أحبك إطلاقاً يا سيدى ، ولكك وجهت إلى من الاساءات ، ما لا أمك سوى أن أشعر بأبلغ الملام بسببها . . أنا قاتلوك ، وأشد المعجبين تحسنا لك . . . لقد أضمت (جنيف) جزءاً لها على ما لقيته منها من إيواء . . . ولقد نفرت

منى أبناء وطنى ، في مقابل اللقاء الذى أضفيتها عليك لديهم إنك أنت الذى جعلت حياتى في وطنى ومستقط رأسى ، أرا لا أطيعه ! . . إنك أنت الذى ستضطرني إلى أن أموت على أرض أجنبية - محروماً من كل ما يتاح للمحتضرين من تسرية ومواساة - والا لقي من التكريم أكثر من أن لقي في حياة . . بينما تراقبك في وطنى ، كل آيات التكريم التى يحق لإنسان أن يطمع فيها . . . إننى - بإلجاز - أكرمك ، وما دمت قد رغبت في هذا . . . ولكنى أكرهك كرجل لا يزال خليقاً بأن يحبك ، إذا كنت ترغب في ذلك . إن العاطفة الوحيدة التى تبقى - من كل الأحاسيس التى يزرع بها قلبى تحسوك - لهى عاطفة الإعجاب الذى لا يمكن للمرء أن يباه على عبقريتك البديعة ، والحب لما تكتب ، وإذا كنت لا أقوى على أن أكرم نيك سوى مواهبك « فليس هذا ذنبى . ولن يعوزنى قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب ، ولا السلوك الذى تتطلبه .

« ووداعاً يا سيدى » .

.....

تنبيه : يلاحظ أن هذا الخطاب وإن كتب منذ حوالى سبع سنوات . إلا أننى لم اتحدث عنه إلى نفس حية ، ولا أطلعت عليه أحداً . وكذلك كان شأن الخطابين اللذين اضطرني السيد هيوم إلى أن أكتبهما له في الصيف الماضى ، حتى أثار الفجسة - التى يعرفها كل امرئ - بشأنها . إن السوء الذى أضطر إلى أن أقوله لأعدائى ، إنما أوجهه إليهم فيما بيننا . أما الخير - إذا وجد شيء منه - فأنى أقوله علانية وبقلب سليم .

وفي غمرة هذه المشاهدات الأدبية الطفيفة ، التي لم تزني إلا إصراراً على عزمي ، قدر لي أن ألتقي أعظم تكريم أسندته إلى مهنة الأدب . . . التكريم الذي كنت أشد اعتزازاً به منى بأي شيء آخر . وقد تمهل هذا التكريم في تنازل السيد الأمير «دي كوني» بزيارتين مرتين ، إحداهما في «القصر الصغير» ، والأخرى في «مون - لوى» . ولقد اختار في كل من المرتين - على السواء - للفترة التي لم تكن فيها السيدة دي لويسبورج في «مونمورنسى» ، حتى يكون أكثر إظهاراً لأنه إنما كان قادماً من أجل . وما ارتبت يوماً في أنني إنما كنت مديناً بأولى مكارم هذا الأمير ، إلى السيدة دي لويسبورج ، وإلى السيدة دي بوفليير . غير أنني لا أرتاب كذلك ، في أنني مدين بالمطف الذي لم يكف قط - منذ ذلك الحين - عن أن يشرفني به ، إلى مشاعري الخاصة ، وإلى نفسي .

.....

ثنيه : لاحظوا إصرار هذه التتية العمياء ، الغبية ، على البقاء ، في غمرة كل الإساءات التي كانت كثيفة بأن تجعلني أسوء الظن بها . ولكنها لم تختلف إلا بعد عودتي إلى باريس في سنة ١٧٧٠

.....

ولما كان مسكني في «مون - لوى» جد مسفر ، وموقع الأيكة جميل ، فقد أخذت الأمير إليها ، وإذا به - لكي يتوج فضاله - يرغب في أن يشرفني بأن يلعب دوراً في الشطرنج معي . وكنت أعرف أن بوسعهم أن يهزم الشيفالييه لورينزي ، الذي كان أمير منى لعباً . على أنني كسبت الدورين اللذين لعبتهما ، بالرغم

من إشارات وغمزات الشيفالييه وأولئك الذين كانوا حضورياً ، فقد تظاهرت بأنني لم أكن أراها . وعندما انتهينا ، قلت له في لهجة جادة ، بفعمة بالاحترام : «مولاي ، إنني أوقر سمعك في خضوع يتوق أي تورع عن كسبك في الشطرنج دائماً . . . نشعر هذا الأمير العظيم - النابه ، المطلع ، الذي كان أهلاً لأن يابى التلقا ، أو هكذا ظننت ، على الأقل - أنني الوحيد بين الحضور ، الذي عايله كقلمان ، ولدي كل ما يجعلني أعتقد أنه شعر بالمتان حقيقي نحوي لذلك !

ولو أنني علمت عنه أنه استاء مني ، لما أنبت نفسي على أنني لم أرض بأن أخدعه في شيء ، ولست أجده - بقينا - ما يجعلني على أن ألوم نفسي على أنني أسأت - في قلبي - تقبل فضاله ، وإن كنت قد فعلت ذلك أحياناً حقاً ، في حين أنه كان يبدي رقة لأحد لها في مسلكه نحوي . ولقد أرسل إلى بعد أيام قلائل ، سلة مليئة بطيور القنص ، فتقبلتها بقبول سليم . وما لبثت - بعد ذلك بفترة - أن أرسل إلى سلة أخرى ، مصحوبة برقعة من أحد حراس صيده ، كتبت بهلاء منه ، ليخبرني بأن محفويات السلة من الطيور التي أصيبت بيد صاحب السموم نفسه . ولقد تقبلتها ، ولكنني كتبت إلى السيدة دي بوفليير ، أئبها بأنني لن أقبيل مزيداً من هذه الهدايا . وقد جلب على هذا الخطاب لوماً عالياً ، كنت أستحقه . فان رفض هدايا الصيد ، من أمير من الأسرة المالكة ، يبدي - إلى جانب ذلك - في إهدائها كل لطف ، إنما يتم عن ملاحظة من شخص سيء النشأة ، ينسى نفسه ، أكثر مما يتم عن شعور مرهف من رجل ذي كرامة وكبرياء .

باستقلاله . وما قرأت قط هذا الخطاب ، إلا تضرع وجهي خجلا منه ، وإلا أثبتت نفسي على كتابته .

على أنني لم أقدم على كتابة اعترافاتي ، لكي أسكت متكتما حماقتي ، وأن الواقعة الراهنة لتبليغي أشمئززا من تقدي ، إلى درجة تفوق كل ما يمكن أن يغريني على تكتمي !

وإذا كنت لم أضف إلى ذلك حيلة جديدة بأن أغدو منافسا له ، فأنني كنت جد قريب من أن أفعل هذا ، إذ أن السيدة دي بوفلير ، كانت - في ذلك الوقت - ما تزال عشيقته ، ولم أكن أعرف شيئا عن ذلك . وكانت تعد لزيارتي كثيرا ، في صحبة الشيفالييه دي لورينزي . وكانت جميلة ، ما تزال في شبابها ، وكانت تعجب بالفكر الروماني ، في حين أنني كنت دائما مولعا بالخيال الشاعرى ، وكان في هذا تشابه كاف . ولقد كنت أفصح نفسي ، وأعتقد أنها لمحت ذلك . وكذلك لاحظته الشيفالييه ، فقد حدثني بصده - على الأقل - بطريقة لم ترم إلى تثبيط عاطفتي !

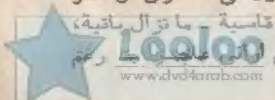
ولكني كنت في هذه المرة حكيما ، وكان الزمن يستدعي ذلك ، إذ أنني كنت في الخمسين من عمري . ولما كنت مغم النفس بالنصيحة التي أسديتها إلى الشيب ، في رسالتي إلى « داليمير » ، فقد خجلت من ألا أتبد منها . وإلى جانب ذلك ، فإني - بعد أن علمت كل ما لم أكن أعلم من قبل - كنت خليقا بأن أكون قد فقدت صوابي تماما ، لو أنني جرؤت على أن أصبو إلى منافسة غريم في مثل تلك المكانة الرغيدة . وأخيرا ، فأنني على ما يبدو لم أكن قد شفيت تماما من هوى السيدة دوديتو ، فكنت أحس بأنه ما من شيء بعد هذا الهوى

يمكن أن يحتل محله من قلبي ، وودعت الحب ما بقي من عمري .

لقد تلقيت - قبيل اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور - ملاطفات خطيرة ، من شابة لها أغراض لدى ، وقد كانت ملاطفاتها مسحوبة بنظرات زاحرة بالمعاني ، ولكن .. إذا كانت تتظاهر بثمان سنين عمري الخمسين ، فإن من واجبي أن أذكرها ! .. وبعد أن انتزعت نفسي من فخها ، لم يعد يساورني أى خوف من الوقوع ، بل إنني لأشعر بأن في وسمى أن أتق بنفسي - في هذا الصدد - بقية عمري !

ولقد لاحظت السيدة دي بوفلير الانفعال الذي بعثه وجودها في نفسي ، وكان بوسعها أن تلاحظ كذلك أنني قد انتصرت عليه . إنني لست من الطيش ، ولا من الخور ، بحيث أعتقد أنني - في هذه السن - أثير في نفسي أى ميل نحوى ، ولكنى - على ضوء بعض عبارات استخدمتها في حديثها إلى ثيريز - أعتقد أنني أثرت نوعا من الشعور الفضولى في نفسها . فإذا صح هذا ، وإذا لم تكن قد صنعت عني لأنني لم أرض هذا الفضول ، فجدير بى أن أقر بأنني خلقت لأكون ضحية عيوبى وضغنى ، ما دام الحب المظفر مصدر تماعة لى ، والحب المهزوم مصدر تماعة أكبر !

هنا تنتهى مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليل لى في هذين الجزئين . ومنذ الآن ، لن يكون لى سوى أن أقفوا آثار فكرياتي ، لكتها - في هذه المرحلة قاسية - ما تزال باقية ، كما أن طابعها ما يزال قويا ، حتى إنني أراها على راس



ضياعها في بحر التعاسات البالغة - عن أن أنسى دقائق
 أول غرق منيت به سفينتي « بالرغم من أن ما بعده ، لا يوفر
 لي سوى ذكريات مرتبكة ، غير واضحة المعالم .
 وهكذا أستطيع السير في كرامتي التالية ، وأنا ما أزال
 كثير الاطمئنان إلى مواقع قدمي ..
 فإذا اشتط بي النأي ، فلن يكون هذا مدعاة لأي عجب !

وفي الجزء الخامس والآخر من ((اعترافات جان جاك روسو))

- يتحدثنا (روسو) عن تعاسات العظمة ، وما يجلبه
 المجد من محن وشقاء ..
- ويحدثنا عن كتبه التي أحدثت انقلاباً في الفكر
 العالمي ، وفي التاريخ السياسي لأوروبا ..
- ويحدثنا عن ثورة أوساط الفكر الأوربي ضده
 وانتكح الرأي العام له ، وهياج معارفيه وجيرانه عليه ،
 وحرق كتبه في الميادين ..
- ويحدثنا عن عداة السلطات له ، وما أصبته إياه
 الحكومات من سياط الاضطهادات والجور ..
- ويحدثنا عن فراقه لثيريز .. وموت النساء الثلاثي
 لعين أهم الأنوار في حياته وقلبه ..



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الفكر الأدبي الحالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم . فإليك ما كتبه عن الفكر المطبع الاستاذ «سلاعة موسى» في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) . إذ قال :

«واعترافات جان جاك روسو من الكتب التي كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الاستاذ «عبد الرحمن صدقي» في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» . وانصرف الأدباء وجسمرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى . ولكنهم لم وإن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) . ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل . أما نجوى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل .»

والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة كاملة لها باللغة العربية . هي أديق وأصدق مصدر لسيرة الفكر العبقري «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم المميزات التي كتبت الخلود لهذه الاعترافات . أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه . فقد سجل «روسو» في هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها - طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حامد مراد

